رواية
السّقوط في الشّمس
د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

السّقوط في الشّمس

السّقوط في الشّمس

رواية

د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

الطّبعة الثالثة
٢٠٢١

Book Title Falling in the sun	عنوان الكتاب:السّقوط في الشّمس
Third Edition2021	الطبعة الثالثة2021
Author :Sanaa Shalan Dr.	المؤلف: د. سناء شعلان (بنت نعيمة)
Book type :Nove	نوع الكتاب: رواية
Number of pages:336	عدد الصفحات:٣٣٦
Filing number 3850/8/2014	رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ر.أ: (٣٨٥٠/ ٨/ ٢٠١٤)
ISBN 978-9957-545-08-6 Sanaa Kamel Shalan	الرقم المعياري الدولي (ISBN) 978-9957-545-08-6 سناء كامل شعلان
Descriptors The Arabic Stories // The Modern Era	الواصفات القصص العربيّة // العصر الحديث
All rights reserved to the author Dr.Sanaa Shalan	جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة د. سناء شعلان (بنت نعيمة)
Author's address Dr. Sanaa Shalan Jordan, Amman, Post code: 11942 P.O. Box 1351 Mobile, WhatsApp and Viber: 00962795336609 selenapollo@hotmai.com Facebook: Sanaa Shalan	عنوان المؤلف د. سناء شعلان الأردن- عمان- الرمز البريديّ: ١١٩٤٢ ص. ب١٣١٨٦ خلوي+ واتس+ فايبر ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩ selenapollo@hotmail.com Facebook: Sanaa Shalan
Publisher Al tnoor Kulttuurinkeskus ry Väinölänkatu 19B38 33500 Tampere Finland Hassan Abbas.Dakhel 00358456606168 altnoor62@gmail.com	بيانات الناشر مركز التّنور الثقافي فنلندا- تامبرة ٣٣٥٠٠ عباس داخل حسن ٠٠٣٥٨٤٥٦٦٠٦١٦٨ altnoor62@gmail.com
Cover design Asma Jaradat - Asma Office for Design and Directing	تصميم الغلاف أسمى جرادات- مكتب أسمى للتصميم والإخراج

- **يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنيّة أو أي جهة حكومية أخرى.**
- **تم إعداد بيانات الفهرسة والتّصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية**
- **جمع حقوق الملكيّة الأدبيّة محفوظة للمؤلّفة د. سناء شعلان (بنت نعيمة)، ويُحظر طبع أو تصوير أو ترجمة هذا الكتاب أو أي جزء منه أو إدخاله على الكمبيوتر أو ترجمته على أسطوانات ضوئية إلاّ بموافقة خطيّة منها.**

- The author bears the full legal responsibility for the contents of this publication. This publication does not reflect the views of the National Library Department or any other government department.
- The primary indexing and classification data was prepared by the Department of National Library.
- All rights reserved to the author Sanaa Shalan. No Part of this book may be reprinted, photocopied, translated or entered into a computer or translated into a disk without the permission of the author.

الإهــــداء

لأنّ قلبي أهداني إليكَ، لأنّ روحكَ تسكن جسدي، لأنّ طيفكَ يلازمنّي أبداً، لأنّ كلّ ما صنعتْ يداي يحاكي رسم عينيكَ، أقول لكَ، وأستثني البشر أجمعين:

إليكّ

(١)

روحي،

أنتَ روحي، ماذا تقول؟

مجنون، أتسرق الأرواح؟ اتّهمنّي كما تشاء؟ ماذا؟ ماذا تقول؟

من أين سرقت روحي؟ لا أعرف، أتعرف أنت؟

لا بد أنّك تعرف، أنفاسك تقول أنّك تعرف، جسمك مضطرب ويتفصد عرقاً، لماذا؟ تعال، اجلس إلى جانبي، ودعني أتحسّس ذلك الضّلع العجيب الذي خلقت منه.

أنتَ من روح الخالق، وأنا نسيبة جسدك وبعض من وشائجه، نعم، ضمنّي، تحسّسني بعطف يشبه عطف الجسد على عضوه، تحسّسني بشوق يشبه شوق المسافر المعنى للبيت القديم، تحسسني بدهشة تشبه دهشتك عندما خلقت من ضلعك، تحسّسني بألفة تشبه ألفة روحي لروحك، روحي التي تلهث دائماً وراء روحك العابثة.

لماذا تتحسّسني بهذه الطّريقة؟ أنت تخيفني، أرجوك اتركني، بل أرجوك أن لا تتركني. من أنا؟

سأعترف الآن، لن أصمت بعد الآن.

أنا عشق نساء الأرض كلّهنّ، أنا شوق نساء الأرض كلّهنّ، أنا رغبة نساء الأرض كلّهنّ تحاصر رجلاً واحداً، نعم، هو أنت.

أتعرف حوّاء؟

سرقتْ روحها منكَ، لكنّك أحببتها أليس كذلك؟ هي رفيقتكَ في الرّحيل الأكبر، أمضتْ أربعين عاماً تبحث عنك ليلاً ونهاراً، تفضّ عذرية الغربة بحثاً عنكَ في المنفى الأرضيّ حتى وجدتكَ.

روحي سكنتْ جسدها، بل سكنتْ أجساد آلاف النّساء العاشقات، سكنتْ جسد امرأة أفنت العمر في انتظار الزّوج الغائب، سكنتْ جسد جارية فرعونيّة تستقبل الموت راضية إلى جانب سيّدها الحبيب الميت، سكنتْ جسد أسيرة تعسة تقع في عشق آسرها، سكنتْ جسد امرأة مصابة بالجذام تعشق طبيبها الجريء، سكنتْ جسد امرأة عشقتْ صورة رجل لم تقابله، سكنتْ جسد امرأة تموت مخذولة من حبيب خائن، سكنتْ جسد عذراء انتظرت فتاها آلاف السّنين، لكنه لم يأت، سكنتْ جسد فتاة تودّع الحياة مختارة لتزفّ إلى الموت الذي التهم من تحبّ، سكنتْ جسد امرأة وفية لرماد في جرّة كان في يوم عشقاً آدميّاً يذيبها سعادة وشهوة، سكنتْ جسد كاهنة أوغاريتيّة تعشق بجنون، وتزرع الدّنيا ياسميناً يعشقه فتاها، سكنتْ جسد فتاة صغيرة تعشق إله إغريقيّ يعشق عشقها له، سكنتْ جسد بدوية تائهة عطشى ترسم وجهك سراباً في صحرائها الجافّة، سكنتْ جسد فلاّحة نذرت شبابها وقوداً في محرقة أعباء الحياة تتقاسمها مع شريك عمرها ومليك قلبها، سكنتْ جسد وثنيّة عاشقة تقدّم حياتها قرباناً لشفاء الحبيب، سكنتْ جسد عاشقة مجهولة سرقت قبلة من خدّ حبيبها

النّائم، وولتْ هاربة بغنيمتها الثّمينـة، سـكنتْ جسـد امـرأة خضّـبت يديها بالحنّاء انتظاراً للحبيب الذي عاد جثة من المعركة.

روحي سكنتْ، وسكنتْ، ثـم سـكنتْ جسـدي الـذي عشـقك أبداً، بعدما أسكنته لآلاف السّنين في جسد آلهة عذراء، تطـوف الـدّنيا تزور السّماء، تقبّل النّجوم، تخرج كلّ ليلة باحثة عنك، فتجدكَ ممتطيـاً عربتك الذّهبيّة، تحمل الشّمس، وتهدي النّـور للبشـر، وتنـديهم مـن ينبـوع رجولتـك وبهـاء طلّتـك، فتقبّلـك، تهـديك دفلـى مشـاعرها، وتركض نحو البعيد، بانتظار ليل الغدّ.

روحي طافت السّـماء والأرض لتلقـاك، لتلـتحم بـكَ وتـذوب فيكَ، روحي تحلّق مسحورة حول مومياء مصريّة، محفور علـى نعشـها بماء اللّعنة:

أنّني أستنشق الهواء العذب الخارج من فمك
وأتأمّل كلّ يوم في جمالك
وأمنّيتي هي أن أسمع صوتك الحبيب
الذي يشبه حفيف ريح الشّمال
إنّ الحب سيعيد الشّباب إلى أطرافي
أعطني يدكَ التي تمسك بروحي
وسوف أحتضنها وأعيش بها
ناديني باسمي مرة أخرى وإلى الأبد
لن يصدر نداؤك أبداً بلا إجابة عنه

أمّا الليّلة فروحي تعرج كسيرة، لتتّخذ جسدي المتهدم العتيق موئلاً لها.

الجوّ يغطّ في آخر مداعبات الخريف، السّماء تتهيأ باستحياء لولادة شآبيبها المنتظرة، هاهو القطار يتوقّف عن إصدار صفيره المحموم، يتوقّف في مكانه المرسوم له بالقضبان الحديديّة.

من الشبّاك الذي يجاور الشّاب الحليق الذي يجلس إلى جانبي أتابع حركات الرّكاب المتّجهين جميعاً نحو البوّابات، البعض يشقّ طريقه سريعاً بين الجموع، البعض يتوقّف، يحرك رأسه يميناً وشمالاً بحثاً عن صديق أو قريب في انتظاره، وآخرون يتّجهون سريعاً نحو أقرب حافلة أو سيارة أجرة، يستقلّونها مبتعدين عن المكان.

أصبح القطار شبه فارغ، أسرع إلى التقاط حقيبتي النّسائيّة القديمة، وارتداء معطفي الشّتويّ البنّي اللّون، ذلك اللّقاء الحميم أوّل ما خطف نظراتي عند أوّل خطوة أخطوها خارج القطار، لقاء بين شاب أسمر وفتاة شابّة في المحطّة، أتساءل بفضول من تراه يكون؟ أتابع للحظات حركات أطرافهما واضطراب ابتساماتهما وفرحة نظراتهما المسكونة بكلام، أظنّهما يستطيعان فكّ رموزه.

أصمت، أخطو خطوة ثانية وسادسة وتاسعة، أصبحت في ساحة المحطّة، البوّابات واحدة اثنتان ثلاث... سبع، تماماً كما تركتها منذ ثمانية عشر عاماً، أمّا الوجوه فلا أعرفها.

أشعر برغبة خفيّة تدعوني إلى تفقّد محتويات المحطّـة: الأرضـيّات والمتـاجر والمقاعـد والأشـجار وعمـال المحطّـة وسـيارات الأجـرة والمسـافرون والقـادمون كلّهـم غربـاء، كلّهـم يجهلـونني، وأجهلـهم، تستحضر ذاكرتي صوت العمّ أبي علي، قاطع التّذاكر، يدلّلني بصـوته المعهود قائلاً بدفء فطري ساذج: يا صلاة الزّين على الحلـوين، أيـن عيون الرّجال عنك؟ ألم تتزوّجي بعد؟ فأجيبه إجابتي التي كان يردّدهـا بعدي مقلداً صوتي بسخرية: لا أفكر أبداً في الزّواج.

أين هو العمّ أبو علي؟ لعلّـه رحـل الآن إلى دنيـا أخـرى، كـان رجلاً مسّناً عندما عرفته، تميّزه قامته القصيرة، وبشرته التي تكاد تكون سوداء لكثرة ما لوّحتها الشّمس، فلقمة العيش كثيراً ما تحـرق وجـوه أصحابها لا سيما إذا كانوا فقراء من أمثال أبي علي.

طيّب هو، أهمل متع الدّنيا كلّها، بل أهملته متع الـدّنيا جميعهـا، إلّا متعة الحديث مع المسافرات، والاقـتراب مـنهن حـدّ الالتصـاق في القطار، وافتعال الحكايات والقصص للتّودّد لهنّ، فهـو مسـتعدّ دائمـاً ليهيء مكاناً جيداً لأيّ مسافرة بالقطار لا سيما بالقرب من الشّبّاك في المقاعد الخلفيّة، بل ومسـتعد لحمـل حقائبهـا مقابـل بعـض الحـديث المتقطع معها، وهو يلتهم جسدها وابتساماتها بنظراته المحمومة، بشرط أن تكـون المسـافرة صـاحبة جسـد ممشـوق، يضـطرب بشـباب تحـت ملابس تصفه بجرأة بل، ولا تمانع أحياناً من أن تبرزه، وتكشـف عـن أديمه في بعض المواقع لا سيما في مناطق الصّدر والرّقبة والأكتاف، أما إذا كانت المسافرة كبيرة أو سمينة فلا نصيب لها عنده أبـداً، فسـرعان

ما يتجهّم، ويعطيها تـذكرتها بخشـونة وبحركـة آليّـة بغيضـة، ويسـارع ليرقب وجوه الحسـان المبتسـمة لـه أو منـه ترقبـه مـن نافـذة القطـار مبتعدة، ويعود إلى مكتب المحطّة لينتظر القطار القادم، فحياتـه لم تكـن سوى المحطّة ونساء المحطّة.

بقيتْ المحطّة، وهاهي النّساء تملؤها، أمّا العمّ أبو علي فأظن أنّـه قد رحل الآن، تنبعث رائحة القهوة في المكان من إحدى المقاصـف في المحطّة، هذا المقصف لم يكن في الماضي، بل المتاجر كلّها باتـت مختلفـة: الواجهات، التّصاميم الألوان، السّلع، الوجوه جميعها قدّ تبدّلت.

أمّا بائع الزّهور فلا مكان له هنا، أصبح متجره يبيـع المثلجـات التي تبدو شهيّة، ترى متـى أغلـق متجـره؟ لعـل زهـوره قـد حزنـت لفراقي، فأنا كنت عاشقة لها، متجره كـان قـبلتي الأولى عنـد وصـولي إلى هذه المدينة، كنـت أختـار زهـوري بنفسـي، بـل وأنسـقها بيـدي، وأدلف إلى المدينة وأنا أضمّ باقة حمراء إلى صدري، دائماً حمراء، هكذا هم العاشقون دائماً يحملون الورود لمن يحبّون.

أمـا الآن فـلا متجـر للـورود، لا متجـر للأشـواق، أيـن ذهـب العاشقون؟ أنا كنت شعباً من العشاق، هذا المتجر يقتات من عشـقي، أطيل التّحديق في واجهته الزّجاجيّة، يدعوني صاحبه للدخول، لكـنّني أتجاهـل دعوتـه، وأسـير بتـؤدة حطّمهـا الانتظـار، وأثقلتهـا السّـنون والذّكريات.

أجلس في أحد المقاعد الخسبيّة، تظلّـني السّـنديانة القديمـة، لقـد أصبحت كبيرة وضخمة، لكنّها ما تـزال شـابّة، أشـعر بـأنّ غصـونها

الوارفة ترحّب بي بشكل خاصّ، وتشفق على وحدتي، لقد عرفتني في حين أنّكرتني المحطّة؛ فالسّنديانة لا تنسى أبداً من يحفرون بدموعهم على جذعها.

الكلّ يسير مسرعاً، ففي مثل هذا الصّباح الباكر تستقبل المحطّة الكثير من المسرعين وأصحاب الحاجات والوظائف والأعمال، إلّا أنا فأجلس بهدوء أرقب الوجوه، أتحسّسها بحنوّ غريب، بحنوّ الأمّ التي تفتقد صغارها، كما أفتقد أحلام بالذّات دون إخوتها، أفتقدها بقدر ما أخشى والدها، لأول مرّة أخشاه، لطالما سببت له الحزن، لقد أرادني حبيبة، فلم أعطه غير زوجة بليدة وحفنة من الأبناء وحياة هادئة ورتيبة إلى درجة الغثيان، أخشاه كثيراً؛ لأنّني أهنته عندما حزمت حقائبي دونما أيّ سبب، وتركت أبنائي بل تركت حبيبتي أحلام باكية وحيدة، تحدّق في وجه أبيها المخذول، وامتطيت أشواقي، وقطعت نصف الأرض لأعود إلى هنا، لقد وصلت قبل ساعات قصيرة إلى البلد، وهرعت مثل المجنونة إلى القطار.

ها أنا ذا لا تفصلني عنك إلّا دقائق قليلة، لن يسامحني زوجي أبداً، أنا أعرف أنّه لن يفعل ذلك مهما توسّلت له ليفعل ذلك، له الحقّ في ذلك، لقد منعني من الحضور، وخيّرني بين رؤيتك وبين أبنائي وعمري وسمعتي، خمن من اخترت؟ اخترت رؤيتك، لا شيء يمنعني عنكَ، القدر لا تصدق به، أنا أمقته، حبّك هو قدري.

دائماً أعلمتكَ أنّني مستعدّة أن أحرق الدّنيا بخوراً في معبدك، كنت تضحك عندها، ولا تصدق كلامي هذا، هاأنا ذا أحرق دنياي تعويذة سحريّة كي أراك.

ستوبّخني على هذه الحرائق، ستقف مقهوراً وأنت تنظر إلى دنياي وقد احترقتْ، ستقول لي بنبرتك الحالمة: لمَ فعلت هذا؟ لمَ هدمت بيتك، وأضعت أبناءك من أجل رؤيتي؟ لقد خسرت زوجك للأبد، ولأجل من؟ لأجل رجل لم يستحقّك أبداً، اللّعنة، ما تزالين مجنونة بشكل استثنائيّ.

عندها سأقول لك غير مبالية بالدّنيا ونيرانها بل غير مبالية بدموع أحلام وأنكسارات زوجي وهمسات الأقارب وسخرية المعارف: لقد عدت إليك.

لطالما كنتَ فضولياً وقلقاً بشأن وحدتي، فأرحتك، وتزوّجت كي تشعر بالرّاحة، ولا تتململ في فراشك قلقاً من وحدتي وغربتي في فراشي، في البداية حدّثتك في رسائلي طويلاً وطويلاً عن زوجي، ثم عن طفلتي الأولى أحلام، ثم انقطعتْ المكالمات بيننا، يبدو أنّ شعورك بالذّنب نحوي مجرد جرح ليس إلاّ، وقد برأ بزواجي من غيرك.

لم تتّصل بي لأخبرك أنّ أحلام قد كبرت، وقد أصبحت فتاة جميلة، حسناً فعلت بعدم اتّصالك بي؛ فأنا لم أعد قادرة على زف أي أخبار لك عن أسرتي وزوجي وأطفالي.

أتململ في مقعدي الخسبيّ، أتخيّل عيون الشّباب والمتطفّلين تلتهمنّي، وأحاول أن أتهرّب منها، فلطالما طاردتني نظراتهم وتعليقاتهم في الماضي، هكذا تعوّدت على أن أجلس على هذا المقعد متحمّلة تعليقات المسافرين التي تغلظ أحياناً، وترقّ أحياناً أخرى في انتظار القطار.

أجيل نظراتي سريعاً في المكان، أجد الكثير من المسافرين القادمين والباعة، لكن لا أجد أيّ نظرة إعجاب أو رغبة في عيونهم لي، بل لا تغازلني أيّ كلمة شابّة، ابتسم ساخرة من تخيّلاتي، فالمحطّة أثارتْ بي ذكريات الماضي، وجعلتني أخال نفسي المسافرة الشابّة ذاتها التي كانت تجلس في هذا المكان منذ سنوات طويلة، فتنشر بشرتها الورديّة وعيناها الصّافيتان العطر والجراح في المكان كما كتبت لي في دفتر مذكّراتي في يوم من الأيّام.

ما زلت أحفظ كلماتكَ عن ظهر قلب كأنّك همستَ بها في أذني قبل دقائق، ما زلت أحفظ رائحة جسدكَ المتعطش دائماً للمزيد كأنّني ما أزال في حضنكَ، أمّا طيفكَ فلا يغيب عني أبداً، رافقني لسنوات طويلة، ثم أصبح طيفكَ هو ذلك الأثير الذي نحدّثه دائماً، ونسرّ إليه بنجوانا، ونسميه أنفسنا، لقد كنتَ بعض نفسي، بل كنتَ كلّي.

قبلكَ لم أحدّث نفسي أبداً، بل لا أذكر ملامح ذاتي، لكن عندما وقعت عيناي عليكَ، بدأت أملك طيفاً ساحراً يرافقني أينما ذهبت، أحدّثه فيسمعني، وأشتكي له فيواسيني، أعاتبه فيقبل عتباي، أحتاجه فيعينني، وفي الليّل يحدّثني، يرقد إلى جانبي، تلفحني رائحته، يهدهدني بقصصه حتّى أنام.

حدّثته طويلاً وطويلاً عن رحلتي المعنّاة معك، كلّ ليلة احتضنته بدموعي، وكفنته بآهاتي، وتركت أناملك تتغلغل بسحر في خصلات شعري.

أشعر بوحدة خرافيّة في هذا المكان، أكاد أشعر بقدمي تخوران، فلا تكادان تعينانني على الوقوف، أمعائي تضطرب، والقيء يكاد يصل الى أعلى بلعومي، بعد هذه السّنوات كلّها ما زال جسدي يضطرب كلّما اقترب موعد لقائك، كم من الدّهور سأنتظر حتّى يقبل المساء، وأراكَ؟

طيفكَ يحاصرني، ويجثو قريباً منّي، يستفزني بدعوى الذّكرى، ويدفعني نحو الماضي، نحو الذّكرى نحو جنّة الهوى، وبحركة طفوليّة يدفعني إلى سفْر الماضي لأقلّب صفحاته منذ البداية، حيث ألقاكَ.

في أوّل صفحات السّفر كتب بماء الذّكريات والألم...

(٢)

ثلاثة طوابق من السّلالم تهبطها حتى تصل إلى قاعة كبيرة ذات أبواب خشبيّة تتوسّطها نوافذ زجاجيّة دائريّة الشّكل، تشعركَ بأنّك ستدخل غواصة محكمة الإغلاق أو غرفة للعمليّات.

عندما تتجاوز هذه الأبواب تجد نفسكَ في قاعة ضخمة، مقسّمة بشكل يثير الفضول، في الجهة اليمنى باب ينفتح على مجموعة من المكاتب الإداريّة، ووسط القاعة بهو فسيح يزخر بآلات صنع الفخّار ومعدّات الحفر وطاولات التّنفيذ، إلى جانب السبّورة طاولة ومجموعة من المقاعد الفرديّة، الجوانب تتشاطرها الخزائن وأحواض صنابير الماء، أمّا في أقصى الشّمال فيقع قسم الأفران الحراريّة الذي ينفرج عن درجتين تدلفان مباشرة إلى مستودع وصالة للعرض مبرّدتان بشكل خاصّ.

هناك قابلتكَ لأوّل مرة، كنت حينها ألبس ثوباً أزرق، أزرق مثل زرقة السّماء، اللّون الذي أحببته دائماً، وقلتَ: إنّه لون من المستحيل أرسل إلى الأرض خصّيصاً كي ألبسه، قلتَ لي: أنّني في الأزرق أصبح أجمل وأكثر وداعة وأقلّ حركة، تلك الحركة وذلك النّشاط اللّذان كنتَ تعجب دائماً كيف أنّهما وهبا بهذا السّخاء كلّه لامرأة واحدة في ثوب أزرق.

كنت ألبس الأزرق، وأغرق في مقعدي الخسبيّ في الصّف الأخير من القاعة، استعرض الوجوه الجديدة التي توالي الـدّخول إلى القاعـة خارجة من سيل الوافدين الـذي تعـجّ بـه الرّدهـات، فتصـنع هرجـاً ومرجاً يتداخل مع رائحة أول قطرات المطـر تختلط بـالتّراب، فيعبـق المكان برائحة أمّنا الأرض تقبل بلذّة على الشّتاء.

تأخّر قدومكَ بضع دقائق، وكادت كلمات المجاملة التّقليديّة الـتي أعرفها تنفد منّي خلال حديثي مع فضـيلة الـتي كنـت حديثـة المعرفـة بها، فأنا لم أعرفها إلّا منذ أيّام قليلة، عندما قابلتهـا صـدفة في مكتـب رئيس شعبة المنح الأكاديميّة.

أزعجني تأخركَ؛ فأنا على موعد معكَ منذ آلاف السّنين، وها أنا ذا أنتظركَ هنا، متّشحة باللّون الأزرق الـذي تحبّـه، دون أن أتأكّـد إنْ كنت سأراكَ بعد دقائق أم لا.

لقد شعرت بكَ تقترب، أشعتكَ كانتْ تسبقكَ، وتتسـلل بسـحر إلى المكان، تردّد على مسمعي أسطورة أبيك (زيـوس) العظـيم، كـبير آلهة اليونان، لقد كان متزوّجاً من إلهة الـزّواج (هـيرا)، تلـك الجميلـة التي وهبت له حبّها كلّه، بل وغيرتها.

لقد كان قويّاً جبّـاراً، لكنـه ركـع أمـام الحـب، وهجـر حـب السّماء ليعشق آدميّة فانية تسمى (لاتونـا)، وتزوّجهـا، فوهبتـه أجمـل

توأمين: (هيليوس) إله الشّمس والرّجولـة والأدب و(أرتـيمس) آلهـة القمر والصيد.

(هيليـوس) ذلـك الإلـه الشّـاب الجميـل ذو العيـون الزّرقـاء، والشّعر الأشقر المجعّد، والجسد الرّجوليّ الرّائع الذي يمثل نهراً خالـداً للرّجولة، يركب عربته الشّمسيّة، ويندي العالم بنوره الخالد.

أنا لا أؤمن بالأساطير، هكـذا كنـت أظـن نفسـي، فقـط أحـبّ قراءتها، لكن عندما دلفتَ إلى القاعة، شعرت بـأنّ الأسـاطير حقيقـة تتجسّد أمامي، تنـدي القاعـة بجسـدك الفضـيّ الـذي يفـيض رشـاقة وجاذبيّة، أعضاؤك متناسقة بدقّة غريبة، لدرجة أنّها قد راودتني دائمـاً فكرة مفادها أنّ مقاييس أعضاء جسدكَ لو اختلفت بمقدار ملـيمترات لما عرف البشر معنى كلمة رجل يفيض جسده بالرّجولة.

عيناكَ تكسوان وجهكَ بل ووجـه الرّائـي لهمـا ببـــريق عجيـب يشعر من أمامكَ أنّه يعرفكَ منذ آلاف السّنين، بل وأنه قد عبدكَ حـدّ الموت، أمّا شعركَ فخصلاته تسابق بعضها البعض لرسم لوحة عجيبة لقرص الشّمس عند الغروب، يمتد شعرك في الاتّجاهات كلّها ليعـانق بفوضويّة رجوليّة تتوافق مع طبيعته المجعّدة أطـراف رقبتـكَ وأذنيـكَ، ويشابه بلونه الفريد لون تلك الشّـعيرات الـتي تنبـت بسـحر في أديـم صدركَ المكشوف مابين الزّر الأوّل والثّالث مـن قميصـكَ السّـماويّ اللّون، لتظهر بروز عظام رقبتكَ وكتفكَ وصدركَ بشكل يحاكي تمثـال إغريقيّ قديم.

قالت إحدى الطّالبات بصوت خفيض ساخر تسرّب إلى أذني دونما قصد منّي: شعره يشبه شعر أينشتاين. فاستثارت حنقي، وشتمتها بنفسي قائلة: غبية.

سرعان ما أعلنت لنفسي أنّني أكرهك، وسأكرهك إلى الأبد، لماذا؟ لا أعرف. فأنا دائماً ثائرة، قليل ما أعرف سبب ثورتي، أمّا فيمعظم الأوقات فأنا ثائرة حدّ الموت، لكن دون أن أعرف السّبب في ذلك؛ هكذا أنا ولدت كي أكون ثائرة.

تجلس بثقة كما أعتاد (زيوس) العظيم على أن يجلس على عرشه الذّهبيّ المرصّع بالماس والحجارة الكريمة، يأمر، وينهى، فيطاع.

كنتَ تتحدّث ببطء عذب، طبقة صوتكَ العميقة الدّافئة تثير في أذن السّامع لذة غريبة، يحصل عليها عبر دفعات من الكلمات المنطوقة بتؤدة ودودة.

عيناك لا تهبان نظراتهما الجميلة لوجه بذاته، تحلّقان في البعيد نحو بحيرة بنية في عميق عينيكَ، لكنّهما تنديان الكلّ بنظرات دافئة تحثّهم على السّماع والانتباه، أمّا عندما يأتي دوري لأحصل على هذه الهبة السّخيّة، فأستقبلها بنشوة أجهل سببها.

كم أنهكتني عيناكَ ذاك اليوم، طاردتهما لآلاف السّنوات، والآن أطاردهما في القاعة، لدرجة بتّ أظنّ أنّ كلّ من في القاعة يسمع صوت لهاث نظراتي التي تسرق آلاف الأمنيات والوعود من وجهكَ

الطيّب، أمّا خاتمكَ الفضيّ ذو الحجر اللاّزورديّ السّاحر الذي يحاصر إصبعكَ، ويشتمّ بثمالة أديم يدك السّكريّ يؤكّد لي بحركته المتمايلة في إصبعكَ وعودكَ وأمنّياتي.

جلْستكَ وحديثكَ وخاتمكَ بقيتْ دائماً بالنسبة لي سحراً لا ينفكّ يفتنني في كلّ مرة، كم كرهتكَ في ذلك اليوم؛ لأنّك حفظت اسم فضيلة، ولم تحفظ اسمي، لكنّني قرّرت قتلك عندما قلت: أنّني أشبه إحدى طالبات القسم، كيف أشبهها؟ أنا مختلفة عنها بالتّأكيد، مختلفة عنها بمهمّتي، فأنا بعثت إلى الأرض في مهمة واحدة، وهي أن أحبّك.

سرعان ما أنهيتَ حديثكَ، وأسرعتَ بعيداً بعربتك الذّهبيّة، وغابت شمسكَ، ونزل المطر.

لن تصدقني لو قلت لك: أنّني في ذلك اليوم قرّرت ترك الأكاديميّة، ومنع نزول لعنتكَ عليّ، والعودة إلى بلدي، ونسيان الدّنيا كلّها لأنساكَ أنت بالذّات، بل تمنّيت من كلّ قلبي أن تحترق الدّنيا والأسماء والأماكن والشّخوص لتحترق أنتَ بالذّات.

أكرهكَ، لكن لا أعرف سبب كرهي لك، وإذا ابتسمتَ لي أو كلّمتني فسأقتلكَ. هذا ما قلته لجدّتي عنك في أوّل مكالمة لي معها بعد مقابلتي الأولى لكَ، جدّتي التي اغتنمت فرصة انزعاجي لتبكي بحرارة، وتسبّ والديّ اللّذين سمحا لي بالسّفر بعيداً ركضاً وراء منحة مجنونة و(تكسير صخور) كما كان يحلو لها أن تسمّي دراستي

وفنّي، وأقفلتْ الهاتف بعد أن غابت في موجة من البكاء اعتدتها فيها؛ فهي من أكثر النّساء عشقاً للبكاء، هكذا هو طبعها.

أمّا الحال في بيت الضّيافة فقد كان مختلفاً، لا سيما للفتيات المستجدّات أمثالي وأمثال نورما التي كانت تغرق المكان بضحكاتها اللّعوب التي سرعان ما تتعالى لأيّ همز أو لمز أو إشارة مثيرة من نوع خاصّ اعتادت عليها في بيئتها المتحرّرة نوعاً ما.

لم يفارقني طيفكَ تلك اللّيلة، لكن الأمر بدا لي غير مقلق، فمن الطّبيعيّ أن يراودني طيف شخص أكرهه، ومضطرة في الوقت ذاته إلى أن أتعامل معه، وأن أستفيد منه دون أن أثير ضغينته أو كرهه، بسبب خصوصيّة دراستي التي تحتاج إلى ذوق وقلب ومزاج المعلّم قبل علمه، هكذا هو النّحت وصنع التّماثيل، تقدّها من الصّخر، وتشكلها بالأزاميل، لكن تبعث فيها الرّوح من شعلة قلبك، وهائم فنّك وموهبتك، جسد من صخر، وقلب من دم وعشق، الموت والحياة معاً، هذه هي فلسفة الحياة (الشّيء يحمل نقيضه) وفلسفتي الشّخصيّة التي لطالما ردّدتها أمامك، لكن عندما كنتَ تردّدها أمامي، وتستشهد على صدقها بمواقف كثيرة من حياتك، ومن سلوكي المتطرّف حسب رأيكَ، وتعجب من أنّك لم تدرك هذه الثّنائيّة العجيبة بين الشّيء ونقيضه قبل أن ألفت انتباهكَ إليها، كنت أشعر بمعنىً آخر لهذه الفلسفة.

جميل أنّ دار الضّيافة تحتوي على هذا العدد الكبير من المرايا الطّويلة؛ فلأوّل مرة أشعر في حاجتي أنا المرأة إلى مرآة، أقفل الباب

علي وإياها، أتعرّى أمامها، أحدّق في كلّ جزء من جسدي، أتأمّل لون البشرة، أتحسّس أديمها، أحدّق في عيني، أتأمّل في لونهما، أتساءل عن معنى البريق الذي يسكنهما منذ أن رأيتك.

أقترب من المرآة، أبتعد عنها، أتأمّل استدارة وجهي في المرآة، أتأكّد من أبعاده، أحاول رؤيته من أكثر من زاوية، أتلمّس أطراف شعري، أداعبه بيدي، وبحركة سريعة أسمح لبعض عقاربه بأن تتدلّى على جبهتي، أشتمّه، وأحفظ رائحته، وأتساءل ترى ما هي رائحة شعرك؟ أظنّها رائحة النّعناع البرّي التي تنقل رائحة الجبل.

أتأمل في وجه نورما، وهي نائمة، تبدو لطيفة وطيّبة، لكنّني لن أسامحها أبداً، كيف تجرؤ على أن تقول لي: إنّ وجهكَ مألوف بالنّسبة لها؟ فقد لمحتك أكثر من مرة في مرآب الأكاديميّة. أرأتك قبلي؟ أغمرتها أشعتك الذّهبيّة قبلي؟ كم من النّساء نعمن بدفء أشعتك قبلي؟ الويل لنساء الأرض كلّهنّ من عشقي لك.

(٣)

لا أحبّ الكتابة، بل لا أتقنها، لكن عندما أفكّر بكَ تجتاحني آلاف الكلمات، وأصبح بكلّ بساطة أعشق الكتابة، أنتَ تحبّ القراءة، قراءة كلمات العشق، وأنا أعشق أن تقرأ كلمات عشقي، أرسلت لك آلاف الكلمات على بطاقات تزينها الورود التي أعشقها، فهل قرأتَ كلماتي كلّها؟ كتبت لك في يوم:

أيّ شيء كنت بالأمس وهل بالأمس كنت؟

كنت بالأمس سراباً ومع الأمس دفنت

كلّ يوم عشته قبلكَ ما كان حقيقة

أمس عمري عرف الدّنيا

وأمس اختار للدّنيا طريقة

لم يكن الأمس دونكَ إلّا مجرّد ذكرى، تلحّ النّساء في دار الضّيافة على سؤالي عنها، فنساء الدّار لا تختلف عن نساء الأرض، أسئلة كثيرة، ورغبة دائمة في معرفة المزيد والمزيد عن حياتك، لا أعرف لماذا تجمّدت ذكرياتي عن ماضي الخاصّ بي بعد لقياكَ، وأصبحتْ خيطاً بارداً من الذّكريات تكلله بعض الزّهور.

حياتي بسيطة، لكن جميلة تتلخص في أسرة طيّبة، وأبوين متحابين بشعر بدأ الشّيب يغزوه، قطعا جزءاً كبيراً من رحلة العمر سوياً في سبيل بناء أسرة متّحابة، تنبت أبناء طيّبين وإيجابيين مثلهم

تماماً، لا أقول هذا عن والدي لأنهما والـداي، لكـن مـن يعرفهمـا، ويعرف معنى كلمة طيّب، يدرك كـم همـا علـى قـدر مسـتحيل مـن الطّيبة، كيف لا يكون طيّباً مـن يحـبّ الحيوانـات، ويربيهـا؟ كيـف لا تكون طيّبة من تعشق الورود، وتزرعهـا في حـديقتها وعلـى منــزلها؟ ذلك هو أبي، وتلك هي أمّي.

أشعر أحياناً بأنّ حياتي قبلك لم تكن، وكلّ ماضـي قبلـك مجـرّد ذكريات أوحتها لي صور لا تخصّني، تشبه تلك الصّـورة القديمـة الـتي لا أملك غيرها لطفولتي، صورة غريبة، فبينمـا الأطفـال الـذين معـي يلهون، ويعبثون بالماء، أجمع أنا الورود، وأجعل منها طاقة قـد أذبلتهـا الشّمس وطول ضمّي لها، وأنظر نحو البعيد ليس نحو الماء أو الأطفـال مثلما هي عادة الأطفال في مثل هذه الصّورة الطّفوليّة العفويّة، كـأنّني ولدت كي أجمع الورد، وأنتظركَ أنتَ بالذّات.

لمـدة أربعـة أيّـام لم أركْ، بـل تجنّبـت أن أراكَ، لم أذهـب إلى الأكاديميّة، وكانت تلك المدّة فرصة ذهبيّة كي أتعرّف بشكل جيد على تلك المجموعة الطريفة التي رتب لي القدر فرصة اللّقاء بهـا، لكـنّني لم أرغب أبداً في إهدار طـاقتي في الهـروب منـك، فمنـذ اللّحظـة الأولى عرفت أنّك قدري.

في الطّريق إلى المتحف تأمّلت أشجار السّنديان، جميلة هـي لأنّهـا صامدة وقديمة، أتراكَ تحبّها مثلي؟ من المدهش أن أزور متحفـاً عريقـاً قرأت عنـه في دليـل المدينـة الـذي وجدتـه مصـادفة في مقطـورتي في طريقي إلى هذه المدينة.

سأمضي هناك الكثير من الوقت، بل سأزور مرافقه كلّها، هذا ما وعدت نفسي به، كنتَ في قاعة أعمال الطّلبة المخصصة لتلك الأعمال التي يحاكي بها طلبة الأكاديميّة بعض النّماذج العالمية للتّماثيل والمنحوتات واللّوحات، أتأمّل ذلك المثال البديع الذي يمثّل امرأة حسناء بعيون ساحرة وقدّ غضّ، ورداء يونانيّ فاخر، عندما سمعت صوتكَ يقول: تشبهك، أليس كذلك؟ لم أفاجأ بسماع صوتكَ؛ فأنا كنت بانتظارك، فأنت قدري، لكنّني ارتبكت عندما استدرت لأجد قدّك الممشوق أمامي، قدري يغرق في اللّون الكحليّ الذي ترتديه ليشيع في عينيكَ بريقاً غريباً، شعرت بأنّني أمام تمثال لإله إغريقيّ قد بعثت فيه الحياة، كي يسحرني، قد تكون الآلهات خرافة، لكنّني أؤمن بالخرافات إذا تعلقت بوجودك.

أجبتك باضطراب: التّمثال جميل.

قلتَ لي بثقة: اسمها جالاتيا.

كررت كلامك: آه، جالاتيا.

قلتَ لي : جالاتيا اسم تمثال أسطوريّ، ورد ذكره في أسطورة فنان قبرصيّ اسمه (بجماليون) صنع تمثالاً معجزة لامرأة يحاكي بها المرأة المثال، ثم عشق هذا المثال، فرجا آلهة الجمال أن تبعث به الحياة، ففعلت، لكنّه لم يطق أن يرى فنه الخالد يصبح بشراً فانياً يهرم، ويموت، فطلب من آلهة الجمال أن تعيد (جالاتيا) إلى حالها الأول، وبعدما استجابت الإلهة له، هوى على تمثال (جالاتيا) بالمكنسة التي

كانت تكنس البيت بها، وحطم تمثاله البديع خوفاً من أن يصبح جسداً فانياً.

كنت أحفظ هذه الأسطورة عن ظهر قلب، لكنّني وجدت لها وقعاً خاصّاً وأنت تسردها عليّ، كلماتك تتهادى بدفء، وأنت تلفظها بصوتك العميق، وكأنه يتسرّب من جدار الزّمن، أمّا عيناك فترى فيهما القصص تتراقص، وتتجسّد وتسلّمك نفسها.

قلتَ لي وأنت ترقب أثر كلماتك في ملامح وجهي: لقد رأيتكَ من قبل في الأكاديميّة، ما اسمك؟ تأمّلت عينيك، لأوّل مرة في حياتي أتأمّل عيني رجل وأنا أبحث فيهما عن نفسي. قلتَ في نفسي: بل رأيتني قبل ألف سنة، وأحببتك: اسمي...

قلتَ بنبرة ساحرة: اسم جميل.

أجبتكَ بسرعة، وكأنّني قد هيّأت هذا الرد من ألف سنة: أسماؤنا أسخف ما نحمل، أسماؤنا ليست لنا، بل هي ملك للقدر. أجبتني بابتسامة جذابة: أنا أعشق النّساء الذّكيات. قلت لك بجرأة لم أعهد مثلها في نفسي، بل كنت اسميها أحياناً وقاحة: وهن يعشقنك، أنا واثقة من ذلك.

بدا عليكَ أنّك ألّفت مثل هذه الكلمات من النّساء، قلت لي بهدوئك الدافئ: أشعر بأنّني أعرفك، هل قابلتك في مكان ما قبل لقائنا في الأكاديميّة؟

- لا، فأنا لست من المدينة، بل أنا جديدة العهد بها.

تفرست في وجهي كأنّك تتلمسه، وسألتني بتوجّس غريب: مـن أي مدينة أنت؟ أجبتك: من...

قلت لي بعفويّة من تذكّر اسـم شـخص كـان قـد غـاب عـن ذهنه: آه، من...، لقد عملت فيها منذ سنوات طويلة.

- حقاً؟ متى؟

عدتَ لابتسامتك الجذابة، وقلت لي: منذ سنوات طويلة، أظنّك لم تكوني قد ولدت عندها بعد.

- في أيّ عام كنت تعمل هناك؟

- في العام...

- رائع، لقد كان عمري عندها عام واحد فقط.

شعرت بـأنّ جسـدكَ قـد أصبح أقـرب مـن جسـدي، في تلـك اللّحظة شممت رائحـة جسـدكَ تحملـه النّسـمات لـي عنـدما قلـت: تذكرت أين رأيتك، لا بدّ أنّ أمّك كانت تتنـزّه بـك، عنـدما قطعـت الشّارع من أمام سيّارتي، فخاطرت بالتّوقّف بشكل مفـاجئ لأسمـح لها بقطع الشّارع؛ لأنّها تحمل أجمل طفلة رأيتهـا في حيـاتي، وفي تلـك اللّحظـة بالـذّات التقـت عينـاي بعينيـك اللّـتين شـكرتاني بصـمت وتعهدتا لي بلقاء، وأظنّ أنّ هذا هو اللّقاء.

مددتَ يدك لتصافحني، كأنّ اللّقاء المنتظر قـد تمّ، وأنـت ترحّـب به، تأمّلت يدكَ التي امتدت مثـل مـارد نحـو يـدي، شـعرت بأنفاسـي

تضطرب، ويداي ترتجفـان لأوّل مـرة في حيـاتي، أردت أن أضـمّكَ، لكنّني اكتفيت بذوبان كفّي في يدك، لم أسمع كلماتك الـتي قلتهـا بعـد ذلك، فقد كان قرع قلبي أشدّ من أن أسمع معه أي صـوت، لم أسمـع إلّا ذاتي تقول لي بفزع: نعم، هذا هو.

كأن قصتك تلـك كانـت تعويـذة قلـبي، لقـد تلوتهـا دون أن تدري وقع كلماتها السّحريّة عليّ، فقد فتح لكَ قلبي مـن دون البشـر كلّهم؛ لأنّك تحفظ ترنيمته السّحريّة.

ابتسمتَ لي بنـزق هو من طبعـك، شـعرت بأنفاسـك تلفحـني، وداهمـتني بسـؤالك: أتحـبّين الأسـاطير؟ أجبتـك بصـعوبة: أنـا؟ آه، بالتّأكيد أحبّها.

أنـا أحـبّ الأسـاطير؛ لأنهـا تنبـأت دائمـاً بولادتـكَ، وآمنـت بوجـودكَ، لا وجـود لرجـل مثلـك في الحقـائق، أنـت هـارب مـن أسطورة، وأنا ولدت كي أحبك، بل أرسلتني آلهة اليونان كـي ألعنـكَ بحبـي، طريقتكَ غريبة تتوافق مع رجل كتبت لـه: "إن كانـت ولادتـك أسطورة، ولقاؤك خرافة، ودخولي إلى معبدك ارتداد، فلتشـهد الـدّنيا أنّني مرتدة آثمة.

آه ما أجمل أن أنسج الأحلام المستحيل والممكن! لأنسجكَ أنـتَ بالذّات، مستحيل يتحقق وسعادة انتظرتهـا منـذ آلاف السّـنين حيـث قابلتك لأول مرّة في حياتي.

يقولون إنّ القدر هو من ينسج أحلامنا، ويرسم خطانا، لكن ألا يمكن أن نشاركه في نسيجه الذي كثيراً ما يكون باهتاً مقيتاً، فننسج بأحلامنا طاقات من الزهر والغار تحوك بشراً لقياهم يسعدنا، بشراً بقسمات خرافيّة تشبه ملامح تطاردنا في نومنا، وفي الصّباح نطاردها، ونبحث عنها، ونتمنّى لقياها، بشراً أجسادهم بقدر أحلامنا، كلماتهم وهمساتهم تفكّ أسرار صمتنا، وتدعونا للرّقص معها بين الشّموس، فالأرض مساحة قليلة، بل سعادة قليلة مع رجل تنسجه أحلامي.

هل حيّيتني وأنتَ تبتعد؟ لا أذكر، لكنّني أذكر تماماً أنّ عينيك قالتا لي شيئاً قبل أن تذهبا، وترسل عيناي خلفك آلاف الزّهرات.

(٤)

فنجانُك لا يقرأ، غامضة أنت حتى على المجهول، هكذا كان يقول لي الضّابط سعادة عندما يقرأ فنجان قهوتي، ثم يغرق في ابتسامته الحنونة التي تخفي غضباً وعزماً كسره الزّمن والكرسي المتحرّك الذي يسجنه منذ سنوات في سجن يصفه بأنّه عفن.

تتعالى ضحكاته وأنا أحاول خطف الفنجان من يده للتّحديق بعجب في تلك الخطوط الفوضويّة داخل الفنجان، عجباً أيّ سحر في هذه الخطوط يمدّ الضّابط سعادة بكلماته؟ أم أنّ كلماته هي التي تمدّ الخطوط بسحرها؟

ثمّ يعاود الكرة قائلاً: بصدق ما هو برجك؟

- برجي هو برج...

- برج النّساء المأفونات؟

- أنا لا أؤمن بالأبراج، ولا في ما تقوله من أكاذيب.

- أبناء برجك لا يؤمنون أصلاً بالأبراج.

إذن فأبناء برجي لا يؤمنون أصلاً بكلام الأبراج وتنبّؤاتها، تماماً كما لا أستطيع أن أؤمن بصدق تنبؤات الضّابط سعادة؛ فوجهه الأسمر السّمح وقسماته العجوزة الطيّبة البعيدة عن صرامة المشعوذين وغموض المنجمين، تشعرك بأنّك أمام كلمات مجرّب،

وليس أمام تنبّؤات منجم، لكنه يصرّ على أنّه عالم في قراءة النّجوم والطالع، وقادر على قراءة القدر من خلال نظرة واحدة في فنجان من أمامه، وأنا أتظاهر بأنّني أؤمن بقدراته العجيبة في قراءة المستقبل كي لا أستفزّه؛ فمن يريد المحافظة على صداقته عليه أن يصدّق بقدراته الاستشرافيّة المزعومة في قراءة المستقبل.

أنا أؤمن بالمعجزات والأساطير والحواس فوق الخامسة، لكنّني لا أؤمن بالتّنبؤات، فكيف لي أن أقبل بمستقبل ترسمه كلمات آدميّ؟ ليتني كنت أؤمن بصدق قدراتكَ يا سعادة لكنت سألتكَ بل رجوتكَ أن تقرأ لي طالعي، لكنت عرفت منك كلّ جزء من حياة حبيبي، لكنت حلّقت بكلامك في سماء أحلامه، وقرأت كامل سفْر ماضيه وسطور أسراره، ليتني يا سعادة أصدّق كلماتكَ التي تخشى صمتي وتكتّمي وسريّة مشاعري، وترى مستقبلي مجرّد غموض لا تستطيع تفسيره.

أحمد اللّه بسرّي؛ لأنّك لا تستطيع قراءة أفكاري وتلمّس مشاعري، فعشقي هو سرّي الأعظم الذي أتلذّذ بحفظه. أنا امرأة ليست بالجبانة، لكنّ عشقي يربك شجاعتي، ويوتّر صراحتي المجنونة.

أتأمّل بفضول وجه أنس الورديّ اللّون وهي تلحّ على سعادة في التّحديق أكثر في فنجانها، لعله يجد لها المزيد من الأخبار التي تتحرّق شوقاً لمعرفتها، أتابع باهتمام قسماتها الغارقة بالأسئلة، وعينيها العسليتين الرّاكضتين أبداً وراء المجهول، لا شكّ في أنّ كثرة زيارتها للمنجّمين والدّجالين سوف تصيبها بلوثة عقليّة.

مسكينة هي أنس؛ فالانتظار الطّويل قد أضناها، وأتعبها، لكنَه لم يستطع أن يقتل ابتسامتها الهادئة، ولا أن يعكّر روحها الصّافية، عرفتها منذ شهرين، ومن أول نصف ساعة قضيتها معها عرفت أنّها تنتظر عودة خطيبها أو من تعدّه خطيبها من السّفر، ذلك الذي سافر منذ أشهر طويلة، ولم يبعث لها ولو بقصاصة من الورق يخبرها فيها بأنّه بخير بعد أن استدان منها مبلغاً كبيراً من النّقود على أمل أن يكمل دراسته العليا ويعود إليها، ومنذ ذلك الوقت لم تنفك تطارده في عيون السّحرة والمشعوذين، وتبحث عنه في متاهات فناجين القهوة وتتساءل: أما زال يحبّني؟ هل خدعني؟ هل سيعود؟ والمشعوذون أبداً يخدرون أحزانها بوعودهم وتوقعاتهم المزعومة.

يقول سعادة بصوت يحاول أن يصطنع الجديّة فيه: هو عائد لك يحمل هديّة بيضاء.

تنفرج أسارير أنس، وتسأله بلهفة: متى؟

يردّ عليها سعادة بصوت بارد يرسم الثقة فيه: قريباً.

يبادرني سعادة بنظرة منه، ثمّ يعاود تأمّله في فنجان صديقتي المولّعة بسماع كلماته، أتأمّل وجه سعادة المسكون بالبحث عن الكلمات والتّوقّعات، أحاول أن أتخيّله بلباسه العسكريّ، لكنّني أفشل في لك، لا أستطيع أن أتخيّله إلّا رجلاً مقعداً، لقد عرفته عن طريق أنس التي قابلته بالصّدفة لأول مرّة في هذا المقهى، وصادف طبعه هواها، فأصبحا صديقين، وتوثّقت صداقتهما عندما بدأ في قراءة

فناجين قهوتها، بل وقراءة فناجين قهوة صديقاتها اللّواتي سرعان ما ألفن قضاء ساعة من النّهار كلّ يوم معه في هذا الرّكن من المقهى.

لقد أمضى سعادة معظم أيّام شبابه إن لم يكن كلّها في مجال العمل العسكريّ الذي ورث العمل فيه عن أبيه وعمه بل وجده، وبقي وفيّاً لقضيّة أمته، ولم يخذلها أبداً لا في ساحة المعركة ولا في المعتقل أمام تعذيب العدو، لكنّ الحسرة قهرته عندما اجتاح العدو الصّهيونيّ كثيراً من الأراضي العربيّة في عام ١٩٦٧، فأصيب بالشلل بعد ساعات قليلة من هذا الاجتياح، فللأجساد أيضاً لغة خاصّة للتّعبير عن الغضب والرّفض والحزن.

أبداً لم أسمع سعادة يشكو من عجزه، لكنه دائماً كان يشكو ممّن يشلّون إرادة الشعب، ويلجّمون غضبه، ويضربونه بسياط من نار، هو لا يكره كرسيه المتحرّك؛ فهو دائماً يمدّه بغضبه ورفضه، ويصوّر له العدوّ يقترب والأمّة مشلولة والظّلام حالك، لكنّه يبشّر بانبلاج الفجر، بل ويقرنه دائماً بقدرته العجيبة على قراءة الطّالع، فمنذ أن شلّ وهو يتمتّع بحواس إضافية تشابه تلك الحواس التي كانت تمتلكها أمه، التي كانتْ كما يزعم امرأة صالحة (مَعطية)، أيّ أعطاها الله مقدرة قراءة سطور الغيب، بل كثيراً ما كان يحلو له أن يذكر بسخريّة قاتلة قصّة صديقه الذي مات إثر ذبحة قلبيّة حادّة ألّمت به؛ لأنّ فريقه الكرويّ المفضل قد خسر في إحدى مبارياته، بينما القلوب العربيّة سليمة معافاة والجسد العربيّ قد خسر أجزاء من جسده، وسيستمر

في الخسارة إن بقي الجسد العربيّ يملك مثل هـذه القلـوب المعافـاة إلى حدّ القرف.

أردد في نفسي مـا أجمـل رائحـة البرتقـال! يضـع النّـادل كـوب العصير أمامي، ويذهب، أحرّك الكـوب مـن مكانـه، أجعلـه أقـرب، يتناول سعادة فنجان قهوة فضيلة المقلوب أمامها، ويغرق فيه، أمّـا أنـا فأغرق في رائحة البرتقال، كم أحبّ هذه الرائحة التي تذكرني برائحـة جسد أمّي! ما أجمل الأمومة تضمّخها رائحة البرتقال! هكذا حفظـت رائحتك يا أمّي، الحنان ورائحة البرتقـال ويـداك الطّاهرتـان تمسـحان دموعي.

كنـت يومهـا في الصّـف الثّـاني، عنـدما طـردتني المعلّمـة مـن الصّف، وطلبتْ إدارة المدرسة مقابلتك بسبب غرابـة سـلوكي، قـالوا لك أنّني أستهين بالمعلّمة وبحصّتها، وأضع حذائي علـى مقعـدي، أمّـا أنا، فقلت لك باكية: لقـد أحـزنني أبنـاء صـديق بابـا الـذين زرنـاهم البارحة؛ إنّهم فقراء، وليس لديهم قطار أو سيارات يلعبون بهـا مثـل التي عندي، بل يتخيلّون أحـذيتهم سـيارات، ويلـهون بهـا، أنـا أكـره قطاري وسيارتي؛ لأنه ليس عندهم مثلها، لقد أردت أن أجرب اللّهو بالأحذية، وأن أجرّب أن أتخيّلها سيارات، ونسـيت أنّـني في الصّـف، فغضبت المعلّمة منّي عندما رأتني أضع حذائي على المقعد، وألهـو بـه، وقالت لي: غادري الصّف يا معتوهة.

- ماذا تعني كلمة معتوهة يا ماما؟

اقتربت أمّي منّي، وضمّتني نحو جسدها الغارق برائحة البرتقال، وقالت لي: يعني فتاة طيّبة يا حبيبتي، قلبها يعرف معنى الحبّ ومعنى الحزن.

أنتَ لم تسألني الكثير عن حياتي، ليتك كنتَ تفعل ذلك يا حبيبي، لأخبرتك إذن عن هذه الحادثة بالذّات، ما زلت أذكرها حتى هذه اللّحظة، وكأنّها قد حدّثت البارحة، بل كأنّها قد حفرت في جدار ذاكرتي، أنت رجل لا تسأل، وأنا امرأة لا تعطي معلومات مجانيّة دون عناء السّؤال عنها، هكذا أنا، وهكذا أنتَ.

يحدّق سعادة في وجه فضيلة، ثم يقول بصوت شبه خفيض، وبتوتّر من وجد كنزاً: آه يا طفلتي، سيحبّك رجل حدّ الموت، بل سيكون حبّك هو الموت له.

تهرب عينا فضيلة بسرعة لتلتقيا بعيني اللّتين تتذكرهما تتعجّبان وهي تقول لي قبل ساعات بفرحة طفوليّة: قال لي إنّه يحبّني، تصّوري لقد أحبّني مع أنّه لم يعرفني إلّا منذ يومين.

(٥)

متى يكون المساء، فألقاك؟ الزّمن منذ أن عرفتكَ عدوّ لئيم معي، يفصلني عنكَ بجبروته العظيم، وسلطته الأسطوريّة، بل والمكان بات يتآمر عليّ معه، كلّ ذلك كي يطول عذابي، وتزيد أشواقي، ساعات طويلة ستمضي قبل أن يحين زمن لقياكَ، ثمّ يحين لقياك، أسير بسرعة نحوكَ، تضطرب أحشائي، جفاف يلفح حلقي، صوت وجيب قلبي يصمّ أذني، خطواتي تتسع حتّى تصبح هرولة ثمّ جرياً مجنوناً نحوك كما تعوّدت في الماضي على أن ألقاكَ، أقّبلك، فتضمنّي أنا وزهوري التي أحملها لكْ.

هل ستلقاني بجسمكَ الممتدّ وشوقكَ المستحيل كما اعتدت أن تلقاني في الماضي؟ هل سيحتمل جسدي الذّابل وطأة الانتظار ومشقة أمتار تفصلني عنكَ؟

اجبني، اسمعني كلماتكَ التي تتدفّق بعمق من أعماق ذاتك، طوال سنوات سكنني طيفكْ، حدّثتك دائماً، وسمعتني، حتّى أنّني أصبحت قليلة الكلام منذ أن أحببتك؛ لأنّني مسكونة دائماً بالحديث معك، وسماع عذب كلامك.

اعتدت على أن أحدثك، حتّى أصبحت لا تفارقني أبداً، عندما أخبرتك عن ذلك ضحكت، وداعبت بيديك بعضاً من خصال

شعري، وقلت: إذن فقد أصبحت قرينـك الجـنيّ الـذي تسـكن لعنتـه جسدكَ.

فيما بعد ظننت أني مريضة أو مبتلاة بعقلي، بل وفكّـرت في أن أعرض نفسي على طبيب نفسيّ ليخلصني مـن هـذا الطّيـف الغريـب اللّذيذ، الآن أحمد الله على أنّني لم أفعل، فطيفك أخلص لـي أبـداً، ولم يفارقني، لم يجرحني، حتّى وأنا هنا وحيدة أحترق بوهج سـنين ضـوئيّة فصلتني عنكَ وما زالت تفصلني عنـك، يحـادثني، يواسـيني، ويسـتذكر معي ذلك الحلم الـذي كنـاه، بـل هـو كـان إيانـا، ينسـجنا بجبروتـه، فننسجه بأمنياتنا، تماماً كما كنتَ أنتَ من رحم أحلامـي، وقلمـا هـن النّساء اللواتي قابلن أحلامهنّ حية تسعى علـى الأرض علـى شـكل حبيب.

متعة الحياة الحديث معكَ، أحادثك مرة تلو الأخرى دون ملـل، كأنّ قصتنا قدر ينتهي ليبدأ من جديد، تسمعني باهتمام المندهش الذي يسمع قصّتي لأول مرّة، لكنك ألفت سماع هذه القصّة، بـل وعرفـت مفرداتهـا، إلّـا مفـردةً واحـدةً لم أذكرهـا لـك، لكـنّني أتـذكّرها الآن، أتذكّرها تماماً، أتذكّر ذلك القريب الوسيم الذي كـدت أتزوّجـه قبـل لقائي بك بأشهر قليلة، كنت سعيدة به، لكنّني فجأة ودون سبب مقنع أقدّمه لغيري أو لنفسي تراجعتُ عن فكرة الزّواج بـه، بـل رفضـتها، فأنا كنت على موعد معك، لم أعـرف أنّ القـدر قـد حضـر لـي هـذا اللّقـاء، ورفضـته، وسـافرت بعيـداً لألقـاكَ، شـيء في داخلـي كـان ينتظرك، بل ويتهيّأ منذ أن ولدت للقائك، فـترة صـباي الأولى تشـهد

على قولي، لم أكن مثل أترابي من الفتيات، لم أبتسم لصبيّ، لم أواعد أي شاب، لم يزرني طيف رجل لا في نومي ولا في يقظتي، جئتكَ صافية تماماً كما ماء بحيرة جبلية، لا قصص ولا أسرار وراء الكواليس كما كنت تسمّي العلاقات الصّامتة أو غير المعلنة؛ فقد كنت أنتظرك أنت بالذّات لأؤمن بك، طاهرة من دون أيّ شرك، بل خالصة لك وحدك.

أوّل مرّة تسمع هذه القصّة، أليس كذلك؟ لكنّك تدرك دائماً من دون شكّ بحدسك الفطريّ الذي لا يمكن أن يخطئ أنّك الفائز الأول والوحيد بقلبي وذاتي.

"وحياة عينيك صدقة، وحياة الغالي عندك صدقة"، تقف قبالتي تماماً، تحدّق بي، تمدّ يدها بإصرار، وتنتظر أن أفتح حقيبتي، وأعطيها صدقة تطلبها بتكرار وإلحاح، أتأمّل جسدها الصّغير، وثوبها الورديّ القديم، ومنديلها الأزرق القذر الذي يخفي جزءاً من شعرها الذي تسكن الفوضى الجزء الظّاهر منه، وجهها داكن، عيناها صامتتان باردتان، وسيل المخاط المتدفّق من أنفها يثير تقزّزي، أهرب من وجهها، تصطدم عيناي بقدميها العاريتين من دون خفّ، يا إلهي كيف تقوى على احتمال هذا البرد؟

أسارع بدفع بعض القروش إلى كف يدها الصّغيرة، ترمقني ببرود، وتردد على مسمعي دعواتها التي تحفظها بشكل آليّ، وتبتعد عني نحو مسافر قادم من بعيد، وتكرّر كلماتها السّحريّة "وحياة الغالي عندك صدقة".

"وحياة الغالي عندك صدقة " جملة سمعتها كلّ يوم طوال سنوات طويلة، كان وجهاً صغيراً مثل وجهها يطالعني بها كل يوم، بل ويطالعني أشباه هذه الوجه بها أكثر من مرّة في اليوم الواحد؛ فقد كانت تلك المتسوّلة بالذّات تنتمي إلى عائلة كاملة تعمل في التّسوّل، وتحتكر شارع سكناي الذي تعرف ساكنيه جميعهم، تستجديهم ذهاباً وعودة، تمطرهم بدعواتها، فينقطون بعض الصّدقات في يدها.

كانت تلك المتسوّلة بسن هذه المتسوّلة التي أرقبها تبتعد عني، كنت أتجاهل دعواتها، لكنّها تلحّ عليّ دون أن أهبها أيّ شيء، ولكن عندما كانت تقول: "وحياة الغالي عندك" كنت أضعف أمام ذكركَ؛ بل أهبها بسخاء، وابتسم لها مداعبة في كثير من الأوقات، بل أزيد لها في هبتها إذا قالت: الله يحفظه لك. وأردد في قلبي: يا ربّ.

اعتدت على أن أراها، كنت أبحث عنها بعيني عند أوّل خطوة خارج مسكني؛ كي اسمعها تكرّر الدّعاء بحفظك، وأردد خلفها مثل المصلّي الخاشع: آمين، وهي تبتعد سعيدة بغنيمتها ترمقني بعينيها الطّفوليتين الماكرتين اللّتين عرفتا كلمة السرّ لفتح بوابة نقودي.

اللّيّلة الماضية كانت طويلة، طويلة لأنّني قضيتها أعاهد نفسي على عدم لقائك، وحتّى لو كان لقاؤك قدري فيجب أن أتصدّى له، شيء داخلي يخيفني، يقرع طبول الخطر، يقول لي بتوحّش: اهربي بسرعة، لكن إلى أين المفرّ؟ ربما يجب أن أهرب منك إليك.

طوال اللّيّلة الماضية تسرّب إلى غرفتي صوت بكاء أنس، صوت خافت ومتعب، لكن سكون اللّيّل يحمله إلى الحجرات كلّها، فكرت

كثيراً في أن أذهب إليها، وأحضنها، لكنّ شجاعتي خانتني، واكتفيت بسماع كلمات نورما تمطرها بشيء من الرّاحة والسّكون، وتؤملها بأخبار تسرّها عما قريب.

حاولت أن أنام، لكن دون جدوى، انقلبت يمنة وشمالاً، لكن دون فائدة، حدّقت في السّقف، لفتت نظري لأوّل مرة تلك الورقة البيضاء التي باتت تميل إلى الصّفرة لشدّة قدمها، ملصقة قبالتي على السّقف، مكتوب عليها بخط أسود رديء:

حكاية حبّي معاك ما انسهاش
هيّ أيّامي إلّي قلبي فيها عاش
فيها أحلام قلتها وحققتها
وفيها أحلام لسه أنا ما قلتهاش

تساءلتُ عن عذابات من كتبتها، وعلّقتها قبلي في هذه الغرفة، عقدت النّية على نزعها في الصّباح، فقد أزعجتني وهي ملصقة قبالتي مثل القدر، وأخذت أردّد كلماتها، ثمّ أخذت أردّدها محاولة استرجاع لحنها الجميل، وأغمضت عيني لعلّ ألحاني تطغى على نحيب أنس.

عندما استيقظتُ طالعتني الورقة البيضاء بكلماتها الحزينة أخذت أردّدها بلحن أتقنه بشكل أفضل من اللّيّلة الماضية، تهندمت، وخرجت مودّعة الورقة بعيني، لم أمزّقها، بل لم أنزعها أصلاً، بقيت

في مكانها قبالتي لسنوات طويلة، عندما رحلت تركتها حيث هي، كلمات في جدار الزّمن.

رأيتك ذلك الصّباح في الرّدهة المؤدّية إلى الإدارة العامة للأكاديميّة، لم أقصدْ أن أراكَ، بل هربت من أيّ مكان قد أراكَ به، لكنك قدر على شكل رجل يلاحقني أبداً، كنت أقف وظهري قبالة سلّم الرّدهة، أحدث مجموعة من روّاد الأكاديميّة، الحديث معهم كان ممتعاً، معظمهم عفويّون وروح الدّعابة تسكنهم، كنت أتابع حركاتهم وحديثهم باهتمام، فجأة شعرت بدقّات قلبي تتسارع، وطيفك يقترب، عرفت أنّك في الجوار، منذ أيّام أصبحت أملك حاسة سادسة، وأصبحت قادرة على التّنبؤ بوجودك أو قدومك، بمجرّد اقترابك من مكان وجودي، شعرت بسعادة غامرة بسبب هذه الملكة الغريبة التي بتّ أملكها، لم أحدث أحداً عنها، بل احتفظت لنفسي بمتعة تذوّق وجودك والتّنبؤ به.

أطل وجهك الهادئ حيث بداية السّلم، أخذت تقترب بجسدك الممتد برشاقة، نهر للرّجولة يغرق باللّون الأخضر الغامق الذي تلبسه، صدرك كان يبدو مندفعاً إلى الأمام بشكل محيّر، تسير بثقة تليق بهذا الجسد، تنير المكان بنور غريب يشعّ من عينيك، أتساءل هل يرى من حولي ما أرى من نورك؟

أحدّق سريعاً في وجوه من حولي، أتمنى أن لا يكونوا ملاحظين لوجودكَ كي أغنم وحدي متعة متابعتك، سرعان ما يخيب ظنّي، الكلّ يراقبك باهتمام وفضول، لكنّك لا تنظر إليّ بوجه خاصّ، بل

تشرئبّ دائماً إلى الأمام ، وكأنّك تطارد طيفاً مـا، ومـن وقـت لآخـر تندي من حولك بنظرة هادئة مصحوبة بابتسامة دافئة متّزنة، وتكمـل طريقك مسرعاً.

لم أظن أنّك تلاحظـني، لـذلكَ سمحـت لنفسـي بـأن أحاصـرك بنظراتي الفضولية، لكن عندما اقتربتَ منّي شـعرتُ بارتبـاك عظـيم؛ فعيناك ألقتا القبض على عـيني، قلـتَ لـي: مرحبـاً. وقبـل أن أجيـب كنتَ قد ابتعدتَ عني دون أن أنبت ببنت شفة.

(٧)

للاستيقاظ من النّوم طقوس، هكـذا تعلّمـت مـن مـروة، ومـن يعيش مع فنّانة موهوبة فـلا بـد أن يـتعلّم الكـثير مما يهـذب الـرّوح ويسمو بها ، وأعظم طقوس الاستيقاظ والبعث بعد النّوم هو إطـراب الرّوح والتّحليق بها بعيداً مع صوت فيروز الذي يغرق المكـان بأمنّيـة دافئة تخاطب القلوب بصمت، وتتعـالى لتردّدهـا مـروة مـع كلمـات فيروز التي ألفت أن أسمعها منذ أن جعلتها مروة بداية الصّباح لكـلّ يوم، بل وأسندتْ لنفسها مهمّة اختيـار أغنيـة الصّـباح الـتي تـودّعني بلحنها وأنا أغادر المكان ميمّمة نحوكَ.

الطّريق نحو الأكاديميّة طويل، لكنّني ألفتُ أن أقطعـه مشـياً علـى الأقدام إن كنت وحدي، الطّريق قديم مرصوف بشكل أليـف، شـجر السّنديان والسّرّو القديم ينحني نحو الطّريـق، فيكسـب المكـان هـدوءاً غريباً، لطالما شعرت بأنّني أسير في شارع يشبه شـارعاً في لوحـة زيتيّـة قديمة، تمتلكها جدّتي وتفخر بها ليس تقديراً لقيمتها الفنيّـة أو تعاطفـاً مع ذلك السّائر في الشّارع المرسوم في اللّوحـة الـذي لا يـبرح مكانـه أبداً، بل تباهياً بالثّمن الكـبير الـذي دفعتـه ثمنـاً لهـا؛ فجـدّتي تفخـر بإنفاق النّقود، كما تفخر بامتلاكها تماماً.

حدّثتُ نفسي كم أنا محظوظة؛ لأنّني أقطع هـذا الشّـارع الجميـل كلّ يوم، حفيف الأشجار المنحنية يسرق الكثير من الأمطار التي ينجو

بعضها من أغصان الأشجار المتداخلة ليغمر المكان برذاذه العذب، هذا الطّريق كُوّن بهذا الشّكل ليزفّ العاشقين لأحبائهم.

أتساءل أين يقع بيتكَ؟ لا بدّ أنه قريب من هذا المكان، حدسي يقول لي: أنّك قريب منّي، وحدسي لا يخطئ.

أشعر بالشّقاء يسقط على قلبي وأنا أتذكّركَ، ما هو مبرّر اليوم حتّى أكلمك؟ كلّ يوم أجد مبرّراً جديداً كي ألقاك وأكلمك، يكون أحياناً مقنعاً، وأكثر الأوقات يكون مثيراً للشّكّ، يجب أن أتربّع على كنز من المبرّرات والحجج كي أستمرّ في رؤيتك كلّ يوم، تذكّرت بيتاً من الشّعر، يقول صاحبه بسذاجة العاشقين:

وكنت إذا ما جئت، جئت لعلّة   فأفنيت علاّتي، فكيف أقول؟

أفضل مبرّر عثرت عليه لأكون في أقرب نقطة منك هو أن أتابع أعمالكَ الفنيّة وندواتكَ الثّقافيّة ومحاضراتكَ العلميّة والفنيّة في الأكاديميّة، في البداية رافقتني نورما في كثير من هذه المحاضرات والنّدوات، لكنّها سرعان ما اختفت من هذه اللّقاءات بسبب طبيعتها الملولة التي فُطرتْ عليها، وطبيعة ميولها الفكريّة البعيدة البعد كلّه عن الفنّ، وبقيت أنا وحيدة أحضر المحاضرات، لكن راضية بنعمة القرب منك.

كانت ابتسامتك تحدّثني عن قرب خاصّ تشعر به نحوي، في كثير من الأحيان كنت توجّه حديثكَ لي من دون الآخرين، حتّى تغرق كلماتكَ في عيني، كلمات صامتة لا آلف منها إلّا نبرة صوتكَ.

في النّصف الثّاني من اللّقاء كـان الكـلّ مشـغول برسـم بعـض النّماذج للتّماثيل التي ينوون نحتها، الكلّ منهمك في عمله، وأنا مثقلـة بخوف من خطواتك التي تقترب منّي، أكـاد لا أتمالـك نفسـي، يـداي ترتجفان، وعرق بارد يتخلّل أصابع يدي، قلم الفحم في يـدي يتخـبّط في بعض خطوطه، قلتَ لي: جالاتيا ترسم، مثير.

نظـرت في بحـر عينيـك بجـرأة غريبـة، وقلـت لـك: جميلـة هـذه الأسطورة.

سألتني: ما الجميل فيها؟

نظرت في عينيكَ، وكدت أقول لك: أجمل مـا فيهـا أنّـك مـن سردها علي. لكنّني أجبـت بتـوتّر واضـح: الأحـزان تجـد دائمـاً مـن يتعاطف معها.

قلتَ بفضول واضح، وكأنّك تقرأني: اسمعـيني شـيئاً مـن هـذه الأحزان.

نظرت في عينيك كأنّني أبحث فيهمـا عـن حـزن يشـابه أحزانـي، وقلت: كتب (أوسكار وايلد) قصيدة حزينة عن بلبـل محـبّ، أحـب مالكه الفتى الشّاب حبّاً قوياً؛لأنه كان طيّب القلب عذب الرّوح، يتألم بشدّة من أقلّ الأمور، لكنّ ألمه كان شديداً عنـدما كـان الأمـر يتعلّـق بالفتاة التي يحبّها قلبه.

اقترب عيد ميلادها، فطلبت منه هديّـة متواضـعة، طلبـت منـه وردة حمراء، فرح لأنّه يستطيع أن يهـديها هـذه الهديّـة البسـيطة، فهـو

فقير لا يملك إلّا القليل، لكن حزناً عظيماً ولد في داخله عندما نظر حوله، وتذكّر أنّ الفصل شتاء، وأنّ الورود نادرة، عاد إلى كوخه البسيط مغتماً، وأخبر صديقه البلبل بسبب حزنه، اغتم البلبل بسبب حزن صديقه، ووقفت عيناه على تلك الوردة البيضاء ذات الأشواك الحادة التي تظهر من خلال زجاج الغرفة، وقال له بفرح كسير: غداً ستجد وردة حمراء أمام ذلك الشّباك، عدني بأن تأخذها إلى فتاتك، وقل لها إنها وردة ثمينة جداً، استغرب الشّاب العاشق من كلام البلبل، لكنه انتظر الصّباح بفارغ الصبر كي يركض إلى وردته الموعودة، وفعلاً وجد الوردة الحمراء، ووجد على الأرض بالقرب منها بلبله ميتاً، وقد استقبل أشواك الوردة بصدره الصّغير، وخضّبها بدمه كي يعطيها اللّون الأحمر.

حزن الفتى العاشق على استشهاد بلبله، لكنه حمل الوردة، وذهب بها إلى فتاته التي كانت تراقص فتىً غنياً، ورفضتْ أن تراقصه، حتّى وردته الفريدة نظرتْ إليها بتقزّز، وسرعان ما رآها الفتى تحت الأقدام تداس، ويُداس معها قلبه وقلب بلبله الشّهيد.

نظرتَ في عيني، وقلتَ بمسحة غريبة من الحزن قلما يستطيع المرء أن يجدها في عيني رجل: حرامات، حرامات.

الطّريق المرصوف ذاته سلكتُ في طريق العودة، تنازعتني أفكار عديدة أقواها تلك النّظرة في عينيك، ما أجملهما من عينين! وما أجمل الورود الحمراء! لم ألاحظ وجود متجر الزّهور هذا من قبل، واجهته الزّجاجيّة تشفّ عن ورود من الألوان والأنواع كلّها، لكن الورد

الأحمـر له معنىً آخر، فلونه يُوهب فقط بالموت، وأنا مستعدّة للمـوت من أجلك.

أمّا في الليّـل فلـذلك الشّـارع ظـلال حزينـة، تتحـرّك بانكسـار واستسلام عاجز أمام الرّياح الخريفيّة المجنونة، نور القمر يتخلّل بعض الأغصان، ويسقط على الأرض، فيتلألأ بـوهج خافـت تعكسـه ميـاه الأمطار التي تسير بهوادة نحو البالوعة القديمة في منتصف الشّارع.

هناك شابّ يركض في الشّـارع يحتمـي بسـترته مـن ميـاه المطـر، أشعر بالأسف نحوه؛ لأنه بركضه هذا يضيع على نفسه فرصـة التّأمّـل في جمال هذا الشّارع.

افتح زجاج الشّبّاك، يتلقّى فمي بعض قطرات الماء المتطايرة نحـو الدّاخل تحملها الرّيـاح سـريعاً هنـا وهنـاك، أغمـض عـيني؛ لأسمـع كلمات المطر تقرع ألحانها علـى رصـيف الشّـارع، المطـر في الخـارج، وصوت صلاة نورما في الدّاخل، صـلاتان خاشـعتان، لكـن بلغـاتين مختلفتين.

تتلو نورما صلاتها بهدوء غريب، يختلف عن طبيعتهـا المشـاغبة، لكن يتوافق مع روحها الطيّبة، لكن أشدّ مـا يـثير فضـولي هـو تلـك الأدعية التي تقولها بلغتها الأرمنّية القديمة، تقولها برطنة مثيرة، ثم تختم صلاتها بإيماءة رسم الصّليب في الهواء، ثم تشعل شمعـة أسـوة بكـلّ ليلة لتقدّمها قرباناً لله.

أسألها بفضول عن دعائها باللّغة الأرمنّية ماذا تعني، فترطن بلهجتها الأرمنّية بعض الكلمات التي أفهمها، أسألها ما معنى ما قالت، فتنظر نحوي، وتقول لي وهي تدثّر نفسها استعداداً لبرد الليّل: تعني باختصار: حبّ. حبّ. أردّد الكلمات بعدها ذاتها، وكأنّني تلميذ يرتّل درسه الجميل في مدرسة الحبّ.

(٨)

الشّمس دافئة بعض الشّيء هذا الصّباح، أشعتها الذّهبيّة تلامس بشوق واجهة المتجر الزّجاجيّة التي أقف أمامها، تلاحق قطرات النّدى، تتابع جريانها نحو أسفل الزّجاج، ثمّ تبخّرها بهدوء، مسكينة قطرات النّدى، عمرها قصير جداً، تقول الأسطورة اليونانيّة القديمة إنّ إله الشّمس (هيليوس) أُسر بجمال النّدى، واشتاق إلى أن ينظر إليه من قريب، لكن النّدى خشي دائماً من حبيبه المغرم به (إله الشّمس)، فكان يهرب منه مرّة تلو الأخرى، وعندما يمسّ النّدى أنفاس الحبيب النّاريّة، فإنّه يزول دون أيّ أثر، وكأنه لم يكن.

تتبخر قطرات من النّدى أمامي، أفكر في أن أنقذ بعضها من قدرها المحرق، أقترب من إحداها قبل أن تبدأ رحلة تبخّرها، أشتهي أن أعرف طعمها، أتأمّلها، تمتصّها شفتاي، وكأنّني أقبّلها، باردة هي بعض الشّيء، لكنّني أنقذتها من قدر الاحتراق والتّبخّر.

خلف الزّجاج تلمح عيناي بائع الزّهور مشغولاً بزهوره الجميلة، أتذكّرك، أخطو خطوتين لأدلف إلى متجر الزّهور، رائحة النّبات الأخضر تطغى على المكان، الزّهور نضرة، لا بد أنها قد عُرضتْ للبيع في هذا اليوم، أتأمّل أنواع الورد يتآزر كلّ نوع منها مع فصيلته ولونه في إناء بلاستيكيّ يغمر الماء معظمه، أتحسّس بعضها

بتؤدة، ثم أقف قبالة إناء الورود الجوريّة الحمراء، أخشى أن ألمسها، أشواكها البارزة تذكّرني بدماء البلبل المسكين.

بإيماءة منّي يقترب بائع الزّهور، ويلتقط بعضاً منها من الإناء، استعداداً لتنسيقها، يمددها على الطّاولة مثقلة بأشواكها وأوراقها، يتناول مقصّه كي يهذب أطوالها وسيقانها، أطلب منه أن لا يفعل ذلك، عندما يسألني عن المناسبة التي سترسل الزّهور بسببها، أتلعثم وأنا أتذكّرك، أصمتُ، ولا أجيب، أفلا تكفي فرحة لقائك مناسبة رائعة لأرسل الورد لك فيها؟

أتأمّل يدي بائع الزّهور، هما صغيرتان كما لا يليق برجل، لكنّهما تبدوان خشنتين، أطلب منه أن أنسق باقتي بيدي، يستغرب من هذا الطّلب الذي يبدو غير مألوف له، ويسارعني بالسّؤال: أتجيدين تنسيق الزّهور؟ سنين تمرّ في مخيلتي، لم أشتر يوماً وردة، أحببتها دائماً، لكنّني لم أهدِ أياً منها لأحد طوال عمري، أدهشني هذا الخبر الذي زفّته ذاكرتي إليّ، وكأنّني أدركه الآن فقط، لم أهد أحداً وردة؛ لأنّك لم تكن موجوداً بعد لأهديكَ ورودي وأشواقي، أمّا الآن فأنت موجود، وهاهي ورودي قادمة إليكَ لتزفّ لك عشقي الأبديّ لك.

أتأمّل قسمات بائع الزّهور، وهو ينتظر إجابتي على سؤاله الفضوليّ، أقول له بارتباك: أيحتاج التّنسيق أكثر من إحساس عميق بالألوان والأشكال؟

يصمت بائع الزّهور ممتعضاً من كلامي، أراهن على أنّه يظنّني متحذلقة مدّعية.

الطّريق حتّى المتحف كان بعيداً بالنّسبة لي، لا سيما الأمتار الأخيرة قبل مرسمك، شعرت بأنّ حركتي باتتْ مشلولة، توجهتْ حواسي كلّها نحوكْ، أذناي تبحثان عن صوتكَ الآتي من الدّاخل، ولكن صوتاً آخر كان يطغى على صوتكَ، أنفي لا يشتمّك، لماذا؟

عيناي تسرعان وتسبقان الخطوة الأخيرة لقدمي قبل أن أدلف إلى مرسمكَ، عيناكَ أوّل ما طالعني، ثم وجه تلك السّمراء التي كانتْ تحدثكَ بانسجام، أربككَ حضوري على الرّغم من أنّك من طلب حضوري، وحدّد لي الموعد، تأمّلت وجه السّمراء، ارتحت عندما تفرّست في قسماته؛ ليس بالوجه الجميل، لا يمكن أن تكون عاشقاً لامرأة غير جميلة، لكن ابتسامتها فاتنة، وصوتها عذب.

سرعان ما عرّفتني عليها، كأنّك كنتَ تخشى صمتي وتفسيراتي المجنونة، إذن فهي مراسلة لمجلة فنيّة متخصّصة، لقد قدمتْ لإجراء مقابلة معكَ.

أخذتُ أراقبكَ، وأنتَ تتكلم، طريقتكَ في الكلام غريبة، لم أقابل من قبل رجلاً له مثل طريقتك في الكلام؛ لا تفارق عيناك وجه من تحدّثه، كأنّك تبحث في قسماته عن مفاتيح شخصيّته وأسرار ذاته، صوتكَ يتراوح بين خفيض ومرتفع ومنفعل وهادئ حسب الجملة التي ترّتب نصّها في ذهنك، كثيراً ما تترك فراغات زمنّية بين بعض جملك، والعجيب أن من يحادثكَ لا يملك إلّا أن ينتظر باهتمام انتهاء

فراغكَ، وعودة دفق كلماتكَ الجريئة أحياناً، والغامضة في أحيان أخرى.

السّمراء التي تحدّثكَ الحمرة تعلو وجهها، لا أستغرب ذلك، فأنت تملك قدرة فطريّة غريبة تجعل أيّ امرأة تشعر بأنّها عارية تماماً أمام نظرات عينيكَ العميقتين.

تساءلت في نفسي عن سبب دعوتكَ لي في هذا الوقت؟ أليس هذا الوقت محدد لإجراء هذه المقابلة؟ أم تراك أردتَ أن أحضر هذا اللّقاء؟

أصبحتْ إجابتكَ مقتضبة، سرعان ما تودعكَ السّمراء شاكرة لكَ حسن استقبالكَ لها، أتأمّل طاقة الورد الحمراء التي وضعتها بالقرب منّي، ورود حمراء ووردة بيضاء واحدة؛ نعم هكذا تنسق ورودي، الكثير من الحبّ يتخلّله الصّفاء، أراجع على عجل تلك الكلمات التي كتبتها على بطاقة تتوسّط الطاقة، أشعر للحظات بأسىً بسبب مصير هذه الزّهور؛ فجمالها قد قادها إلى الموت، أتذكّر صديقاً اسمه سمعان كان مرهفاً بشكل غريب، أشدّ ما كان يكره أن تهدى له الورود التي يرى قطفها جريمة نكراء، ويستشهد دائماً على ذلك بأبيات من الشّعر قالها المرحوم أمل دنقل في مرضه الأخير، فقد كان من أشدّ المعجبين به، وبالذّات بقصيدته الحزينة التي يصف فيها باقة ورد أهديتْ له:

"تتحدّث لي

كيف جاءتْ إليّ

(وأحزانها الملكية ترفع أعناقها الخضر)

كيف تتمنّى لي العمْر!

وهي تجود بأنفاسها الآخرة! !

كلّ باقة..

بين إغماءة وإفاقة

تتنفس مثلي - بالكاد - ثانية.. ثانية

وعلى صدرها حملتْ راضية..

اسم قاتلها في بطاقة!

عندما تقترب من مقعدي، أشعر بارتباك كبير، أقدم لـكَ الطاقـة بابتسامة مترددة، وأقول لك: هذه الورود الحمراء اعتذاراً عن القصّـة الحزينة التي قصصتها عليك البارحة.

توزع نظراتكَ بيني وبين الورود، تعلوكَ دهشة سعيدة، أهذه أول مرة تهديك امرأة ورودها؟

تقول لي: جميل أنّك أهـديتني ورودا، ولكـن إلّـا ينقصـها بلبـل، لأتأكد من أن هذه الورود الجميلة لم يخضبها دمّ بلبل مسكين.

تتناول البطاقة الصّغيرة بأطراف أناملـك، تقـرأ بصـوت مرتفـع كأنّك تريد أن تحاصرني ولكن بكلماتي:

لـــو أنّ مـــا أتمنـــى يكـــون منـــا بطاقـــة
أهـــديت جنـــة ورد ومـــا رضـــيت بطاقـــة
لكـــنّني مـــن دمـــائي نظمـــت هـــذه البطاقـــة

صمت للحظة كأنّـك تنتشـل فكـرةً مـن بئـر، ثـم نظـرتَ إلـيّ وسارعتني بالقول: قولي لي أتؤمنّين بالعشق؟

أربكني هذا السّؤال المفاجئ، وقلت لك بنبرة بلهاء: لا أعرف... أتؤمن أنتْ؟

تنهدتَ، وقلتَ لي بخبرة المجرب: أنـا أؤمـن بـأنّ العشـق يبـدأ بومضة، وينتهي بومضة.

رددت في داخلـي: بومضـة... بومضـة. هـذا كـلّ مـا يحتاجـه العشق.. ومضة.

أخذتَ تحرّر الورود من غلافها البلاستيكي الشـفاف، وتنسـقها باهتمام في الزّهريـة القديمـة علـى أحـد الرّفـوف القريبـة مـن مكـان جلوسنا، عجباً ما هذه النّظرة التي تعلو وجهك وأنـت تنسـق الـورود بدقة وذوق! تساءلت في نفسي: كم من الرجال يتقن فهم لغة الـورود مثلك؟ !!

داعبتَ بيديك كلّ وردة، طالتْ مداعبتكَ وردة ذبلتْ من طـول حصار الغلاف البلاستيكي لها، غمستَ أطراف أنامل يدكَ اليمنـى في

ماء الزّهرية، وحاولتَ أن تنعش الوردة بتمرير أناملكَ المبتلة على أسطح بتلاتها الذابلة، ولكن بدا لا فائدة من ذلك , قلتَ بتأثّر ونبرة غنائية: حراماتْ. ونظرتَ إليّ.

سارعتك بالقول: حرامات ... ماذا تعني؟

قلتَ لي كمن يتذكر قصّة سمعها قبل ألف عام: هي أغنية قديمة، يغنيها مطرب عراقيّ غير مشهور، لم أعد أذكر اسمه، حتّى أنّني لا أذكر باقي كلمات الأغنية، لكنّها أغنية حزينة، يشكو المطرب فيها من فراق الحبيبة، مطلع الأغنية يبدأ بكلمة حرامات، والمقصود بها (حرام عليك)، ولكنها قيلتْ بهذه الطّريقة لأن الأغنية مكتوبة بلهجة الأتراك المستعربة عندما يجمعون بعض الكلمات جمعاً مؤنثاً دون سبب محدد لذلك فيقولون: حرامات بدل حرام... وهكذا.

تنهي تنسيق الورد في الزّهرية، إيماءاتكَ تدلّ على أنّك راضياً عمّا فعلتْ، تقترب منّي، وهج جسدك يلفحني، تقول لي بنبرة حالمة ولكن مخيفة: من أنت؟ ! قلبي يحدثّني بالكثير عنك!

تخيفني كلماتك، أسارع بالنّهوض، أحمل حقيبتي الصّغيرة، وأحييكَ سريعاً، أستدير لأيمم نحو الباب، تنقضّ يدك على ذراعي الأيمن، قوية يدكَ لدرجة أنها تزرعني في مكاني دون حراك، أعجب كيف تملك يداً تداعب الزّهور بكل عطف مثل هذه القوة، تتفرسني، تخاطب عيني، تقول بلهجة عراف يقرأ طالعي: عيناك فيها سفر، إلى أين؟

أجيبكَ بتلعثم: إلى البعيد...

تطلق يدكَ سراح جسدي الممنوع من الحركة، فأهرب سعيدة نحو البعيد.

لا أستطيع أن أتذكّر كيف مضتْ ساعات ذلك اليوم، فقد كانت ساعات تنبض بسعادة قلبي؛ وساعات السعادة لا تحصى، إنما الشقاء هو من يرسم بحروف أبدية على جدران الذاكرة وعلى وشائج القلب. كلّ ما أذكره عن ذلك اليوم هو وجه فضيلة الطّفوليّ، وهي تحدثني بنشوة السعادة عن كاظم، ذلك الشّاب العراقي الأسمر الذي تعرفت عليه في حفل خيري، كان وقتها يتسكع مع أصدقاء له، كعادة كثير من الشّباب الذين يبحثون في مثل هذه الأوساط عن فتيات مرفهات، وعندهن الكثير من الفراغ، حتّى وقعتْ عيناه على فضيلة ذلك الخليط العجيب من الطّفولة الشقية والأنوثة الشقراء الدّافئة، لابد أنّ قسماتها الهادئة، وكلامها العذب أول ما جذبه، ولا عجب في ذلك، فهذا النوع من النّساء هو الصنف المفضل عند أمثال كاظم الذين لم يعرفوا من الحياة إلّا الحرب تلو الأخرى، والاضطراب تلو الآخر، ويبحثون عن امرأة يستطيعون أن يلمسوا في كفيها لين العيش، وفي قسماتها أثر الرفاهية لتمسح عن ذاكرتهم بعض ذكريات القسوة والحرمان.

في ذلك الحفل رأيته يحدّثها باهتمام، ويحاول أن يحتكر الحديث معها إلى أطول مدة، في حينها لم أعره من الاهتمام أكثر من تحية سريعة، بل لم أعر أحداً من أصدقائه أي اهتمام، لا سيما أنهم شهدوا

الحفل الخيري سياحاً، لا متبرعين، فهم لم يفكروا أبداً بالتبرّع ولو بقرش واحد لصالح هذا الحفل الخيري.

في نهاية الحفل تخلف كاظم عن رفقة أصدقائه، وبقي يحدّث فضيلة حتّى استأذنته بالانصراف؛ فقد تأخرتْ عن موعد عودتها إلى بيتها، وعمتها تقلق بشدة إذا تأخرتْ عن موعد عودتها.

في اليوم التالي توقعت أن تخبرني فضيلة بأي معلومة عنه مثل دراسته للصيدلة في هذه المدينة، أو مثل أنّ أباه عسكريّ كبير في المخابرات العراقية، أمّا أن تخبرني أنه قال لها: إنه يحبّها، فهذا ما أثار دهشتي، وجعلني أقول لها بتوجّس: لا تصدقيه.

أمّا عندما أخبرتني فضيلة على استحياء أنها تشعر بحب نحوه، فقد صمتّ احتراماً لمشاعرها.

تحدّثت عنه فضيلة طويلاً، حتّى باتتْ تكرّر كلامها، ولكن بجمل مختلفة، ولكنّني كنت سعيدة بكلامها المتدفّق من القلب، وهي توظف شعرها الأشقر الطويل في وصف رقته معها، بل كانت تستثيرها الكلمات أحياناً، فتقفز عن مقعدها في المكتبة، وهي تعبر عن سعادتها بهذا الرجل الأسمر ذي العيون السوداء الحادة كما الصقر الذي جاءها من المجهول ليعطيها حبه، لم يقطع سيل كلامها إلّا اقتراب موعد رؤيتها لكاظم، قبلتني بصدق غريب، وقالت لي: أحبّه، وأحبّك أيضاً.

سارتْ بطفوليّة عذبة نحو باب المكتبة، كنت أشيعها بعيني، عندها رأيتكَ تدلف إلى داخل المكتبة، الله كم المجهول رائع عندما يرفق بقلوبنا، ويهبها أمنيّتها الصّغيرة! لطالما أتيت إلى هذه المكتبة، ولكن لم أتصور أن أجدكَ أمامي هنا بالذّات هذا اليوم.

كنتَ بنفس هيئتكَ الصّباحية، ولكن الهواء سمح لنفسه بأن يلهو قليلاً بخصلات شعرك، فيدفع بعضها هنا وهناك. سرعان ما طالعتكَ صفحة وجهي المبتسمة لكَ بشكل خاصّ، اقتربتَ من مكان جلوسي، جلستَ إلى نفس الطّاولة قبالتي، سعدت بحضورك، لكنّني شعرت بدم عروقي يتجمد عندما تذكرت تلك المجلة الدورية التي يصدرها المركز الثقافيّ التابع للمتحف، التي كنت أقلّبها قبل دقائق بحثاً عن مقال لكَ، لم أجده، ولكنّني وجدت لك صورةً تذكاريةً مع وفد أجنبيّ كان قد زار المتحف قبل عدة أشهر.

أي الأفكار ستغزو ذهنك إن رأيتني أحدّق في مجلة تحمل صورتكَ، أنقذتني بتوجّهك نحو أحد الرّفوف، انشغلتَ لدقائق في تصفح أحد الكتب، أمّا أنا فسارعت إلى شق صورتك من المجلة، داعبتها بعصبية ثم دسستها بسرعة في محفظتي، عندما عدتَ تحمل كتاباً ابتسمت لكَ سعيدة بغنيمتي الثّمينة، فصورتكَ في محفظتي. أتصدق! أنا أحمل لكَ صورة، ما أسعده من يوم! وما أسعد المحفظة بما تحمل!

ساعتان أمضيتهما أحفظ حركاتكْ، طريقة طيّكَ للصفحات، طريقة أخذكَ للملاحظات، طريقة قراءتكَ، طريقة متابعتكَ

للموجودين، طريقة ردّك لتحية من يعرفونك، طريقة إمساكك للقلم، طريقة مطالعتكَ للفهارس، طريقة تسّلل نظراتكَ إلي. متعة العين متابعتكَ، ولكن ذلك الشّاب الذي يجلس إلى الطّاولة التي تليكَ، يحاصر متعتي، يحدّق بي كثيراً، يحاول لفت نظري بحركاته وإيماءاته، ويبتسم بخبث يشي أنه قد كشف سر متعتي.

أقترب منكَ وأنت تعبث بكتاب قديم، يدهشني عنوانه، ابتسم لكْ، وأقول: لم أعرف أنّك مهتم بالنحو!

تبتسم لي وتقول: كنت أحبّه وأنا صغير.

أداعبكَ وأقول بفضول: أثبتْ لي.

تخطّ بضع كلمات على ورقة وتقول لي: أتعرفين ما إعراب هذه الجملة؟

أحدّق بها وأكتب بيد مرتجفة من شدة الانفعال:

أنّني: حرف توكيد للحبّ

الباء: اسم إن منصوب على الجنون

أحبّك بولع وجنون: اكمل أنت.

تبتسم لي بقهقهة خفيفة، ترقص القلم، تنظر لي وتقول: سأكمل ولكن ليس الآن. أشعر بقشعريرة تغزو جسدي، ألتقط الورقة من بين يديك، أرجو لكَ ليلة سعيدة، وأتجه إلى بوابة الخروج.

لم أعرف قبل هذه الليّلة أنّ البشر يمكن أن يحلقوا في السّماء على صهوة السعادة، سعيدة أنا بمقدار طيشي وجنوني، سعيدة بمقدار سحركْ. أحدّق في المارة، أصنف الوجوه، بعضها سعيدة، وأخرى متجهمة، كيف يمكن أن تتجهم وجوه في هذه الليّلة السعيدة؟ ! أرفع عيني إلى السّماء، أتفقد نجومها، الحمد لله كلّها سعيدة.

(٩)

الآن... المحطّة أشدّ ازدحاماً، المسافرون لا ينفكّون يمرّون من أمامي ذهاباً وإياباً، حركتهم تربك حديثي مع طيفك، وروائح السجائر تطغى على رائحة أنفاسكَ التي أحفظها من دون كل الروائح، أتمنى عزلةً خاصّة معك. أوراق السّنديان تهتزّ برفق لرياح الصّباح، تداعب شعري المسدل على كتفي، طيفكَ يحدّق في وجهي بألفة لذيذة، أشعر بملل، أعرض على طيفك قليلاً من متعة السير معاً، توافق برغبة، فطيفكَ لم يرفض لي طلباً أبداً، أصلح من هندامي، ألبس القبعة، وأسير أنا وإياك فقط...

أي الطّرق سنختار للسير؟ يسألني طيفك. طريق السّنديان، أجيب.

نصف ساعة من السير، نصل ذلك الطّريق الواصل ما بين بيتي القديم وبين ذلك المتنزّه الذي اعتدنا على السير فيه سويّاً. أشجار السّنديان أصبحت أكبر وأكثر غصوناً، الطّريق بات قديماً كأنه بقايا مدينة أثرية، بوابات المتنزّه القديمة لا وجود لها، بات في مكانها بوابات زرقاء كبيرة , ولكنها صدئة في بعض النواحي، لا وجود كالعادة للوحة تحمل اسم المتنزّه، هذه الأعمدة الكهربائية جديدة، لم تكن في الماضي، جيد وضعها هنا، فهي تعطي للمكان ظلالاً جميلة، وتبدد من وحشته.

أدلف إلى المنتزه، آه.. لقد أصبح شجر السّنديان والسّـرّو طـويلاً إلى حد متعب، أشعر بتعب سنين يسكن قـدمي فجـأة، أجلـس علـى أول مقعد أمرّ به، خشبه منخور قريب مما جلستُ، أخيراً وجدت مـن يتذكرني غير تلك السّنديانات الطيّبة، لا بد أنّك تذكرني أيّهـا المقعـد العتيق، لطالما جلست عليكَ أنتظره.. نعم أنتظركَ.

وكنتَ تأتي , كل ليلة أتيت إلى هذا المنتـزه، تـدلف مـن البـاب بقامتـك الممتـدة وملابسـكَ الرياضـية الداكنـة، وقبعتـك الرياضـية الصّفراء، تقـترب منّـي بابتسـامتكَ المعهـودة، وتقـول هـل تـأخرت؟ فأجيبكَ الإجابة نفسها ألف عام انتظرتك، تبتسم لـي، تقـترب منّـي، فأطوق ذراعك بذراعي، ونبدأ المسير، مثل عجوزين ألفـا السـير معـاً منذ دهر، نتحدث طويلاً وطويلاً.

يتقارب جسدانا عندما تمطر، أفهـم الآن سـبب شـعوري الـدائم بالوحدة عند سقوط المطر؛ لأنّني عندما يسقط المطر أشـعر كـم أنـا في حاجة إلى يديكَ لتضـماني نحـو صـدرك وتحمـيني مـن وحـدة المطـر، ترعبني فكرة تصوّر نفسي مع المطر مـن دونـك، لا بـد أنـه سيسـتغلّ فرصة غيابكَ، ويسبب لي الحزن العميق، لا تدعه يفعل ذلك بي.

أحدثكَ بقصص خرافيّة مستحيلة تشبه وجودي معك، وتحـدثني بقصص أشد غرابة تؤكد وجودي معك، تضحك كثيراً مـن كلمـاتي، وأحزن كثيراً من كلماتك.

في أول لقاء تحت المطر، أخبرتني بأنّـك كنـتَ تخشـى أن لا آتـي بسبب المطر الشديد. أجبتك: أنا لا أخشى المطر وأنتَ معي.

ابتسمتَ وقلتَ لي: أمّا أنا فأخشاك تحت المطر، مددتَ يدكَ نحو شعري، خاتمك الفضيّ آخر ما ودعتْ عيناي منها، وهي تندسّ بين خصلاته، كنتَ تتحسسه وهو مبلل، ولكنك توقّفتَ طويلاً خلف أذني اليمنى، نظرت إلى عينيكَ، أزحت بيدي جزءاً من شعري، أنّكشف أعلى رقبتي وأذني، وأنّكشفت تلك النّدبة الواضحة ما بين الأذن وأعلى الرّقبة بانحناءة نحو الظهر، تأمّلتَها لثوان، قلتَ بدفء كأنّك لم تلحظ تلك النّدبة البشعة اجعلي شعرك خلف أذنك دائماً، شعرك هكذا أجمل، أنا أحبّه هكذا، لا تحاولي إخفاء هذه النّدبة بعد الآن.

قلت لك: هي من سقطة قديمة... و

قاطعتني قائلاً: تعجبني، لا تخفيها. واقتربْتَ منّي وطبعتَ على ندبتي قبلتكَ الأولى، قبلة عليلة تشبه تلك القبلة التي نهديها لجرح طفل نقنعه بها أنها تخفف من الألم.

كل ليلة اعتدنا على أكل المثلجات، فالمثلجات في الشّتاء ألذ، تستطيع أن تتذوق طعمها جيداً دون أن تسارعك بالذوبان، تأكل المثلجات بطعم الحليب، وآكل المثلجات بطعم الشّكولاته، تسخر من نكهة مثلجاتي وتقول: نكهة الأطفال، فأسخر من نكهة مثلجاتك وأقول: نكهة الرّضع.

كل ليلة نفتتحها بأكل المثلجات وأنت تضحك مردداً عبارتي " الشّيء يحمل نقيضه" وتقول: ها أنا أطبق فلسفتك الصّغيرة، فأؤمن بأنّ هذا البرد يحمل الدفء، وآكل لذلك المثلجات الباردة.

عندما تصمت أعرف أنّك ستغني، ثم تنفرج أساريركَ مع أول كلماتكَ، جميل هو صوتكَ، وعندما تغني أشعر بزهو غريب، حزن أبديّ في صوتك، على الرغم من تلك الابتسامة، كثيراً ما كنت أمازحك قائلة: مَنْ عذبك؟

تنظر إلي وتقول: أنت ستفعلين.

يعود صوتك ليبعث الدفء، والأمن في جنباتي، يردد المكان صدى صوتكَ، يطرب السّنديان لصوتك، تقاوم الرّيح، فتصمت عروقها عن التمايل والحفيف لكي تسمعك، وعندما تنصت لغنائك ابتسم لك، وأقول:(فيليمون) و(برسيس) يسمعأنّك...

تقترب منّي وتقول بنبرة مستغربة: من هما (فيليمون) و(برسيس) يا صغيرتي الحالمة؟

تقول الأسطورة الإغريقيّة إن (فيليمون) هو رجل عجوز قضى حياته مع زوجته المحبة (برسيس). أحبت الآلهة طيّبة نفسيهما وكرمهما، فطلبتْ منهما أن يتمنّيا عليها، فطلبا أن يعيشا سوية وأن يموتا سوية، وأن يجتمعا سوياً بعد الموت، فحولتهما إلى شجرتي سنديان متقاربتان متحابتان إلى الأبد.

حدّقتَ بي ثم قلتَ لي: يا سنديانتي الحبيبة، أنت امرأة استثنائيّة في كل شيء، لا تقابل كل يوم، تقابل فقط مرة في الحياة، هل وجودنا معاً لقاء أبدي أم مجرد مقابلة؟ ها..؟ قولي لي.. أنا في انتظارك منذ قرون.

هذه فرصتي لأسألك: لماذا لم تتزوّج إلى الآن؟

أجبتني بتلقائية: لقد تزوّجت في الماضي.

أثارتْ كلماتكَ غير المتوقعة ضيقاً في ذاتي، سألتك بامتعاض: أين هي؟

أجبتْ: تزوّجتها عندما كنت أدرس الفن في إيطاليا، وسرعان ما طلقتها...

سألتكَ بفضول: ألم تحبّها؟ !

أجبتني بنبرة بدت صادقة: أبداً...

- لماذا؟

قلتَ ببرود وابتسامة تحمل آلاف المعاني: لأنها لم تحبّ قطتي...

أصابتني كلماتكَ بالدهشة، ولكن كلماتك تعبر عن الكثير من المعاني والمرامي، سألتكَ: وأين هي قطتك؟

قلتَ بأسىً:ماتتْ...

- لماذا؟

- لأن زوجتي لم تحبّها...

(١٠)

الشّمس ستغرب بعد قليل، أشعتكَ الذّهبيّة ستودع الأرض بعيداً مع مركبتكَ الذّهبيّة، حان موعد لقائك، ولدت أنا كي ألقاك، أدنو للمرة الألف من باقة الورد التي أرسلتها إلي في الصّباح، أداعبها برفق وتقدير كأنها سقطتْ من السّماء، أتخيلكَ تدلف إلى متجر الزّهور، وتنتقي وروده من أجلي، وترسلها إلي محملة بأشواقكَ وحبك لأشعر بالزهو، تتملكنّي رغبة حالمة لفتح نافذة الغرفة، وحمل باقة الزّهور، والصّراخ بأعلى صوتي: هذه الورود لي، أرسلها حبيبي من أجلي، هو في انتظاري، هذه الورود لي، وقد كتبتَ لي: إلى إلهتي السّاحرة، إلى (أرتميس) حتّى ألقاك...

لكن ما جدوى الصّراخ من النافذة؟ ! البشر لن يعرفوا ما حدثَ هذا الصّباح؟ حسن إنهم لن يعرفوا، دعني أحتكر لنفسي متعة ذكرياتي معك.

آه...كم أحبّك يا مروة! ! ألست من طلب منّي تلك المعلومات عن الأساطير القديمة، طلبتها منّي؛ لأنّك تعرفين شدة اهتمامي بها، وحفظي للكثير منها. لكنّني نسيت بعضاً منها، أحبّ فعلاً أن أساعدك في جمع هذه المعلومات من أجل إعداد مسرحيتك، أين سأجد الآن كتاباً عن الأساطير؟ وجهكَ يا حبيبي أول من اجتاح ذاكرتي، لا بد أنّك تملك مثل هذا الكتاب؛ رجل أسطورة، ولا يملك كتاباً عن الأساطير، صورة غير مكتملة!

وجدته عندكَ، مجلد أزرق ضخم، صفحاته النظيفة ورسوماته الواضحة تدلّ على أن أحداً لم يلمسه إلّا أنتَ، متى اشتريته؟ أظنّ منذ مدة طويلة، تاريخ طباعته القديم يدلّ على ذلك، تلمست باهتمام إطاره الذّهبيّ المحفور بإتقان ليشكل عنوانه (أساطير اليونان والرّومان)، أعجبني بشدة فقلتَ لي: هو لك، هدية لك منّي.

أمضيت عدة ليال في قراءته، أمّا مروة فقد أمضتْ أسابيعاً بعد ذلك في قراءته. كانتْ تطلب مساعدتي في كثير من الأساطير التي يستعصي عليها فهمها وكأنّني ربة الأساطير، فأفسرها لها، لأنّني ربة الأساطير حسب ظنها.

في كل أسطورة ألمحكَ، أفكر في أن أهديك شيئاً خاصّاً لا تجده في الأسواق، ولا يهديكَ مثله أحد غيري، أمضي ليال طويلة في إنجازه، وعندما أنهيه أسارع إلى دفعه إلى صانع الأطر الخسبيّة، ليصنع له إطاراً خشبيّاً، ولوحاً من الزّجاج يحميه من التلف.

تسألني وأنتَ تتحسسه: ما يكون؟ فأجيبك: الآن تراه.

تدهشكَ اللّوحة التي تراها أمامكَ، لوحة كبيرة رسم فيها شجرة عظيمة الفروع تمثل النسب الميثولوجي لآلهة الإغريق، تتوسّط اللّوحة حورية ذهبية ، ويغرق شعرها معظم جسدها وقد خيطت بالحرير، أنا من خاطها.

تحدّق طويلاً في تلك اللّوحة، تتتبع جهراً أنساب كثير من الآلهة، يدهشكَ ذلك النسب الشاذ الذي يتسمّح مع علاقات الأخوان بالأخوات، والأمهات بالأبناء، بل ومع علاقات الآباء بالبنات.

لكلّ ظاهرة من ظواهر الطبيعة آلهة، ولكلّ آلهة أسطورة أحفظها أنا بشكل خاصّ، تغرقني بضحكاتكَ وأنت تسمع رواياتي لبعض تلك الأساطير، تعلق اللّوحة باهتمام قريباً من مكتبكَ في المرسم، تعاود تتبّع ذلك النسب الميثولوجي، تداعب أنفي بحركة طفوليّةَ وتقول لي: أيّ تلك الآلهات أنت؟ !

تركض عيناك في قسمات وجهي، وتقول: عيناك السّاحرتان، شعرك الهائج، بشرتك الورديّة، أنفك... فمك تشبهين (إفروديتا) هذا الجمال يحاكي آلهة للجمال، أمّا أنا فسأكون (إيزيس) إله الحرب، كي أقاتل من يجرؤ على أن يتمناك.

تدهشني كلماتك، وأقول لك باعتراض ودود: لا لن أكون (إفروديتا)؛ فهي امرأة لعوب تعرف آلاف الرجال، وتعشق كل ليلة رجلاً جديداً، أمّا أنا فلم ولن أعرف من رجال الأرض سواك. وأنتَ لن تكون موجوداً لتحارب، بل ستكون موجوداً لتنير بشمسك دنياي، وتحرقني بقدسية وهجك، ستكون (هيليوس) إله الشّمس والرّجولة والفنون، كل ليلة ستقود مركبتك الشّمسيّة، وتندي وجهي بنوركَ، أمّا أنا فسأكون عذراء عاشقة لكَ حد الموت.

تعلو وجهكَ ابتسامة ساحرة، تقبل يدي، تضمنّي نحـو صـدرك، أشعر بأن نبرة صوتكَ قد تغيرت، وأن دموعاً ما قـد خضـبته، فأنـتَ أرقّ من أن تكون رجلاً عاديّـاً، أظنّـكَ تنظـر إلى تلـك اللّوحـة بينمـا رأسي غارق في دفء صدرك، تقول لي بامتنان غريب: بـل سـتكونين إلهة القمر (أرتميس)، فالنار المحرقة ستحتاج دائمـاً إلى نـور سمـاوي طاهر مثل نور وجهك الثائر أبداً ليزرع في نفسها الرّضا والسلام.

إذن فقد سميتني (أرتيمس)، أنت من يجب أن يختار لي اسمي، وليس أحداً غيركَ من البشر، أيّ من البشر لم يعرفني لأكثر مـن سـنين تساوي عدد سنين عمري، أمّا أنت فتعرفني منذ الخليقـة. تعـرف أنّـني بقيت وحيدة انتظرك. ضمنّي بقوة لكي أتأكـد مـن أنّـك تعـرف أن (أرتيمس) بقيتْ دون حبيب أو زوج أو علاقات على غير شاكلة مـن حولها من الآلهات، وأنها عاشتْ حياتهـا وحيـدة هائمـة في الغابـات، هكذا رسمتها الأساطير لنا.

سألقاكَ بعد قليل، أتأمّل وجهي في المرآة، أضمّكَ بشدة إلى ذلك اللباس المدرسي الذي ألبسه، ملامحي أكبر منه قليلاً، لكنه يناسبني، لا بد أنه سيعجبك، لقد طلبت منّـي أن آتيـكَ مختلفـةً هـذه الليّلـة، لـذا سآتيكَ بلباس فتاة مدرسية بضفائر صغيرة، وعينين مرتبكتين تخشـيان العيون، ما زالـت تلـك الفتـاة المدرسية المراهقـة تسـكن في داخلـي، وتنتظر أن تجن معك.

إلهتي الجميلة ستذهب إلى المدرسة...

كلمات تقولها وتنفجر بالضحك، تضمنّي، وتغرقني بضحكاتك، لقد طلبتَ منّي بعض أوراق الزيتون، تزرعها في شعركَ على عجل، وتقول لي: (هيليوس) يتوج رأسه بأوراق الزيتون، أليس كذلك؟

تتعالى ضحكاتي وأقول لك: بل بأوراق الغار.

لأنّك تغني لي باستمرار، ولأن الليّلة مختلفة تصمم على أن أغني لك، تلك البحة في صوتي تعيق كلماتي، لكنك تحبّ الصوتَ النّسائيّ المبحوح، فالرجال يحبّون مثل هذه البحة، هذا ما قلته لي.

على استحياء تنساب كلمات فيروز من فمي، أغني لك (يا عاقد الحاجبين)، يعلو صوتي بشكل خاصّ عند كلمات (إن كنت تقصد قتلي، قتلتني مرتين).

بعد انتصاف الليّل تصمم على أن نتناول العشاء في أحد المطاعم الصّغيرة على قارعة الشّارع خلف المتنزّه، لم يكن هناك أحد سوى صاحب المطعم الذي كان يبدو متعباً، وينتظر بأدب أن ننهي عشاءنا كي يعود إلى بيته. ما ألذ الطّعام بصحبتك!

لم أعد أستسيغ الطّعام إلّا معك، تحدثنا طويلاً عن أنس التي باتتْ سلوكياتها غريبة منذ أن تأكدت من خديعتها، ومن زواج حبيبها المزعوم، مسكينة هي المرأة المطعونة في حبهّا، تفاجئني بكلماتك المتصيدة، وأنتَ تقول: وأنت كم عددهم الرجال الذين أحبّوك؟ !

أتوقّف عن مضغ لقمتي، أطالعكَ بنظراتي، أجيبك بثقة من حضر الإجابة منذ زمن: أنا لم أحبّ أحداً غيرك.

في الطّريق إلى البيت، تسألني عن عدد أخـوتي، قلـيلاً مـا تسـأل عن حياتي الشّخصيّة، ولطالما كنت كذلك، لعل كـلّ مـا يهمّـك مـن حياتي أن تعرف أنّني أحبّك. عنـدما أخبرتـك أنّـني وحيـدة أبـويّ، لم تعجبْ، بل قلت لي بفـرح مـن وجـد كنــزاً في مكـان راهـن عليـه: يكفيهما عبء إنجاب امرأة مثلك، امرأة اسـتثنائيّة. كلماتـكَ أصـابت عروقي بقشعريرة غريبة، طلبت أن نسرع في العودة إلى البيـت؛ لأنّـني أكاد أتجمد من شدة البرد، قلتَ لي بإغراء تعرف تماماً وقعه علي: إلّـا تكفيك شمسي حتّى تشعري بالدفء؟ !

(١١)

أنـتَ لا تحـبّ الفوضـى والأصـوات والزّحـام هكـذا تصـنف المهرجانات، أمّا أنا فأعشق الفوضـى والألـوان والوجـوه، أنـا امـرأة احتفآليّة بطبعها، ألا ترى أن كثيراً من عشقي يصلك عن طريـق هـذه الطّقوس الاحتفآليّة التي أعيشها وإياك. الحيـاة مهرجـان كـبير، الكـلّ مـدعوّ لـه، كـلّ يحضـره، ولكـن بطريقتـه الخاصّـة، الـبعض يكتفـي بالتّحديق مسحوراً من بعيد بألوانه ومباهجـه، الـبعض ينـام في ركـن هادئ منه، وينسى أنه في مهرجان، البعض يجهد كـي يسـتمتع في هـذا المهرجان، ولكنه لا يحصـل إلّـا علـى التعـب وحفنـة مـن الـذّكريات المؤلمة، أمّا البعض الاخر فالمتعـة قـدرهم أو يكونـوا هـم قـدر المتعـة والرقص على منصة المهرجان حيث المتعة والسعادة والنّـور والوجـوه الجميلة الباسمة.

لم تحضر أي مهرجان في حياتكَ، لا بأس، ما حاجتكَ إلى حضور مهرجان قبل أن تقابلني؟ فما قيمة أن تحضره وكفّـكَ لا يـنعم بـدفء كف عاشق لك، ينقـل لكفـكَ كـل لحظـة إثـارة يشـعر بهـا في هـذا التجمّع، فينقل كفّك له بهجتكَ وانعتاق روحـكَ مـن أسـر الأحـزان والانتظار.

في هذا العـام سأحضـر الاحتفـال معـك، متأبطـةً ذراعـكَ كمـا الطفلة، وسنحرق آلاف الدقائق مع بعضنا البعض، . المهرجـان غـداً،

سأنتظركَ لا تتأخر، سأنتظركَ لنحضر سويّاً (مهرجان الحصاد) الـذي تقيمه هـذه المدينـة منـذ سـنوات، تحـت زخـات المطـر تحتفـل المدينـة بخصوبة الأرض.

بعض القدامى اعتقدوا أن الخصوبة رجل، بعضهم الآخر أعتقـد أن الخصوبة امرأة، أمّا أنـا فـأرى الخصـوبة رجـلاً وامـرأةً متحـابين، خصـوبة الأرض ثمـرة لعشـقهما. بهـذا الإحسـاس سأحضـر هـذا المهرجان، لن أراه احتفالاً بإنتاج زراعي كبير وأرض خصـبة وموسـم أمطار جيد، بل سأنظر إليه كاحتفال بثمرة حـبّ، أيـاً كـان نـوع هـذا الحبّ، وأيّاً كانـت الثمـرة، فالحـبّ روح مـن الله تسـكن موجـودات الأرض، وتدفعها إلى الحياة، والحبّ فرحة تستحقّ الاحتفال بهـا؛ لـذا سأنتظر حضورك..

ماذا يرتدي الناس في احتفال بروح الحبّ؟ أنـتَ لا تعـرف، أنـا أيضاً لا أعرف، ليتني كنت طيفاً لا يدركه إلّا إياك، كما أنتَ طيـف لا يدركـه أحـد غـيري، لكنـت قابلتـكَ بلبـاس يحـاكي لبـاس الأرض بخضرتها وبزهورها بل وبأشواكها.

لكن لأننا ما نزال نعـيش في كوكـب الأرض، فسـوف ألقـاكَ في رداء مثـل الـذي اقترحـه علـيّ الضـابط سـعادة؛ فلطالمـا شـهد هـذا الاحتفـال في الماضـي، وشـاهد مـا يرتديـه النـاس لا سـيما في هـذا الاحتفال، قال لي إنـه يسـتطيع أن يعيرنـي ثوبـاً تقليـديّاً مـن أثـواب زوجته، فهي تحتفظ بواحد منها، وهيَ لن تمانع أبداً في ذلك.

أعلمنّي أن بيته في قلب المدينة، لكنه كان في أقصى الجزء القـديم منها، طوال الطّريق حدثني عن عائلتـه وأولاده الـذين يفخـر بنجـاح بعضهم، ويشفق على إحباطات البعض الآخر منهم، أمّا زوجته فهـي كنـزه في هذه الحياة. لأول مرة يحـدّثني عـن شـيء بعيـد عـن السـحر والمستقبل والنّبوءات، لعلّ عائلته هي الحاضر السعيد والوحيد الـذي يسكنه حياته، ويسرّه الحديث عنه، وبخلاف ذلك فهو يرنـو دائمـاً إلى مستقبل مختلف وجديد.

لسبب ما شعرت عند دخول بيتـه بـأنّني في بـيتي، تلـك الحديقـة الفسيحة المرصوف بالحجارة القديمة، والمزروعة بنظام واهتمام ذكرتني بحديقـة جـدّتي، قليلـة هـي زهـور هـذه الحديقـة، أمّـا الخضـراوات والفواكه فتمتدّ بخضرتها من مدخل الحديقـة حتّـى المنــزل، أشـدّ مـا أدهشني تلك الخضرة الجميلة التي يرسمها نبـات السـبانخ عـبر طـول المدخل، سلم البيت غير مرصوف، يدلف مباشرة إلى غرفة الضّـيوف، غرفة صغيرة، أثاثها بسيط، ويغلب عليه الذوق الشعبي، ولكنها غرفـة نظيفة تفوح منها رائحة شجرة (الكولونيـا) الممتـدة أغصـانها علـى سياج النافذة الغربية، صور الأبناء والأحفاد تعجّ بها المنضدة الجانبية، أمّا تلك الطّاولة الزّجاجيّة التي تتوسّط المكـان، فـلا تحمـل إلّـا تمثـالاً واحداً سيء الصّنع، لعله تمثال يجسد فـيلاً قـد بـتر ذنبـه وخرطومـه، فأصبح كجمل بآذان طويلة. الحائط يعجّ بصور لأبطال وقادة وطنـيين وثوار، أعرف اسم بعضهم، اقـرأ الفاتحـة لـروح جمـال عبـد الناصـر، أحببته بسبب حب والدي الشديد له، كنت أظنّ في صـغري أنـه مـن

أقرباء والدي أو من أصدقائه المقربين، وإلّا لمَ يتحرق احتراماً وحبّاً كلما تكلم عنه، ويقول بعصبيته المخلصة: " خذلوه ولاد الحرام ". من خذله لا أعلم! لكنّ أبي بقي محبّاً له، وبقي يسبّ أولاد الحرام الذين خذلوه.

بعض الصّور أجهل أصحابها، أقدر أنهم ثوار أو قادة وطنيون، ليس لأن صورهم تصطفّ بوقار إلى جانب مجموعة كبيرة من صور أبطال الضابط سعادة، ولكن بسبب تلك النّظرة الحادة المرتسمة بقوة في عيونهم، بقوة تتحدى البطش والظّلم , تقزمه، وتسخر من ضعفه.

أتذكّر عيني أبي، له ذات النظرات الحادة والمشيئة الصلبة، تتراءى صورته بين الصّور، أتمنى أن أقبل صورته التي تختفي سريعاً، أتذكّر هويته العسكريّة التي تحمل صورة قديمة له، ورقمه في جيش الاحتياط، هو يحتفظ باهتمام بهذه الهوية، ويحفظ رقمه في الاحتياط عن ظهر قلب، كثيراً ما يردده، كيف يمكن أن ينساه؟ ! منذ ربع قرن ينتظر اللّحظة الموعودة حيث يندلع غضب الأمّة، ويحمل سلاحه، وينطلق نحو الأرض المقدسة للتحرير، هذا هو قدر هذه الأمّة، وهذا هو قدره الذي ينتظره بلهفة.

صورة (جيفارا) باهتة بشكل خاصّ، فملامحه الصّامتة، وعيناه الغاضبتان تخيفاني، قسمات وجهه تتحرّك، يكاد يقول شيئاً، شعيرات لحيته تهتزّ، أتخيله سينطق بصوت يشبه صوت عيسى ذلك الشّاب الثائر أبداً، كم أخشاه وأخشى نظراته. مرةً صادفته بعد الغروب في شارع المستشفى القديم، كان يحمل كيس خضار صغير، وبضعة كتب

صغيرة، ويتدثر (بكوفية) فلسطينية، حدّق بي كأنه لم يعرفني، وابتسم، أقسم لكَ يا حبيبي على أنه ابتسم لي ابتسامة طفوليّة بريئة أضاءت قسمات وجهه، وتخلل نورها لحيته الكثيفة، شعرت بأنه سيحدّثني، لكنه لم يفعل، بل مضى! في اليوم التالي كنت أتلهف للقائه في المرسم بل للقاء ابتسامته الملائكية وقسماته المطمئنة، لكنه لم يأت، لأيّام لم يأت. لم أعن نفسي بالبحث عن نور وجهه، أمّا اسمه عندما كان يذكر كان يثير بعض الهمسات في صفوف الموجودين، همسات لم أستطع أن أخمن ما تقول.

- تعجبك الصّورة؟ !

يداهمنّي صوت سعادة يدلف إلى الغرفة، تدفع زوجته كرسيه المتحرّك، أقول برعشة أحدثها صوته المفاجئ: نعم.. لا أعرف.

يطالعني وجه زوجته، يالله كم هي طويلة القامة! أراهن على أنها أطول بعشر سنتيمترات على الأقلّ من الضابط سعادة، جسدها متماسك على الرغم من ضخامته بشكل لافت للنظر، أمّا قسماتها، فسمراء جميلة.

أتساءل كيف سأبدو وأنا أرتدي ثوبها؟ أتخيل أطرافه الدّنيا تلامس الأرض، وأكمامه تتجاوز كفي بل وتغطيهما، وصدره ينزلق إلى أول معدتي. أمّا أن يكون بهذا الجمال فهذا مالم أتوقعه! جديد هو كأنه خيط في البارحة، وليس قبل ثلاثين عاماً.تأثرت جداً بكرم زوجة سعادة، عندما أخبرتني وهي تعدل من وضع الثوب علي، وأنا أقيسه

في غرفتها أنه ثوب زفافها، أتكون بهذا الكرم، وتسمح لي بأن أرتدي ثوباً يحمل أجمل ذكريات عمرها؟ !

أصرتْ على أن ألبسه، وقالتْ بنبرة حنون: عندما تزوّجت كانت النّساء تلبس مثل هذا الثوب، أمّا الآن فالعرائس يلبسن أثواب الزفاف البيضاء، والله أشعر بأن ابنتي تلبسه، جميل أنه يناسبك، طويل قليلاً، ولكن لا بأس المهمّ أن خصره يناسب خصرك، آه ذكّرتني بأيّام شبابي. وروح الغالي ارتديه يا ابنتي، ولا تشعري بأي حرج، والله ستبدين كالقمر وأنت ترتدينه.

وروح الغالي سأرتديه، ياالله ما أجمل روحك! لكرمك معنىً خاصّ، لطالما تأثرت به ممزوجاً بكرم سعادة الذي أكرمنّي دائماً كلما زرت بيته، وأقسم عليّ أن أتناول الطّعام معه ومع زوجته، طعام بسيط يقدمه بفرحة خاصّة لا يعرفها إلّا البسطاء والفقراء الذين يقدمون كلّ ما عندهم بفرحة العطاء، وسعادة البذل، فرحة وسعادة ممزوجتان بصوت سعادة الذي يملأ أركان البيت طالباً الشاي بالنعناع، يتعمد أن يلقي طلباته بنبرة آمرة ليثبتَ رجولته في ذاك البيت، فتأكدها زوجته بابتسامتها الراضية وهي تطلّ من المطبخ تحمل إبريق الشاي.

أزرق.. لون الثوب أزرق.. كما لون السّماء، أزرق كما تحبّه أنتَ يا حبيبي، قماشه من الحرير السميك، وخيوطه الحريرية الحمراء القانية ترسم زهوراً وطيوراً صغيرة بشكل طولي ومتواز يمتدّ من أسفل الصّدر حتّى أدنى الثوب، أمّا صدر الثوب فيعجّ بزركشة حمراء

قانية اللّون، تحاكي تلك الزركشة التي توشي أسفل الثوب من ظهـره، و يطوق الحرير المنسوج بإتقان فتحة الصّدر، والإطار السّفلي للثوب.

أعرف أنّك تحبّ الشّعر المسدل على الكتفين، سامحني هذا اليـوم لن تراه مسدلاً بل مجموعاً إلى أعلى رأسي، كي أستطيع أن أزرع بـين خصلاته هذه القمحات الصّـغيرة. ثـوب أزرق وشـعر داكـن تغـزوه حبيبـات القمـح، تماماً مثـل إلهـة الخصـب في لوحـة رسمهـا الفنـان الفلسطيني عبد الرحمن المزيّن، لوحة رائعة يصور فيهـا إلهـة الخصـب عند الكنعانيين القدامى في فلسطين، إلهة الخصـب امـرأة شـابّة بجسـد ممشوق، شعرها الأسـود يصـل إلى أخمـص قـدميها العـاريتين، ثوبهـا الأزرق بخطوطه الحمراء يكسو جسدها، تمسـك بيـدها مـنجلاً ذهبيّـاً رمزاً لعمل الفلاحين، يطوق رأسها إكليل من سنابل القمح الصّـفراء الناضجة تحدّق في البعيد، كأنها تأمل في شيء يهبها إياه المجهول.

أمّـا أنـا فأحـدّق في بـاب سـاحة الاحتفـالات، انتظـر بـاحتراق شعوب من العشاق حضورك، نبض أولئك العشاق يهـزّ دمـي الـذي يتمناك بشوق الياسمين، واليـاسمين وحـده يعـرف معنـى الأشـواق. صوت خرير الماء يغرق المكان، الوجوه حولي جميعها تتلقى رذاذ المـاء الذي تنشره نافورات كبيرة، تدفع الماء بشدة إلى أكثر من عشرة أمتار، كثير من الوجوه التي اعتدت على رؤيتهـا في هـذه المدينـة تطـالعني في هذا المكـان، معظـم المحتفلين يرتـدون ملابـس تقليديـة، الكـثير مـن الملابس الجميلة، ولكن تلك النظرات التي تحاصرني تنقل لي كلمـات

إعجاب بنكهة خاصّة، يشعرني هذا الثوب بفرحة الفلاّحة، وفرحة الفلاّحة فرحة معطاءة وصادقة تماماً مثل فرحة الأرض.

شعر نورما الداكن يتراقص تحت رذاذ الماء، تحدثني عن (اختمارت) تلك الأرمنّية العاشقة التي تبيت حزينة في حكايا العواجيز الأمنيات، تنتظر حبيباً هجرها ومزق قلبها. ليتك يا نورما لم تحدثيني عن هذه العاشقة، أخشى أن ألقاكَ يا حبيبي بأحزان (اختمارت). عيناي هما السّبب، هذا ما تقوله نورما، فنظرات عيني ذكرتاها لسبب ما بهذه القصّة الشعبية.

- هل هو حقاً يحبّها؟

هل هو حقاً يحبّها؟ لماذا لا تجيبين؟

- يقول إنّه يحبّها؟

- وماذا تقولين أنت؟

- أقول إنه يحبّها يا.....

أحدّق بكاظم وهو يحادث فضيلة، لا أسمع كلماته، يجلس وإياها بعيداً، لكن نظراته وسعادتها تحملان لي كلمات عاشقة، يداعب شعرها من حين إلى آخر، تبعد يده بخجل عن شعرها، حركاتها الطفوليّة تنعش ضحكاته. قال لي عندما رآني: تبدين كالعروس.

عندما نظرت في عينيه رأيت فضيلة تسكنهما برداء أبيض.

تأخرتَ يـا حبـيبي دقـائق عـن موعـدنا، ولكنهـا دقـائق ضـوئيّة بالنسبة لي. آه لو تكف مروة عن سـخريتها، تقـف بجسـدها النحيـل، وشعرها المسرح بعفوية، تطالع كلّ ما حولها , تمثـل للحظـات كـلام وحركات أناس تعرفهم، تلـتقط بحـس غريـب المواقـف مـن حولهـا، تصفها بكلمات دقيقة، تحلل مواقف من حولها، تبتسم وتهـدد قائلـة: كلّكم سأصوركم في مسرحيتي، وسأفضح جنونكم.

تراقب كاظم و فضـيلة للحظـات، تـدنو منّـي، تنتصـب واقفـةً أمامي، تهمس لي بنبرة تمثيلية: " الحياة مسرح كبير ".

الحياة مسرح كبير، لكنها ضيقة ومعتمة من دونـكَ، الآن تصـبح أرحب عندما تطلّ شمسكَ وتنيرها، ما أسعد الفلاّحين، لأنّك ترتدي زيّاً هو زيّهم، تلك (الكوفية) تبرز نظـرات الفـلاّح في عينيـك، مـن أين لك بهذا الزي؟ أيّ الهواجس سكنتكَ وأنتَ تلبسه؟ مجنون أنـتَ، عذب أنتَ، نعم هذا هـو الرجـل الـذي أعشـقه، كيـف يمكـن أن لا أعشق جنونك؟ بل وأعشق ذلك الزي الذي ترتديه؟

تقترب منّي بخطـوات فـلاح اعتـادتْ الأرض علـى أن تـداعب طهر قدميه، تنظر في عيني، تمدّ يديكَ نحو شعري، أذوب من لمستهما، بحركة صغيرة تحرر شعري من قيده، وتجعله يركض سريعاً نحو كتفـيّ، تداعبه وتقول: لا تجمعيه مرةً أخرى، أنا أحبّه هكذا، يا قمري.

ابتسم لك، روحي تتساقط سعادة في بحيرة عينيكَ، ارسمنّي كمـا تشاء، فأنا لم أولد إلّا كي أحبك.

الشّمس إلى جانبي، فلا عجب أن أحترق. كيف مضى ذلك المهرجان؟ لا أدري كيف مضى؟ لأول مرة لا أحضر مهرجاناً على الرغم من أنّني موجودة في أرضه، لم أسمع أي كلمة، لم أر ألواناً، لم يشم أنفي أي رائحة، المهرجان الوحيد الذي كنته هو فرحة الجلوس معكَ، ومتابعة عينيك ترقبان بعظمة ما يجري حولهما، وتداعباني بنظراتهما من وقت لآخر.

لَمَ تصافح النّساء بهذه الحميمية؟ !

لَمَ تصافح منظمة المهرجان بهذه الحميمية؟

شعرها الأشقر وعيناها الزرقاوان تحدثان عن جمال ما زال يناضل الكبَر الذي بدأ يغزو وجهها، ولكنه لم يغزو رشاقتها وجسدها الذي تحاصره برداء أحمر ضيق، يبرز بشكل فاضح صدرها الكبير. كدت أحبّ نزقها، وإحساسها الخاصّ بأنوثتها المتهالكة، لكن مطالبتها الودودة بزيارة منك ولقاء ما، جعلتني أكرهها، وأطالع بحقد كفيها اللّتين نعمتا بلمس كفيكَ قبل دقائق، كيف يمكن أن أعاقبها على غنيمتها الآثمة؟

قد أستطيع أن أسامحها، أمّا تلك المرأة التي قدمتها لكَ على أنها شقيقة صديقتها، فلن أسامحها أبداً... لن أسامح نظراتها الوقحة تتابعكَ، تتمناكَ، تعدكَ بهبات تتقن الوعد بها، لا بد أنها تكبرني ببضع سنوات، تكلمكَ بثقة وتجربة تجعلني أشعر أنّني غرة لا تجربة لها، تحدثكَ بحميمية كأنها تعرفك منذ سنوات، أمّا أنت فتبتسم لها أكثر مما يجب، أكثر مما أتحمل أن يحدث، أغفر لكَ أن تعاشر كل نساء الدّنيا،

أمّا هذه فلا أغفر لكَ مجرد الحديث معها، قلبي يخشاها، يضطرب لكلامها، يبحث عن ملجأ له بين ضلوعي يحميه من سحق يلوح بين يديها .

كيف تستطيع عيناها الصّغيرتان إلى حد عجيب أن تمتلكا كل هذه الفوضى، تتملكنّي رغبة تدعوني إلى تحسّس وجهها لأتأكد من أن تلك البقع البنية التي تغزوه بقوة هي مجرد نمش وليس مجرد نقاط مرسومة بسخاء وعدم ذوق على أديم بشرتها الداكنة، بخلاف شعرها البني اللامع. انظر بفضول إلى صدرها المكشوف، ما زال سيل النّقاط البنية يتابع جريانه في جميع أجزاء جسدها، أتساءل كيف يبدو ثدياها بهذا الأديم المنقط! أيمكن أن تجس هذه النقاط أم أنها تسمح للجلد أن يحافظ على ملمسه الطّبيعيّ؟ أتذكّر تلك الحشرة البنية الملساء التي كانت تغزو أرضية حديقة جدّتي، حكيمة هي جدّتي عندما كانت تسارع إلى الملح تصبّه على جسدها اللزج، فيذوب تحت وطأة إحراق الملح له.

شعرها جميل، أتابعه بفضول، وهي تبتعد أتمنى لو أنه كان أطول ليخفي تلكَ الأرداف الثقيلة، وكأنها تمتدّ حتّى الرّكب، كيف لجسدها النحيل أن يملك مثل هذه الأرداف؟ أجزم بأنّ الله خلقها أردافاً ثمّ أنبت لهذه الأرداف امرأة.

اسمها شرف، جسدها جميل، أليس كذلك؟ قلتَ لي.

حدّقت بكَ بسخط، صمتّ، عندما أخذتَ تمارس متعتك في مداعبة طفولة فضيلة، قال لي كاظم بكلمات خاطفة، وهو يتابع

بعينيه خطوات شرف: ردفاها رائعان، لم أرَ من قبل أردافاً بهذا البروز والامتلاء والكبر.

شعرت بتقزّز من كلماته، لم أعتد منه مثل هذه الكلمات الجريئة، عيناه كانتا تتابعان سيرها بفضول من يتابع جسداً عار، قلت له بفضول مفضوح: أتعرفها؟

ابتسم، وقال لي بنظرة خليعة، تناسب اتساع عينيه وبروز محجريهما: لم أقابلها من قبل، ولكن من لا يعرف هذا النوع من النّساء؟

نظر إلي وقال بنبرة أخافتني: ابتعدي عنها.

نظرت إليكَ يا حبيبي، راقبت ابتسامتكَ العذبة سألتكَ وإن لم تسمع نجواي لنفسي: هل ستبتعد هي عنك؟ !

أشعر بقشعريرة تجتاح جسدي، شمسك فاترة بعض الشّيء، أكاد أسمع من حولي، أراقب رقصّة شعبيةً يؤديها مجموعة من الشّباب، أتابع الوجوه هنا وهناك، سماع بعض المجاملات اللطيفة لا يضرّ، حتّى كلمات الإعجاب المبالغ بها التي يسارعني بها أحد أصدقائكَ تبدو مقبولة كي تخفف من اضطرابي.

أحتاجكَ الآن، أتلهف على انتهاء هذه الرقصّة، كي أسلم نفسي إلى صدركَ، الرقصّة أطول مما آمل. عينا عيسى هما آخر ما آمل أن أرى، منذ زمن لم أقابله، وجوده في المهرجان متوقع، لكن شيئاً ما يثير

دهشتي، لعلها نظراته السابرة التي تقبض عليّ متلبسةً بعشقي، على الرغم من الإضاءة الخافتة داخل قاعة الاحتفالات.

أخشى نظراته، تحدثني بأمور لا أفهمها، أتصدق يا حبيبي أنّني أخشى نظراته حتّى وأنا معك، نظراته تصبّ لعناتها عليّ، وأشدّ ما يخيفني أن تصيبني لعناته التي أجهل سببها. أحاول أن أتجاهل نظراته، أمّا هو فلا يجد حرجاً من الجري وراء عيني الهاربتين منه، يحدّق بي بنظرات تشبه تلك النظرات التي طالعتني في صورة (جيفارا) في بيت سعادة، هل تعرف (جيفارا)؟ نظراتكَ ولحيتكَ وقبعتكَ تقول أنّك تعرف من هو (جيفارا)! بل تقول أنّك تحاكي مظهره على الأقل بهذه القبعة البنية نادرة الاستعمال.

أخشى نظراتكَ يا عيسى، ليتك تكفّ عن بعث هذه النّظرات، ليتني كنت أملك الكلمات المناسبة لأطلب منكَ هذا الطّلب الطّفولي، لكن كم هي الأمنيات التي لا نستطيع أن نجد لها الكلمات؟؟ ! كثيرة هي أليس كذلك؟ !

ليتكَ يا حبيبي تخلصني من نظراته بطريقة ما، لكنّني أخشى أن أشكو لك هذه المطاردة، بل أخشى أن تشعر بها، أنت غيور، غيور بطريقة غريبة، تغار من مجرد أن يحلم من أمامكَ بلمس ما تملك، تغار عليّ ليس مثل غيرة المحبّ الضعيف، بل مثل غيرة السيد الذي يملك قلباً بشكل كامل، ولا يقبل أن يناقش فكرة حصول أي مخلوق على جزء من هذا القلب، ولو على شيء من فتات عطفه، عندما أخبرتكَ أنّني قابلت عيسى في السّوق وكان وجهه منّيراً، حدّقت بي بغضب

وقلتَ لي بسخرية: لعله من الصالحين الأبرار، لا تنس أن تنالي بركاته.

سريعاً ما تنتهي الأوقات السعيدة، سريعاً ما تنتهي المهرجانات برفقتكَ، تطلب منّي أن أدخل إلى منزلي كي تعود إلى بيتك، وعندما أوشك أن أرقى أول درجة من السّلّم، تطوقني (بكوفيتكَ)، تدنيني من مكان وقوفك , تطوق بيديك وجهي، تحدّق به كأنّك تراه لأول مرة، تداعب عقارب شعري، تقول لي بصوت خفيض، ولكن بقوة صوت فلاّح أجهد الأرض وما أجهدته: تعبت وأنا أنتظرك. انتظرتك أكثر مما ظننت أنّني سأفعل...

- أنا لك، قل لي أنّني هبتكَ في هذه الحياة.
- لا يمكن أن تكوني إلّا لي، من يقترب من حبيبتي (أرتيمس) سأقتله دون تفكير.
- ليتكَ كنتَ أقل روعة حتّى لا أحترق آلاف المرات في نار غيرتي، ليتني عمياء كي لا أتعذب بمراقبة عيون النّساء تحلم بك، ليتكَ تسرقني لتخبئني في كهف في عنان السّماء لأعكف على التعبّد في محراب حبكَ إلى الأبد.
- لا تغاري يا حبيبتي من النّساء، أنت لست كأي واحدة منهن، أنت صنف آخر، مزيج عجيب من الحب والأسطورة والقدر، أنت وجه لا ينسى، ملامحه لا تتكرّر، أمّا غيره من الوجوه فقدرها النسيان؛ لأن ملامحها لا تملك مثل بريق عينيك

العاشقتين. هيا يا حبيبتي أسـرعي إلى النّـوم، لا أحـبّ أن يسـرق التعب شيئاً من نضارتك.

- عدني بأنّك ستزورني في أحلامي.
- أعدك بأنّي لن أفارق أحلامك ما حييت.
- أتحبّ أن أزوركَ في أحلامكَ أيضاً.
- أنت أجمل في الحقيقة، أرجـوك لا تسـكني أحلامـي، دعـيني أنـام بسلام، تحتاجين رجلاً بطاقة أسطوريّة كـي يسـتطيع أن يحلـق في سمائك، وهجك في الأحلام مخيف، أنـت كالكـابوس... هكـذا هي أحلامنا عندما تتحقق، نخشاها لدرجة أننا نظنّ أنها كابوس، مخيف أن يرى الإنسان أحلامه حقيقة، أفكر أحياناً في أن أهجرك وأهرب بعيداً، ولكن إلى أين؟ أنت مصيري، أنت لعنـة، منـذ أن خلقنا، خلقت على شكل لعنة لكن ما أجمل أنّك لعـنتي الأزليـة! ! اذهبي إلى النّوم.
- سأنتظرك.
- سآتي.

كل ليلة زرتني في الحلم يا حبيبي، أعشق النّوم؛ لأنّني ألقـاك فيـه، أجدكَ تنتظرني، تمتطي صهوة أشواقك، تدعوني إلى المسـتحيل، آه مـا أعظم الخالق! لولا هذه الأحلام لاحترق قلبي، لفتتَ الشـوق بأسـي، كل ليلة طوال ثمانية عشر عاماً، قضـيت الليّـل في حضـنك، اعتـدت على أنفاسك، على نـبض قلبـكَ، علـى رقيـق لمسـاتك وحركاتـكَ،

ترتدي زيّكَ السماوي، تكلل شعركَ بالغار، تماماً كما ترسمكَ الأسطورة (هيليوس) المشرق، ويداك تكلل شعري بزهر اللّوتس الجميلة، نطفو على ورقة خضراء فوق ماء بحيرة صافية، أصوات الموسيقى تسحر المكان، تغني لي بصوتكَ السماوي، وتهمس لي بآلاف الأمنيات، هكذا الأحلام تشبهكَ، لذا أعشقها، الناس تطلب الرّاحة في النّوم، وأنا أطلب النّوم لكي ألقاكَ بعيداً عن كل البشر، بل بعيداً عن نفسي وعن مجال إدراك حواسها المحدود.

(١٢)

أنا مهووسة، هكذا يسمّون المرأة التي لا يفارقها طيف رجل تعشقه، الهوس تهمة يحاول أن يرفضها كلّ من توجه له، أمّا أنا فأتهم نفسي أبداً بهذه التّهمة اللّذيذة، أفخر بأنّي مهووسة بكَ، طيفكَ يضحك بشدة من فكرة الأدلة، يضمنّي بعطف كأنه يقول لي: سكناي لك دليل كاف على هوسك بي.

أنا مهووسة بك، أمّا أنتَ فلا تحتمل مثل هذا الهوس، تخبرني بأن هذا العشق المستحيل يناسب امرأة مثلي، امرأة تملك مثل طاقتي، امرأة ملعونة بعشقها.

تراهن كثيراً على عشقي، أمّا أن فأقبل لهوكَ مع النّساء، فهذا ما لم تراهن عليه، أنتَ رجل لا تملك إلّا أن تكون معشوقاً ' رقتكَ ودماثة طبعك تجعلكَ ألطف مما يجب مع النّساء، عندما تحلم بكَ النّساء، تخبركَ بأحلامها، تستغرب، أمّا أنا فأتفهم ذلك، أستطيع أن أهب بعض النّساء لحظات سعادة معكَ، ولكن روحكَ ملك لي أبد الدهر، أنتَ رجل ضعيف أمام حب النّساء لكَ، وأنا ضعيفة أبداً أمام حبك، لا تغير من طبعك، لا تقمع ذاتك من أجلي، مارس ذاتكَ، وكن على سجيتكَ، ثم عد إلى حضني، وحدثني كالطفل عن خطاياكَ، ودعني أمسح بيدي عناء كلماتكَ..

تسألني دائماً: كيف أستطيع تحمّل...؟

أجيبكَ بصمت من حطمه الانتظار: ألم تقل أنّني أملك طاقةً استثنائيّة، لا بأس في تبديد بعضها في تحمّل.....

تعيد سؤالكَ كالطفل: ولكن كيف تستطيعين أن تحتملي.....؟ !

أجيبكَ: وكيف تستطيع أن تراني أعاني في تحمّل.....؟ !

أنا مهووسة...

أنا مهووسة...

أحدّق في المرآة، أراقب شحوب وجهي، لا أصدق أنّني فعلت ذلك؟ ! أفعلته لأنّني مهووسة بحبك! !

تسألني المرآة بفضول: ماذا فعلت؟ !

أجيبها: لن تصدقي ما فعلت؟

أنتَ يا حبيبي تعرف ما فعلتْ، أظنّ أن عيني نغم هما السّبب فيما فعلت، هي فتاة ساذجة إلى أبعد الحدود، عدسات نظارتها سميكة، ولكنها تشي عن عيون شبه حمقاء، ما سبب ولعها باللّون الأصفر الغامق، تلبسه باستمرار، حتّى بات منظرها يذكرني ببعض أنواع الفاكهة، عَرفتْكَ منذ بضعة أشهر، تتكلم عنكَ بصراحة وأمام أي شخص، حتّى أنا حديثة المعرفة بها، لا تجد حرجاً في أن تحدثني عن تعلّقها بكَ، تغيظني أحياناً، ولكن عندما أرى الحب في عينيها، احترم حبها؛ فقط لأنه هبة لكَ يا من أحبّ.

قالتْ لي: إنّها تحلم بكَ باستمرار؟

فسألتها بفضول: ماذا تعنين بكلمة أحلم به؟

- أعني أنّني أراه في أحلامي.
- حقاً؟ !
- البارحة حلمت بأنه قبلني...! أتصدقين ذلك؟ !
- مدهش.
- ليتّ هذه القبلة كانت في الحقيقة.

كلماتها الصادقة إلى درجة كبيرة أثارتني، أقترب منها، وأهمس في أذنيها: اذهبي وأخبريه بأمنّيتك.

لاقت كلماتي الرضا في وجهها الذي يملك نفس الملامح والرّدود مهما كانت انفعالاتها: وماذا سيفعل؟

ابتسم لها، من حقها أن تقترب قليلاً من وهجه، ستجده رجلاً مستحيلاً: سيقبلك بالتّأكيد، ولكن إياك أن تحلمي ثانية به، وأسرّ في نفسي: لأنّني سأقتلك عندها..

يالك من رجل مجنون! لهذا أحببتكَ، ولهذا شابهتكَ. لقد قبلتها كما توقعت تماماً، أعرف أنّك أشفقتَ على أمنّيتها ووهبتها قبلتكَ، وليس قلبكَ، قبلتها بدماثة السيد ليس أكثر، أمّا أن تطلب أن تتزوّجكَ فهذا ما يثير ضحكاتي، ويثير سخطكَ علي.

تقول لي: أيتها الشيطانة، أنت من سول لها أحلامها.

أجيبكَ ضاحكة: تريد أن تتزوّجكَ إذن؟!

- قالتْ إن هذه القبلة جعلتها تقـرّر أن تتـزوّجني، وتـتركَ ابـن عمها الذي يذوب بها عشقاً.

- وإذا لم تتزوّجها ، ماذا ستفعل؟

- ستدوس حبها، وتتزوّج من ابن عمها، وتختفي مـن حيـاتي، هذا ما أخبرتني به.

أضحك بقوة: حسـناً تفعـل... محظوظـة أنهـا تملـك مثل هـذه القرارات الحديديّة، لا تقلق بشأنها، ليست امرأة عاشقة، مجـرد امـرأة تمنتكَ... ستكون بخير.

- وأنت.. هل أنت بخير؟ !

أتأمّل وجهكَ، تتبدد ابتسامتي، أحادث نفسي: سأكون أفضل لـو انقطعت زيارات شرف لكَ، ليتكَ تعـرف أي الميتـات أموتهـا عنـدما أراها تزورك، وتحضر كـثيراً مـن مؤتمراتـك أو في معـارض الطّـلاب الفنيّة التي تشرف عليها.

تسألني بدهشة: أيّ النّساء أنت؟ !

- أيّ الرجال أنت؟

- أنا أعشقك...

- أمّا أنا فمهووسة... بكَ.

لن تصدق أسرار أمر قبلة نغـم ، بـل لـن تصـدق أن أنـس قـد قرّرت الزّواج، منذ أن أدركت خديعتها بحبيبها، تعاملت مع الموضـوع

ببرود غريب بعد عاصفة من البكاء، سافرتْ إلى بلدتها، ثم عادتْ بخاتم خطبة وبقصص كثيرة عن خطيّبها المثقف المتدين الذي يحبّها بشدة، تصوري يا أسرار أنها أخفتْ شعرها الجميل تحت قطعة قماش، قالتْ لي بسرور: أحبّ حجابي، لا أحد يستحقّ أن يتمتع بي إلّا زوجي الذي اختارني إلى جانبه. طيّبة هي، أرجو لها السعادة الحقيقية مع ذلكَ الرجل الذي تقدس اختياره لها.

ما أبعد بيتك يا أسرار! لا أنّكر أنّني أسعد بمراقبة هذه الغابات الجميلة، في طريقي الجبليّ نحو مزرعتك التي تسكنين فيها مع عائلتك، ولكن الطقس يبدو بارداً هذا اليوم، والحافلة تفتقر إلى الدفء المطلوب، ذلكَ الرجل الذي يدخن بشره يثير اشمئزازي، ليته يطفئ سيجارته اللعينة، ويقفل النافذة التي يفتحها إلى نهايتها، وليت ذلكَ الشّاب الأسمر ذا الملابس الداكنة يتوقّف عن التّحديق في من حوله من النّساء، ألم ير نساءً من قبل؟ ! تبدو عليه التعاسة، و العمل الكادح، لا بد أنه عامل بسيط. قد يكون التّحديق في النّساء هو كلّ ما يملك ويعرف عنهن، أشفق على حاله، لا بأس، ليحدّق لبضع دقائق أخرى، بؤسه يشفع له عندي.

لو كانتْ أسرار معي في هذه الحافلة، تجلس إلى جانبي، كما قابلتها لأول مرة قبل عام، لكانتْ بادلته نظراته بابتسامات وابتسامات، أعرف أنها لن تتورط في أكثر من ذلك، لكنها تهب ابتساماتها بسخاء لأمثال هذا الشّاب من الشّباب المسحوق بفقره وضنك عيشه وعمله.

أثار سلوكها فضولي، عندما توثقتْ معرفتي بها، سألتها بلهفة عن سبب ابتسامتها لأمثاله، أدهشتني إجابتها، شعرت بأنّ إنسانيتها قد جن جنونها، إنها عطوفة ورقيقة أكثر مما يظهر في عينيها اللّتين لا تفارقهما ابتسامة تبللها الدّموع دائماً، وتغادرهما سريعاً نحو الخدين عند أول موقف يجرح إنسانيتها أو يستفزّ طبيعتها الرقيقة، قالتْ لي: أنا لا ابتسم لأي رجل، أمّا أولئكَ (الغلابة) فابتسم لهم عن عمد لأهبهم لحظة سعادة، يستحقّون ابتسامة تمسح عنهم غبار حياتهم الصعبة، ابتسامتي تسعدهم، أشعر بذلك، وتردّ لهم الثقة برجولتهم المسحوقة تحت أعباء الحياة، يستحقّون ابتسامة أليس كذلك؟ ! أم أن الكعكة في يد اليتيم عجبة؟

كلامها مجنون و غريب، لكن إنسانية ما تسكنه، لذا قرّرت أن تكون صديقتي، وكذلك كانتْ، صديقة فريدة من نوعها. ها هي تقبل نحوي، جسدها نحيل لكن بشرتها متوردة بشكل خاصّ، وتجمع شعرها في ذنبة فرس، كيف تراه سيبدو على كتفيها، تقبلني وتحييني بشدة، البريق في عينيها له تناغم مدهش مع كلماتها الحلوة التي تدلّ على ثقافة مميزة، وحس مرهف، وروح فكاهية تناسب رغبتي الفطريّة في الضحك.

الساعات تمضي معها سريعاً، الطّعام معها لذيذ، ويكون مدهشاً عندما تتناوله داخل مستنبتها الشّتويّ، تعشق زراعة الخضراوات والفواكه، وتتقن هذا الأمر، تتفنن في اختيار الأصناف الجيدة. لم تنضج أيّ من الفواكه أو الخضراوات لهذا الموسم بعد، ولكن زهور

الفواكه تملأ المكان بالأطياف والروائح العذبة، تحدثني لساعات عن أصناف وسلالات تلكَ الأشجار، ليتها تزرع بعض الزّهور الحمراء، كلما تمنّيت ذلك عليها، تحدّق بي بنظراتها التي لا يخفى الذكاء فيهما وتقول: لماذا؟ ! ألتهديها إلى ذلك الرجل الفاتن في المدينة؟ أتعشقينه؟!

نعم أعشقه... يجيبها صمتي. قابلَتْكَ لأول مرة في قاعة المدينة للموسيقى، صافحتكَ ببرود غريب، حدّثتك طويلاً، وفي أول إغفالة منك، قالتْ لي: رجل مدهش، هل تحبّينه؟ إياك أن تخسريه، إن فعلت، فسوف أخطفه منك من دون شكّ.

مستحيل... هذا الرجل خلق لي وخلقت له...

لم أجبها، ابتسمت، ففهمتْ عيناها الذكيتان كلماتي، وتحسستْ برفق عشقي.

عندما أزورها تبحث عيناي بفضول عن سالم ذلك الصبي العذب، يشبه أخته أسرار ببريق عينيه، أمّا بشرته الداكنة فتعطيه ثقةً خاصّة، أحبّه بشدة، ويحبّني بشدة، كلما زرته، يقف إلى جانبي، يفرح بشدة عندما يرى طوله قد فاق طولي، يقبلني، ويحسب الفرق بين عمري وعمره، ويقول لي: نستطيع أن نتزوّج، سبع سنوات، ليست فرقاً كبيراً، صديقي قال إن أمه أكبر من أبيه بعشر سنوات، وهما سعيدان، سأتزوّجك بعد عشر سنوات. أتوافقين؟

- ولكنّني عاشقة! !

- هل ستظلين عاشقة حتّى بعد عشر سنوات؟
- إلى آخر العمر.
- إلّا نستطيع الزّواج، وتبقين عاشقة؟
- لا.. لا أستطيع.
- إذن لن تحبّيني؟
- بل سأحبّكَ دائماً.

تسعد كلماتي طفولته البريئة، يقبلني، له ولع خاصّ بشعري، يقضي معظم وقته يداعب شعري، يقول لي بحزم من وجد فكرةً ضائعة: أريد خصلة من شعرك.

- خصلةً من شعري! ماذا ستفعل بها؟
- احتفظ بها للذكرى.
- لماذا لا تطلب شيئاً آخر للذكرى؟
- أنا أحبّ رائحة شعرك، ولا أريد إلّا خصلة صغيرة.

تنهره أسرار بشدة، يصمت خجلاً، يريد خصلة من شعري، أمّا أنتَ يا حبيبي فلم تطلب خصلة من شعري، أيحبّني أكثر منك يا حبيبي؟ أم أن لرائحة شعري وقعاً خاصّاً عليه؟

أعطيته الخصلة التي طلبها، أسعدني بطلبه، فأسعدته بهبتي، عندما قصصت عليكَ القصّة، غضبتَ من سلوكي، تفقدتَ شعري،

وافتقدتَ تلك الخصلة، أتكره أن يملك أيّ إنسان جزءاً منّي، ولو كان خصلة شعر؟ ! غضبكَ يقول لي: نعم.

- وجهك شاحب، ما السّبب؟ تسألني أسرار.

أحبّ الوجه الشاحب، لأنه يعني أحاسيس قوية تذبل الرّوح، وتضني الفكر...

- حسناً يا عزيزتي. أحضرت لك هدية خاصّة.
- هدية؟ ما تكون؟
- انظري...

أرى بلبلاً، أهدتني أسرار بلبلاً جميلاً، عندما قدمته لي، شاع بريق خفيّ في عينيها، بدتْ كالأسد بحدة قسماتها وثقتها، هكذا وصفتها يا حبيبي عندما رأيتها لأول مرة قلت: جميلة كالأسد!

ماذا عنيتَ بجمال الأسد؟ لم أسألكَ عن ذلك، لكنّني لا زلت أجهل ما عنيت بذلك.

قالتْ لي: اهديه بلبلاً، لتثبتي له أن ورودك لا تأخذ لونها من دمه المسكين.

ذلك البلبل أسعدكَ كثيراً، بل أدهشكَ دائماً، قلتَ لي أنّني المرأة الوحيدة التي أهدتكَ بلبلاً طوال حياتكَ. بقي البلبل رفيق مرسمكَ حتّى نفق، وتركَ ورودنا الحمراء وحيدة تزين المرسم.

كلما ذكرتَ لي ذلك البلبـل تـذكرت أسـرار، وتـذكرت نبرتهـا الساخرة، وهي تحدثني عن زوجها الـذي تزوّجتـه بعـد مـوت البلبـل بشهرين، ذلك الزوج ذو الشّخصيّة الضعيفة، أشـفقتْ علـى ضـعفه، رحمتْ فقره كعادتها، وعندما أصبح حبه الظّاهر لهـا مصـدراً لسـخرية العاملين في مستنبتها الكبير، تزوّجته، وأنقذته من ضعفه ومن سـخرية من حوله، وجعلته شريكاً لها في المستنبت بعد أن كـان مجـرد مهنـدس زراعي بسيط يمتّ لها بقرابة بعيدة يعمل عندها مقابل أجر متواضع.

وكانت تنهي سرد قصتهامعه بضحكتها المعتادة التي تشبه صـهيل جواد بري، قائلة وهي تصفق كفها بكفي: أم أن الكعكة في يد اليتـيم عجبة؟ !!

(١٣)

لأوّل مرة أقطع هذا الشّارع في الليّل، له سكون غريب لا يشبه تلك الجلبة التي تسكنه في النّهار، الأضواء اللّيليّة ترسم ظلالها الشبحية على الأشجار، يبدو المتحف وهو مغلق أكبر حجماً، لعل ظلامه وسكون الحركة فيه يوحيان بقدمه وعراقة تاريخه وضخامة مبناه، لم ألحظ من قبل ارتفاع بوابة المتحف الرئيسية، حتى واجهة المتحف الرئيسية تبدو قطعها الفسيفسائية أكبر وأضخم، بل تكاد تبتلع من يقصدها ليلاً.

ظلام إلّا ضوء صغير يتسللّ من نافذة مرسمكَ، أهبط السلّم بهدوء أتعمدّه نحو باب مرسمكَ، صوت حذائي يحدث صوتاً لا أستطيع منعه، في المرة القادمة سأنتعل حذاءً رياضياً، شيء من البرودة يلفحني، كيف تسهر في هذا الجوّ البارد؟ !

تحبّ عملكَ.. تحبّ فنّكَ.. ولا تريد أن تفارقني، لهذا دعوتني للسّهرمعكَ في المرسم أثناء عملكَ، قلت لي: أنّني الشّخص الوحيد الذي سمحتَ له بالدّخول الى مرسمكَ في الليّل، ومراقبة عملكَ.

الإلهام يأتيك في الليّل، تقول: أنّك تسمع طرقات الإزميل جيداً في الليّل، بل وتتحكم بحركة يدكَ بشكل أفضل في الليّل، لذا تعمل ليلاً، تسخر أحياناً من نفسكَ وتقول:- أنّك ورثتَ عادة العمل ليلاً عن طفولتك المعذّبة، فقد كنتَ تشعر بغضب متزايد في الليّل بسبب

وحدتكَ الطفولية، وكنتَ تجد في حفر الصّخر متعة تفرّغ غضبكَ فيها، بعد ذلك أصبحتَ تهتم بإعطاء شكل محدّد لهذا الحفر، ثم أصبحتَ فنان النّحت.

باب مرسمكَ شبه مغلق، أطرقه، لا أنتظر سماع صوتكَ، بل أدفعه وأدخل، المرسم يبدو مختلفاً تماماً في الليّل، الظلام يغرق معظمه، أنت لا تستعمل الضوء الكهربائي، بل تكتفي بشمعة كبيرة تذوب قريباً منكَ، صوت موسيقي خافت يبدّد صمت المكان، أمّا إزميلكَ فيأتي صوته متقطعاً ومفاجئاً في أوقات مختلفة تتوافق مع تدفّق عملكَ، رائحة الياسمين تغرق المكان، الياسمين في الليّل يعبق بشكل أفضل لا سيما إذا أغلقتْ النوافذ، وأسدلتْ الستائر كما فعلتَ أنت، هذه رائحة ياسميني، فقد اعتدت على أن أهديكَ إياه كل يوم، قلت لكَ: أنّني سأهديكَ إيّاه دائماً، بل سأفتتح لكَ موسم الياسمين كل عام، وأنهيه بباقة من زهوري.

فأجبتني: لو فعلت ذلك فستكونين أثمن إنسانة قابلتها في حياتي، فكلّ من عرفت من نساء أجدن خذلي كما أجدت خذلهنّ.

أخبرتني دائماً بأنّ رائحة الياسمين تسبب لكَ النشوة في كلّ ليلة، وتجعلكَ تستحضر أنفاسي طوال الليّل، ولكنّني ما تخيّلت أنّ الرائحة ستكون بمثل هذا الجمال. ما هذه الورود التي تسكن إلى جانب ياسميني في ذات الزهرية؟ ! قرنفل برتقالي أطرافه حمراء اللّون، أراهن على أنّها من تلك التي باتتْ لا تغادركَ إلّا قليلاً، وتمتعض من لمشاهدتي، وتتابع كلّ حركاتي، وتحاول بكلامها المعسول

أن تقترب منّي، بل أصبحتْ تحاول أن تقلّدني في بعض عاداتي، الـتي من أهمها إهداء ورود لكَ في كل صباح، أتراها تقلّدني أيضاً في عادة تقبيلك عند كل لقاء؟ ! الويل لها إن كانت تفعل ذلك.

أدلـف إلى المرسم بسـرعة، أخطـف القرنفـل بقـرف، أطـراف القرنفل الحمراء تذكرني بنمش شرف، أفـتح النافـذة بسـرعة، فتحهـا يحدث صريراً شديداً، أطوّح الزّهور نحو البعيد، أشـعر براحـة كـبيرة، وأنا أرى قرنفلاتها تهوي عاجزة على الأرض، أغلق النافـذة، أسـدل الستارة مرة أخرى، أقول لكَ وأنا أتنفس بغضب: هذه زهورها أليس كذلك؟ اللعنة عليها. أكاد أسألكَ عن سبب وجودهـا الـدائم في كـل مكان أنت فيه، ولكنّني أشعر بغصـة مـا توقّـف كلمـاتي، وألم غريـب يسكن قلـبي، أحـاول أن أغالـب بكـائي، أشـعر بـأنّ صـوتي أصبح أضعف، وأن وهنه قد اشتدّ، آه لـو أنّـك تضـمنّي لكـي أخفـي عـيني الدامعتين في حنان صدركَ.

تصـبح أمـامي تمامـاً، كيـف لم ألاحـظ جسـدك المشـوق يتجـه نحوي؟ بل كيف لم ألاحظ صدركَ العـاري؟ أتعمـل بهـذا الشّـكل!؟ على أي حال جسدكَ العاري إلّا من بنطال أسود، وقدماكَ العاريتان، وشعرك المتطاير، وجسدكَ المتعرّق تناسب جميعها لحظـة خلـق يهـديها لكَ إلهام ليليّ.

تتجه نحوي، تبتسم، عيناكَ ترقص مـن السـعادة؟ أيسـعدكَ أنّـني أغار عليكَ؟ أتعمّدتَ أن تحتفظ بورودهـا كـي تغـيظني؟ الويـل لـكَ منّي.

تشتد رغبتي في البكاء، ولطالما اجتاحتني في حضرتكَ رغبة البكاء، تضمنّي وكأنّك تقرأ قلبي، تهرب بضع دمعات من عيني، لست غاضبة، بل صدركَ يشعرني بسعادة غامرة، لا تناسبها إلّا نشوة البكاء. تقول لي بصوت خافت:- تأخرت ...

- المكان مظلم.

- أحب العمل في إضاءة خافتة هذا مريح للأعصاب.

- الظلام شديد.

- أتخشينَ الظلام؟

- معكَ لا أخشى الدّنيا، بل الدّنيا تخشاني، حبّك يخلق فيّ قوة فريدة، قوة لا يعرفها إلّا العاشقون.

- جسدك بارد، أتشعرين بالبرد؟

- هكذا أنا عندما أغضب يجتاحني إحساس بالبرد.

- حتى وأنت في حضني تشعرين بالبرد؟

تجلسني في مقعدكَ الجلدي، تدثرني بمعطفك الشّتويّ، تقدّم لي قدحاً من الشاي الساخن، تبدأ في عملكَ، تجلس على كرسيكَ الخسبيّ المرتفع، قريباً من قاعدة تمثالكَ، تجعل جزء منه بين فخذيكَ، تشدّ عليه، كي لا يهتزّ ولو قيد أنملة، تتأمّله، ثم تهوي عليه بإزميل ومطرقة حديدية، في كل ضربة تقشط منه رقاقة صخرية رفيعة تتطاير نحو البعيد، عرقكَ يتصبّب، أشعر بدقات قلبكَ وهواجس يديكَ في كلّ ضربة تهوي بها على تمثالكَ، تتوقّف كل بضع لحظات عن

عملكَ، وتطالع أوراق معلّقة بالقرب منكَ، رسم التّمثال فيها، من أكثر من زاوية، تقارن ما بين عملكَ وما بين ما هو مرسوم، نظراتكَ تدلّ على الرّضا، تغمزني بين الفينة والأخرى، تبتسم لي، مؤكداً إحساسكَ بوجودي، أصمت تماماً، وأراقب عملكَ الدقيق بخشوع من يحضر صلاة، أراقب بروز عضلات كتفكَ، واندفاع صدركَ إلى الأمام، يغريني بروز عضلاتكَ بمتابعة حركاتها متابعة دقيقة، تنحني على تمثالكَ كأنّك تنحني نحو امرأة ترجو وصالها، في عينيكَ عشق رائع، عشق لا يعرفه إلّا الفنّان تجاه فنّه، أراهن على أنّك ستحوّل هذا الحجر الأصم إلى تمثال يكاد ينطق لشدّة إتقانه، أرجو أن لا يكون حبّكَ لفنّكَ كبيراً إلى درجة تجعلك ترغب بتحطيمه، كما فعل النحّات القبرصي بجماليون بتمثاله الجميل.

أطالع تلك التعابير المرسومة على وجهكَ، تعابير مخضّبة بالعرق، قسماتكَ صامتة وراضية كما الطفل في حضن أمه، أمّا من يتابع حركة عضلاتكَ، ويتتبّع ملامح جسدكَ، يرى الرجولة ممثّلة بكَ، رجولة موهوبة، تصهر نفسها مع إنتاج فني بديع. أحقاً هذا أنت؟ أحقاً أنا معك؟ أشعر بأنّ هذه اللحظات ليست إلّا حلماً مستحيلاً. أقول لكَ: أنتَ أجمل من أن تكون حقيقة.

تضم كفّي وتقبّله بحنان، كأنّك تريد أن تؤكّد لحواسي التي تدرككَ أنّك حقيقة موجودة، ولست مجرد حلم، تقول لي:- أنت قدري، ولكن على شكل امرأة.

تضمنّي وبحركة سريعة، تنتصب أمامي، وتراقصني بهدوء على أنغام موسيقاكَ التي اخترتها قبل حضوري، أنفاسكَ تلفح عنقي، تميل علي، وتهمس في أذني:- تعشقينني بجنون، أليس كذلك؟ كلماتكَ تذكّرني ببيت شعر أرسلته لكَ مع إحدى ورودي يقول:

إن لم تكن تحبّني فأنا أحبّكَ وإن أحببتكَ فالويل لكَ

تهمس ذاتي: الويل لي منكَ ...

تعود وتهمس لي: لم أعد أرغب بالهرب، أريد أن استسلم، أتعديني بالسلام؟

- أعدك أنّني لن أكون إلّا لكَ، سأهبكَ كلّ ماضي الذي كان وقفاً على انتظاركَ، وحاضري الذي هو بين يديكَ.

- لا أكاد أصدّق أنّك بين يديّ، لا أصدّق أنَ ...

ألامس بيدي فمكَ لأقطع دفق كلماتكَ: لا تذكر اسمي، اسمي هو وجودي معكَ، أنا لا أسمّيكَ بل لا أذكر اسمكَ، أتعرف لمَ.

- لمَ؟

- لأنّ اسمكَ يعني كلّ رجال الدّنيا، أنتَ رجال الدّنيا كلّهم في رجل واحد. لا رجال في دنياي من بعدكَ، عالمي أنتَ، لا أسميكَ لأني أغار من أن تلامس شفاهي حروف اسمكَ وأنا أنطقه.

- حبيبتي (أرتميس) أي قدر بعث بك إليّ؟ !

شمعتكَ تكاد تذوب، ألحظ صـخرتكَ الصـمّاء ترقبنـا، تنتظـركَ كي تحوّلها إلى تمثال جميـل، لا بـد أنهّـا تحسـدني؛ لأنّ يـديكَ تطوّقـان جسدي الثمل بأنفاسكَ.

أسألكَ بفضول: هل ستنحت تمثال لإمرأة؟

- تقول بنبرة عميقة: لا...

- ولِمَ لا؟

- أنا أكره أن أنحت تمثال لجسد امرأة.

- أتكره أجساد النّساء؟

- أنا لا أحبّ إلّا جسد المرأة التي أهواها، هي فقط مـن أشـتهي جسدها، أما غيرها من النّساء، فأجسـادهن سـواء لا تـثير عنـدي أي رغبة.

أشعر بيديكَ تطوقان خصري بقوة أكبر، كأنّك تريد أن تحاصره، أقول لكَ: هل رأيتَ ما أنجزته من تمثالي ؟

- ليس بعد، سنراه سوياً، ولكن بعد الغدّ.

- ما زال في أول مرحلة.

- ماذا ستسمّيه؟ لا بد أن يكون للتمثال اسم.

- سأسميه (إليكَ).

- (إليكَ) ما هذا الاسم الغريب؟

- لأنّ قلبي أهـداني إليـكَ، لأنّ روحـكَ تسـكن جسـدي، لأنّ طيفكَ يلازمنّي أبداً، لأنّ كلّ ما صنعتْ يداي يحـاكي رسـم عينيـكَ، أقول لكَ واستثني البشر: إليكَ.

(١٤)

لأول مرة أدخل دنيا الأحلام، ولا أجدكَ في انتظاري، سألت ماء البحيرة عنكَ، قالت: إنّها لم تستقبلكَ، أزهار اللوتس لم تبتسم لي كعادتها، أوراق الأشجار دنتْ منّي، وهمستْ في أذني، لم أفهم ما قالته، ولكن كلماتها أشعرتني بخوف كبير، عندما داعبت ماء البحيرة أخمص قدمي شعرت ببرودتها، لأوّل مرة أشعر ببرودتها، الماء يغرق جزءاً من غلائل ثوبي الورديّ، أشعر بأنّني عاجزة عن الحراك، تجتاحني رغبة البكاء، صوت أنفاسكَ يقترب منّي، تداعب وجنتيّ، وتدعوني إلى اعتلاء زهرة اللوتس الطافية على وجه الماء، أسرع نحوكَ، تطوقني بذراعيكَ، ورق الغارّ الذي تتوّج رأسكَ به ذابل وحزين، أهمّ بأن أسألكَ عنه، لكنّه سرعان ما يتساقط ذابلاً من إكليلكَ الأخضر، يتطاير بعيداً، تسرقه الرّياح منّي، أفزع من ضياعه من بين يدي، أصرخ، واستيقظ مذهولة من هذا الحلم، بل الكابوس.

لن أتركك وأسافر مرة أخرى، أعاهد نفسي على أنّني لن أفعل ذلك من جديد، كم أشعر بوحدة كبيرة وأنا بعيدة عنكَ، لن أنتظر عودة الجميع إلى المدينة، سأتركهم وأعود في أقرب حافلة، هم يستمتعون بحسن ضيافة عائلة أنس، أمّا أنا فأحترق شوقاً لكَ، الجو عليل والاستضافة كريمة، والطّعام لذيذ، هكذا يقول الجميع أمّا أنا فتجتاح فمي نكهة غريبة تجعلني أجد كل ما آكل مراً صعب الهضم،

كلما جلست إلى الطّعام، جلس طيفكَ إلى جانبي، يرفض أن يأكل، غاضب منّي؛ لأنّني تركتكَ وحيداً في المدينة، أشفق على غضبه وأهجر طعامي.

زفاف أنس انتهى، ولا داعي لوجودي، يستطيع الجميع أن يستمتع هنا بدوني، أمّا أنا فمتعتي الوحيدة هي في القرب منكَ، في ليلة زفافها تمنّيت وجودكَ معي، تمنّيت أن أتأبّط ذراعكَ ولون ثوبها الأبيض يغرق المكان، تمنّيت أن تشاركني في أكل الكعك والمعجّنات، لا بأس فقد احتفظت لك بكل ما قدّم لي من سكاكر، وسنأكلها معاً، فللطعام طعم خاصّ معكَ.

في الحافلة طالعت الساعة لآلاف المرات، عددت الدقائق للوصول إلى المدينة، ندمت لأنّني لم أسألكَ يوماً عن عنوان بيتكَ؟ أصممَ على أنّك تسكن السّماء وترافق الشّمس، أمّا الأرض فعجيب أن تتّخذ فيها مسكناً لكَ كسائر البشر.

لا وقت لكي أعود إلى منزلي وأتهندم، سامحني إن أقبلت عليكَ غير متزيّنة، اعتدت طقوساً خاصّة للقائكَ، أمّا الآن فأشواقي أعنف من طقوسي، أدلف إلى المتحف، أسرع إلى مرسمكَ، الأمتار الأخيرة من الرّدهة أقطعها جرياً كما اعتدت دائماً، أدفع الباب وأهمّ بالدلوف إلى المرسم، لطالما دخلت بهذه الطّريقة، ولطالما طاوعني الباب، أما الآن فيبدو عنيداً لا يشفق على لهفتي ...

أنتَ لست موجوداً، أين تـراكَ تكـون؟ ألم يحـدّثكَ قلبـكَ بـأنّني قادمة؟

ثلاثة أيّام تمضي، وبابكَ مغلق، أشعر بحرج خاصّ كلمـا سـألت زملاءكَ عنكَ، يبتسمون، ويقولون بخبث: لا نعرف شيئاً عـن سـبب إجازته، اسألي عنه في بيته.

أتحمّل خبثهم، وأعاود الاتّصال بكَ مرة تلـو الاخـرى، صـوتكَ لا يتدفّق أبداً عبر الهاتف، كلّ ما أسمعه صوت الخط المبحـوح ينتظـر صوتك بلهفة، أطيـل الانتظـار، أتمَنـى أن أسمـع صـوتكَ، ولكـن لا إجابة، قلبي يحدّثني بأنَ مكروهاً قد أصابكَ.

يا شمس حيـاتي أيـن أنـتَ يـا (هيلـوس)؟ في أي بقـاع الـدّنيا تختفي؟ حبيبتكَ (أرتميس) قد أضناها الانتظار.

عندما قابلت صديقكَ نمر نصّار قال:- إنّـه لا يعـرف أيّ شـيء عنكَ، جلس إلى مكتبه، ودعاني إلى شرب القهـوة، قـرّرت أن أتحمّـل ثقل ظلّه من أجل أن أعرف أي معلومة عنكَ.

حدّثني كعادته عن شعْره المجيد، وعـن موهبتـه الأصـيلة! ! اتهّـم كل من يعرف بالتآمر ضد شعره غيرة من موهبته، كدت أخـبره أكثـر من مـرة أن شـعره سـخيف وموهبتـه خاملـة، لكـنّني أشـفقت علـى غروره. عاد وأهداني ديوان شعر آخر يحمل اسم (سبعة في السّـماء)، كتب لي إهداءً طويلاً في رأس الصّفحة الأولى، لم أعن نفسي بقراءته، فهذا الديوان سيلاقي مصير أخيه السابق، إلى سلّة المهملات.

أتابع كلامه الطويل وهو يتصنّع الرقّة والشاعرية، يدهشني عظم كرشه، وأتساءل عن سبب تلك الهالات السوداء حول عينيه، أتراه ممن يسكرون؟ أم أنه يمضي ليله في أمنّياته وفي نسج شعره المهترئ.

كنت أتناول الطّعام معكَ في مطعم الجبل عندما قابلته لأوّل مرة، سلّم عليكَ بسرعة، كان متلهفاً على إكمال حديثه مع تلك الفتاة ذات الشّعر الاحمر والأهداب الحمراء التي كانت تجالسه بسعادة، عمرها لا يتجاوز الثلاثين، لكن بشرتها الحمراء وشعرها المجعّد يجعلانها تبدو مثل ساحرة شريرة، لا بدّ أنها حمقاء لتقع في حب هذا العاشق المهووس بنفسه.

يومها سخرتَ منه، وقلتَ لي: هو دائماً عاشق، بصراحة هو يحبّ أن يكون عاشقاً، ولو لعجوز شمطاء.

في ما بعد أصبحت أراه وحيداً، قال بإنَ المرأة الحمراء سافرت، وستعود عما قريب، لكنّها لم تعد أبداً، عيناه تقدَمان عروضاً بشكل مستمرَ لعلاقة محتملة، أكرهه، هو، يعرف ذلك، لذلك يتجنبكَ عندما أكون معكَ، يتقن كلمات الغزل التي يحفظ معظمها من كتب الشّعر القديمة، لذا يستطيع أن ينال إعجاب شرف وهو يغرقها بكلمات إعجابه.

يسألني عن شرف، أجيبه عنها باقتضاب، أتخيّل كم هو مناسب لها، ستعشق نقوده بشكل كبير، وستقدّم جسدها رخيصاً مقابل أمواله، وهو مستعد دائماً للدفع وبكل سخاء.

أرغب في أن أتقيّأ عليه، أنتصب واقفة بمجرد أن أحصل على عنوأنّك منه مكتوب على قصاصة ورق صفراء، أشكره كارهة وابتعد، يصلني صوته الأجشّ ليتعالى خواره ويقول: لا تنس أن تنقلي تحياتي للست شرف.

أنتَ في البيت، قلبي يحدّثني بذلك، لا بدّ أنّك مريض، لذلك تخفي ضعفكَ عني، لا تقبل صدقة من أحد، تفضل الموت على أن تضعف، تقبل العشق، وترفض أن تخالطه الشفقة، أتذكّر تلك المتسوّلة التي كانت تلحّ عليك بالصّدقة، كنت تساعدها بالنقود، وتتقزّز من دعائها الذي تقدّمه ثمناً لصدقتكَ، أنت ترفض العطايا ولو كانتْ مجرد دعوات تقليدية.

كنت متأكدة من أن هذه الطّريق تؤدي إلى بيتكَ، كلما سرت فيه راودني شعور بقربي منكَ، أقطع الطّريق سريعاً، عندما أقف أمام بيتكَ الغارق بين شجر السّرّو، أشعر بتعب في قدمي، الطّريق طويلة، أتساءل عن سبب عزوفي عن استقلال سيارة أجرة! لقد نسيت أن أفعل، أشواقي كانتْ أعظم من أن أتذكّر نفسي، أتأمّل بابكَ، آخذ نفساً عميقاً، أخرج المرآة الذّهبيّة، أتفقد زينتي، يعبق جسدي برائحة عطري، اسمه (الخطيئة) أنت من أهداني إياه، أنقط المزيد منه على جسدي.

أقرع الباب، أحضّر كلماتي، سأعتذر عن غيابي، سأعدكَ بعدم السّفر ثانية، لا تتوقع حضوري، أعلم ذلك، فلقد قطعت إجازتي كي أراكَ، وجهكَ شاحب، لا بأس، فأنا أحب الوجوه الشاحبة،

سأضمّكَ، سأتوّجكَ ملكاً، سأقوم على خدمتكَ، وسأسهر الليّل قريباً من سريركَ.

أعاود قرع الباب، لا بدّ أنّك تسير متعباً نحو الباب، ستفرحك طرافة هديتي، هذه السلّة القشيّة المكلّلة بالزّهور، والمغلّفة بالورق البلاستيكي الشفاف، جمعت لك فيها جميع أنواع الفواكه التي يعرفها بشر هذه المدينة، من كل نوع اشتريت لكَ حبة واحدة، حبة ناضجة ولذيذة، أحببت أن أهدي لكَ بساتين الدّنيا، فاخترت لكَ أفضل ما أنتجتْ، كلّ حبّة تلمع مزهوّة بقشرتها الملونة ورائحتها الزكية.

الباب يفتح، أنتظر وجهكَ، ابتسم للقائه، يطالعني وجه شرف بشعرها الجميل ونمشها البنيّ، كلّ سمّ الدّنيا يقذف في عروقي، أشعر بأنَ قلبي قد سقط أرضاً، لا أبالي به، أرغب في سحقه في هذه اللّحظة، ترمقني بدهشة كما لو أنّها رأتْ شبحاً، تدعوني بإشارة منها إلى الدّخول، أسبق خطواتها نحو الدّاخل، لا ألتفت نحوها أبداً، أسمع صوتها من خلفي يقول باضطراب:- كان مريضاً، كاد يموت من الحمى، كان محتاجاً إلى معونتي، لقد ردد اسمك طويلاً في مرضه.

أدلف إلى غرفتكَ، رائحة عطرها تملأ المكان، اللعنة عليها، تتمدّد كمارد على السّرّير، تتدثر بالسميك من الدثار، تلك الأدوية التي تزدحم بها طاولة عند رأسكَ تدلّ على أن الطبيب قد زاركَ أكثر من مرة، أجثو على الأرض بالقرب من رأسكَ، أبعد تلك المنشفة المبللة عن جبهتكَ، أقبّلكَ بهدوء، أتذوق طعم عرقكَ، تفتح عينيكَ، تغلقهما، ثم تعاود فتحهما للتأكّد من وجودي، تضطرب، تحاول أن

تتحرّك، أمنعكَ بقبلاتي، أضمّ يدك إلى صدري، أقبّلها كأنّني أطلب مغفرتكَ، أسمع صوتكَ الضعيف يقول لي: ها قد عدت ... طوال الليّل رأيتك في أحلامي، كنت ساحرة الجمال كما أنت دائماً، طلبت منك أن تقبّليني، رفضت، أحزنني ذلك.

يستقبل تجويف فمكَ دمعةً فرّت سريعاً من عيني، أدفن رأسي في صدركَ بعد أن أغرقته بقبلاتي.

وتداعب شعري بضعف وتقول:- جسدك بارد ...

أشعر بنظرات شرف تلهب ظهري، أي الأفكار تراودها الآن؟

أفتح نافذة غرفتكَ كي تتبخر رائحة شرف من المكان، أطالع السّرّير حيث تنام، لا أثر يدلّ على أن أحداً قد شاركك إيّاه، أين ذهبتْ؟

أجدها في المطبخ تعدّ الطّعام، أرمقها بنظرة قاسية، لا تنقصها الوقاحة كي تبادلني بمثلها، تعبث بالأدوات كأنّها في بيتها، أدنو منها، قامتي أطول بقليل من قامتها، أرغب في أن أشمّها، لأتأكد أن رائحتكَ لا تسكنها، أخاطبها بنزق:- لا تلمسي طعامه، سأحضّره أنا. ترمقني بنظرات تحمل وعيداً مخيفاً، وتعاود عملها.

أغادر المطبخ، وأعود إليكَ، تبهركَ سلة الفواكه، تهزّ رأسكَ مستغرباً من هذه الهدية الطريفة، أقشّر لك موزة كبيرة، تأكلها بجوع واضح، صوت باب البيت يغلق بقوة، لا بدّ أنها خرجت غاضبة، لا بأس، لتذهب إلى الجحيم. تبتسم لي، تسألني ببراءة الأطفال:- ماذا ستطهين لنا؟ أنا جائع ...

(١٥)

- ما بالكَ؟ لِمَ تحدّق بي هكذا؟ هل تسمع ما أقول؟

- كل كلمة..

- إذن.. ما هي آخر كلمة قلتها؟

تحدّق بي، ثم تحدّق بالبطاقة الملوّنة التي قدّمتها لـك بمعيّـة طاقـة الورود التي طلبتَ أن اقرأها لـكَ بصـوتي، للكلمـات معنـىً خـاصّ عندما يقرأها من كتبها، هكذا أخبرتّني دائمـاً. تـدنو قلـيلاً منّـي، ثـم تقول بصوت عميق كالشّتاء:-

اعتيادي على غيابكَ صعب   واعتيادي على حضورك أصعب

تبتسم ابتسامة من هزمنّي بيقظته، تقول لي بلغتـك الآمـرة الـتي أعشق سلطتها عليّ، أكملي...

سريعاً استجيب لأمركَ:-

كـم أنـا كـم أنـا أحـبّكَ.. حتى   أنّ نفسي مـن نفسـها تتعـجّب

يسـكن الشّـعر حـدائق عينيـكَ   فلولا عيـنيكَ لا شـعر يكتـب

منذ أحببتكَ الشـموس استدارتْ   والسماوات صرن أنقى وأرحب

منذ أن أحببتكَ ... البحـار جميعـاً   أصبحتْ من مياه عينيكَ تشـرب

أتـمنّى ... لو كنـتَ بؤبـؤ عيـني   أتراني طلبت مـا لـم يطلـب؟

انـت أحـلى خرافـة في حيـاتي   والذي يتبـع الخرافـات يتـعب

- أنت خرافتي..

- حقاً؟ !

أبتسم لكَ، أشعر بـأنَ ينابيعـاً مـن المـاء الحـار تتفجّـر في قلـبي، تداعب كلماتكَ روحي، أضع البطاقة قريباً مـن زهريـة الـورود الـتي أداعبها، وأغيّر تنسيق ورودها، أستطيع أن ألمح نظرة عينيكَ تعصـران ذاتي ...

تتناول البطاقة، تقرأ بعض ما كتب فيها بصوت عال، ثـم تقـول بنبرة مستغربة:- هل أنت من نظم هذه القصيدة؟ .

- أنا عاشقة، ولست شاعرة.

- إذن من نظمها؟

- أعجبتكَ؟

- جداً.

- هي لنـزار قباني..

تصمت، تبتسم بفتور، ثم تقول:- هي لـنـزار قبـاني إذن، نـزار قباني يرسم في قصائده نوعاً خاصّاً من النّساء، نوعاً واحداً يحلـم بـه، نوعاً مجنوناً فاتناً مخلصاً مدمّراً، نوعاً استثنائيّاً من النّساء، كلمـا قـرأت شيئاً من أشعاره شعرت بأنه يبحث عنك، يبحث عنك من دون نسـاء الدّنيا، كلّ كلماته تخصّك دون غيرك، لو كتب له أن يلقـاك، فسـوف يصاب بـالجنون إثـر فـزع شـديد مـن تجسّـد خيالاتـه أمامـه، أو أنـه سيعشقك بجنون، أشعر بأنه يكتب لك بالـذّات، وينشـر قصـائده مـن

أجل أن تقرئيها، هو يراسلك، ولكن بشكل علني، لا يخشى أحد، لا يهمه رأي أحد مثلك تماماً، مسكين نزار سيموت دون أن يعلم أنّني وجدت كنزه المسحور.

- أنا لم أخلق إلّا من أجلكَ، خلقت كي أناسبكَ تماماً، في عيني أنتَ رجال الدّنيا، وغيركَ لا أرى.

بمقدار صدق كلماتي، تلمع في عينيكَ تلك النّظرة الساخرة المبلّلة لسبب ما بدمعة عتيقة، لطالما تساءلت إن كانت هذه هي الوصفة التي يحتاجها الإنسان ليخلق في داخله الحب. تداعب يداكَ عنقي وبعض خصل شعري، بل تداعب تلك الندبة التي تجرح بصمت أنوثتي، تعاملها بحب وعطف يؤكّدان لها ضآلتها أمام حبّك لي. تهمس في أذني: عيناك متعبة.. إلّا تنامين؟

- كلا , أعمل لوقت طويل في بعض الرسومات التحضيرية لبعض التّماثيل، وعملي الصّباحي في المرسم يستهلك كثيراً من طاقتي.

- وتجدين بعد ذلك الوقت لمساعدتي في مرسمي، وفي تنسيق أوراق ملتقى النّحت وتقرئين جميع أبحاثي وتناقشيني فيها؟ !

- أحفظ كلَ كلمة كتبتها، ضاع علي الكثير من حياتكَ قبل أن أقابلك، أحاول المستحيل لكي أعوّض لكلينا ما ضاع قبل لقائنا.

- حبيبتي، أنت ما تزالين بعمر زهرة الياسمين!

- أنا أنتظركَ من ألف عام، كم مرة سأخبركَ بذلك.

- لن تعملي معي بعد الآن، سترتاحين، وتنامين بالقدر الذي يحتاجه البشر.

أحدّق بكَ، ليتكَ تعلم أنّني لا أعرف معنى نوم البشر، حتى نومي صادره حبكَ، أحلامي حكر عليكَ، يهرب نهاري ليبعث بي إلى ليل هو ملك لك، لا يمكن أن تحرمنّي من متعة حفظ كلَ كلمة كتبتها:- أرجوك , لا تحرمنّي من العمل معكَ، أستطيع أن أعمل أضعاف ما أعمل.

- من أين يأتي جسدك الصّغير بكلَ هذه الطاقة؟ أي الأفكار يملك عقلك ليفجّر طاقته، ويعملَ قدراته؟ !

- حبّكَ جعلني امرأة مستحيلة، لطالما كنت فتاة مجتهدة ونشيطة لكن عادية، عندما عرفتكَ أصبحت أملك من الحواس أكثر مما يملك البشر، طاقتي معك تصبح مهولة، أصبحت امرأة مميزة، أتعرف ما الذي جعلني مميزة؟ نعم عشقكَ، عندما يتعلّق الموضوع بكَ، فأنا أملك آلاف المواهب والطرق والأفكار، عندما تنبت صورتكَ في أي جماد، فإنه ينبض بالحياة، عندما تلفحني أنفاسكَ أصبح قادرةً على الإنجاز والإبداع والتميّز، كلماتكَ تنفث في داخلي سحراً ملعوناً ينقلب على صاحبه ليدمّره، ولكنّني أعشق الموت على يديكَ.

- أيّتها الصّغيرة المجنونة، ارفقي بقلبي، أعطي مداركي وقتاً أطول لكي تستطيع أن تستوعب هوسك، هبيني شيئاً من الوقت لأحتفل بلقياك كما يليق بك يا قمري الذي هبط من عليائه من أجلي أنا بالذّات، اعشقيني بشكل أقل، حبّك يقتات عمري.

-ليتني أستطيع أن أفعل، لكنّني لا أملك زمام عشقي، هكـذا أنـا عندما أحبّ أكون عشق نساء الدّنيا، أو يكون إيّاي هذا العشق.

الوقت معكَ يمضي سريعاً، أمتأكد يا حبيبي مـن أنّ الـزّمن علـى كوكب الأرض يسير بنفس السّرّعة؟ أشكّ بذلك، وإلّا فكيف ينقضي الوقت معكَ بهذه السّرّعة، ليتَ الزّمن يصـاب بالشـلل وأنـا معـكَ، وأبقى في دفء حضنكَ إلى الأبد، بل ما أسعدني لو بعثت يوم القيامة على هذه الهيئة.

انقضى الوقت معـكَ سـريعاً، انقضـى مـن دون أن أخـبركَ بمـا حدث، حسن أنّه انتهى، أخشـى أن أرى صـفو وجهـكَ يتكـدّر عنـد سماع تلك الكلمات عن ذلك الشّخص، لطالما شعرت بأنّك تكرهـه، أمّا عندما أحدّثكَ عن وقاحته فسوف تكرهه بلا شكّ، بل ستغضـب، أخشى أن أتوقع غضبكَ، أكره غضبكَ الذي يشبه ثورة مجنونة تضرب البحر والشاطئ بغضب غير متناه.

دع خيالات غضبكَ ترحل عـن مخـيلتي؛ لأعـرف سـبب وجـود كاظم هنا، أمام الباب الخلفـي للمرسـم، يبـدو متأنّقـاً، شـعره داكـن السواد إلى درجة اللمعان، لحيته المهذبة بشكل جيد تـوحي بصـرامته الشديدة. اقترب منه:

- تحية كاظم، ماذا تفعل هنا؟

- أنتظر فضيلة، اتفقنا على أن أمرّ لأصطحبها من أمام المرسـم، لكنّها تأخرت.

- سأذكّرها بموعدك.

- حسناً، لكن استعجليها ... أرجوك.

في عيني كاظم أنّكار غريب، لم أعد ألمح تلك النّظرة البهيمية التي كانت تسكن عينيه، تلك النّظرة التي تستبيح جسد أيَ امرأة دون استئذان، تلك النّظرة التي لا تعرف الولاء لامرأة معينة، في عينيه سكينة واضحة، أيَ مجهول قد سكن نفسه؟

- كاظم أحقاً أنتَ تحبّ فضيلة؟

- وحقّ عيني أحبها، زود عن عيوني أحبّها.

- منذ متى تحبّها؟

- منذ أن وقعت عيناي عليها، أحببتها من النّظرة الأولى. أتؤمنّين بالحبَ من أول نظرة؟

- أؤمن بالحب أياً كان ظرفه.

- الله يعلم أنَ حبّ فضيلة أعاد الحياة إلى قلبي.

- حافظ على فضيلة، فضيلة تحبّكَ، هي من عائلة طيّبة، لا تكسر قلبها.

- فضيلة أغلى من عمري، هي السعادة الوحيدة في حياتي.

لا أجد فضيلة في المرسم، لعلّها غادرته من الباب الأمامي، لا بأس، سألقي نظرة على الطابق السفلي من المرسم، لا أسمع غير صوت قرعات حذائي على البلاط البارد، أعبر الباب السفلي، أجتاز

أفران الفخّار، حجمها كبير، ولونها الداكن يخيفني، يذكرني بالبارحة، يذكرني بعيسى.

البارحة كان يوماً عادياً، العمل طال، أصبح المكان موحشاً بعد أن غطى كلّ طالب عمله بغلاف بلاستيكي، وغادر المكان، بقيت وحيدةً، أصبح المكان موحشاً، أنا لا أخاف الوحدة، لكن عندما أبقى وحيدة مع صمت عيسى فأنا أخشاها.

طوال نصف ساعة لم يصدر أيّ صوت، كان هادئاً كالقبر، لدرجة أنّ فضولي دفعني أكثر من مرة إلى أن أنظر إلى وجهه بصمت لأتأكّد من أنّه ما زال يعمل، ولم يغادر المكان، كان ينعم النظر في عمله، عمله ضخم وجميل، عندما يخفض رأسه نحو قاعدة التّمثال تلاصق لحيته الكثيفة الصلصال، أعجب كم هو هادئ وهو يعمل!! سكينة غريبة تسكن وجهه، ذلك النّور الخفي يشعّ من قسماته، يداه تداعبان عمله بألفة مؤثّرة، أستطيع أن أحكم على أن يديه يدا فنان، لأكثر من مرة يترك المرسم، ويتجه نحو الأفران، ما تراه يفعل هناك؟ أهو منزعج من وجودي؟ حركاته وانفعالاته محايدة تماماً لا أستطيع أن أستنبط منها أيَ انطباع، كلما غاب في الدّاخل، استرقت النظر إلى تمثاله الضخم.

ما أجمل عمله! التّمثال من الصلصال الجيد، ليته أنجزه من الصّخر أو الرّخام، لكنّه لا يحتمل أن يكون قاسياً إلى درجة تسمح له بتهشيم الصّخر، وخلق أجساد من الصلد الأصم، يشعر بأن إزميله يؤلم الصّخر الصّامت، وهو يكره التعذيب، يكرهه بعمق، يستطيع أن

يتعامل مع الصلصال الذي يتشكل بهدوء وبطواعية كأنه سعيد بمصيره، لا يحتاج إلى مطرقة وإزميل بل يطاوع الأيدي الفنّانة التي تحسن مداعبته، هكذا قال لجبر قبل أسابيع، لقد سمعت حوارهما من غير قصد.

الصلصال يحبّ عيسى، دقة تصنيع التّمثال تؤكّد ذلك، تمثال يجسّد امرأة فلسطينية بثوبها الداكن، ذي النقوش المهترئة، الثوب طويل ، لكنّه لا يخفي قدميها الحافيتين، التقرحات والجروح واضحة فيهما، بضعة حجار تدوسها بقدميها. إلى جانب قدمها اليسرى حمامة مسجّاة وقد دقّ عنقها التي تظهر ملويّة نحو جسدها، والجناحان مكسوران. المرأة الفلسطينية تتقلّد سلاسل حديدية تحني ظهرها المتعب، أثار الغضب والنصب في وجه المرأة، ضفيرتا شعرها تبرزان من تحت غطاء رأسها الطويل، تقبض في يدها اليمنى على حجر كبير، تقبض عليه بقوة تبرز عروق يدها الدامية التي تنزف بشدّة، في كفّ يدها اليسرى تحتضن كفّ طفلها الصّغير، تعبيرات وجهه غير ظاهرة، لأنَ رأسه مائل إلى أسفل وهو يلتقط حجراً من الأرض تماماً من جانب الحمامة المقتولة.

ياله من تمثال مدهش! ما زال يحتاج إلى بعض العمل، لكن الرّوح تسكنه من الآن، لن استغرب إن طفقت المرأة وابنها يتحركان هنا وهناك، ويشرعان يرجمان حجارتهما في وجه العدوّ وفي وجه ذلك الصمت العربيّ.

يعود عيسى وهـو يحمـل غطـاءً بلاسـتيكياً كـبيراً، يغطـي تمثالـه باهتمام، وبقطعة قماش مبللة يمسح مـا حولـه، فهـو يخشـى أن يمـسّ التّمثال أيّ كمية من الجبص الذي يستعمله الطّلبة في بعـض أعمـالهم الفنيّة، فالكثافة النوعية للجبص أكبر من الكثافة النوعيـة للصلصـال، وإذا اختلط الجبص بالصلصال، فإنّ تمدّد الأول أكثر من الثّـاني عنـد تعريضهما إلى حرارة الفرن الحراري، فيكون مصير القطعـة الفنيّـة أن تتهشم بسبب هذا الفرق في الكثافة النوعية للمواد المشكّلة لـه والمـواد الدخيلة عليه.

يعود ويتأكد من ضبط حرارة المرسم من ميزان الحـرارة الخـاصّ بمكيّف الصالة، فهذا التّمثال وغيره من الأعمال الصلصآليّة يحتاج إلى درجة حرارة منخفضة مـا دام لم يتعـرّض إلى عمليـة الشـيّ في الفـرن الحراري. يكشف عن جزء من تمثاله يطالعـه، ثـم يعـود إلى الـدّاخل، ليختفي هناك مرة أخرى.

الأفران هي كـلَ مـا في المكـان، الآن هـي بـاردة كـالثلج، كلمـا تذكرت حرارتها شعرت بخوف شديد، أتحسّس باب الفرن، هناك ألمح عيسى، يحدّق بي بنظرات متوقّعة حضوري، أتوقع أن يخطو خطوة أو خطوتين نحوي، لكنّه لا يفعل بل يلزم مكانه، أنتظر كلماته، لا بد أنـه سيقول شيئاً، لكنّه لا يفعل، لماذا أتيت هنا؟ أشعر بالإحراج، أقول لـه بتلعثم:- قلقت لأنّـك تـأخّرتَ في الـدّاخل، لـذا أحببـت أن أتأكـدَ من...

يقاطعني، ويقول بنبرة واثقة:- أنا أعشقك.. تزوّجيني ... تزوّجيني الليّلة، وغداً نعود إلى فلسطين، سننجب عشرة أبناء، سنربّيهم على حب الوطن، سنقدمهم للوطن، ستحبّك أمي وسأحبّك دائماً.

أتأمّل وجهه بقلق، أكاد أسأله إن كان يمازحني، قسماته تقول إنّه جاد في كلّ كلمة يقولها، يبدو مرتاحاً؛ لأنّه قال كلماته التي يبدو أنّه كررها في قلبه مراراً، عزمه يعجبني، خطته رائعة، تحتاج الأمّة إلى آلاف الخطط المشابهة لها، لو قابلته في ظروف أخرى لأسعدني أن أنفّذها معه، امرأة بمثل جنوني وطموحي ستستهويها مثل هذه الخطة، أمّا الآن فقدري أقوى منّي، أنا لا أريد عشرة أبناء، أنا أريد أحلام، أريدها من صلب حبيبي، أريدها تشبهه تماماً، أريدها تحمل سحره وعطفه وتحمل كلّ عشقي.

عيناه تنتظر إجابتي، تنتظرها لتحلّق بها:- لا أستطيع ...

- أنا أعشقك.

- لا أستطيع.

- تحبّينه إذن؟

أصمت، أراقب أوعية عينيه، تتسع ويتدفق الاحمرار فيها بشدة، يدنو منّي خطوتين، يهزّ رأسه، ويكرّر بحرج:- تحبّينَه إذن؟ ... هو لا يستحق حبّك، لا تدعي سحر عينيه يخدعك، تاريخ عشقه طويل، النّساء يدخلنَ تاريخه فقط كي يقيدن أسماءهنّ فيه، إيَاك أن تصدّقي

وطنيته المزعومة، وطنيّته تبخّرت منذ أول ليلة أعتقل فيها، صدقيني، عودي معي إلى الوطن، واحذفيه من تاريخ حياتك ...

- لا أستطيع.

- أنا أعشقك.

كلماته تزعجني، أتمنّى أن ألكمه، كيف يفكر في امتلاكي؟ أنا ملك لمن أحب، ومن أحب ملك لي، لن أسامحه على اعتدائه على حق من أحبّ في إخلاصي، وطنيته لا أعرف عنها شيئاً، السجن لا أعرف عنه شيئاً، لكنّني أعشقه، وأعرف عن عشقه كلّ شيء.

- أنا أعشقك ...

- أنا أعشقه ...

كلماتي تسقط كالنار يصبّ على رأسه، يشتاط غضباً، يدنو منّي خطوتين، يوزّع نظراته بيني وبين الفرن، للحظة شعرت بأنّه سيدفع بي إلى داخل الفرن ليحولني في دقائق إلى غبار، كلّ ما أحتاجه هو دقائق حتى أتبخّر داخل هذا الفرن، لا يهمنّي ليدفعني إلى الموت، لا أبالي به وأنا أحمل عشقي معي، أكرر كلماتي:- أنا أعشقه.

- عاهرة! !

هل قال لي عاهرة؟ نعم قالها، أيصوّر حبي لكَ بالعهر؟ ألا يعني العهر مئات العلاقات ومئات الرجال؟ ألا يعني جسداً لكلّ من يدفع له؟ أنعتني بالعاهرة؟ ! غبي، هو لا يعرف شيئاً عن ذلك العشق الرّوحي الذي يدوم إلى الأبد، يطوف حول الجسد، ويسكنه لكنّه لا

يدنّسه أبداً، هذا العشق يعرفه فقط من انتظره دهراً كاملاً، عشقي هو الدّنيا بأكملها، وبعده لا أبالي.

أشعر بهدير من الدموع يجتاحني، أتمالك نفسي، لا يمكن أن أسمح له برؤية دموعي، أنا أؤمن بأنّ المرأة لا تبكي إلّا أمام من تحبّ، وهو ليس من أحبّ، لن أهبه شيئاً من دموعي، أحدّق في لحيته، عيناه تقول: إنّها رأت اتهاماً في عيني. يضطرب، بعض شعيرات لحيته تهتزّ بسرعة، يكاد يقول شيئاً، ولكنّني أتبرّم بشكل خاصّ، أخطو خطوة إلى الخارج، أشعر بكبرياء غريب يسكن ذاتي، لا تغادر أذني كلمته الجليلة! ! أشعر بأنّها شهادة شاذة بأنّني عاشقة لكَ، أبداً لكَ، إن كان عشقي لا يؤكّد إلّا بمثل هذه الشهادات الشاذة فليكن، في سبيل حبّكَ أستطيع أن أقامر بحياتي، ولا أبالي إن خسرتها. أصعد الدرج سريعاً، لا أسمع صوت خطواته، لا بد أنهّ يشيعني بعينيه من دون حراك! قال لي عاهرة أليس كذلك؟ غبي ...

البارحة حدث كلّ هذا، الآن لا أجد فضيلة، ولا أجده كذلك، تبحث عيناي عنه، توقعت أن أسمعه يعتذر لي، لكن كيف سيعتذر لي وهو غير موجود؟

حتى وإن كان موجوداً لا يعنيني اعتذاره؛ لأنّه غبي، ما يعنيني هو تمثالي الوليد، عملت به لساعة، أعجبني هدوء المرسم هذا اليوم، لكن ما سبب غياب معظم من أعرف، يحدّثني قلبي عن حدوث مكروه، المهم أنهّ حديث بعيد عنكَ، إن كنتَ في خير، فالدّنيا كلّها في خير.

عاد الوقت ببطء كعادته، انتظرت هـذا الصّباح لأقابلـكَ لـيس مثل عاشقة، بل مثل إنسـانة تناشـد إنسـانيتك، أردت أن أقـول لـك: أحتاج إلى مساعدتك، حتى وأنت في خير، فهناك كثير من البشر يجـب أن يعنيني أمرهم.

أثق تماماً في أنّك ستقدّم المساعدة، بل ستقدّم أكثر مما هـو متوقـع منكَ، أعرف أنّك تملك نفساً قادرة على العطاء وبسعادة.

طوال الطّريق استعدت ما حدث البارحة، حدّثت السّنديان عـن عيسى فأجابتني: إنّها تعرفه، وتعرف كم يحبّ وطنه، هي كذلك تحـبّ الوطن، ولكنّها لا تحدث الرّيح بـذلك؛ لأنّهـا تخشـى السـوط، الكـلّ يخشى السوط، إلّا عيسى لا يمكن أن يخشى السـوط؛ لأنّـه خلـق كـي يخشى، هكذا هم أصحاب الحقّ يخشون ولا يخشون، أتذكّر الآن نظرة عينيه، أراها تسخر من العدو، وتبزق في وجهه المشـوّه بقـرف، أتخيّـل (كفيّته) الفلسطينية تتمزّق تحت ضربات السوط، أمّا كبريـاء وإصـرار عيسى فلا يتمزقـان أبـداً، بـل يتجـددان، كطـائر الفنيـق في النـار ولا يحترق. أتعرف يا حبيبي ما هو طائر الفنيق؟ هـو طـائر مقـدّس عبـده الفنيقيون؛ عبدوه لأنّه رمز للحياة والتجدّد، كلما قهره الزمـان أحـرق نفسه، فجدّد بذلك حياته، وعاد إلى قوته وشبابه.

نورما ومجموعة من الأصدقاء ذهبوا ليجدوا العون لعيسـى، أنـا قادمة نحوك لتكون في عونه أيضاً، صدّقني أنّني غفرت له كلمته، أظنّـه قد غفر لي عدم حبي؛ لأنّه يملك في قلبه حبـاً عظيمـا , ً حـبّ الـوطن سيعوضه عني، لو كانتْ نورما معي لرأيت هدوءها يتحـول إلى نـيران

من الغضب، مأساة الشعب الفلسطيني تحاكي مأساة شعبها، لا تنفعل إلّا عندما تتكلم عن الشعب الأرمنّي، وما لحق به من إبادة بشعة على يد الأتراك، تحفظ تاريخ شعبها بطريقة تشبه التقديس.

عام ١٩١٤ تاريخ محفور في ذاكرة الوجدان الأرمنّي وفي وجدان نورما, هذا اليوم هو تاريخ مذبحة بشعة ضاع ضحيتها آلاف الأرمن في مذبحة جماعية أعدّت لهم في وطنهم، تؤمن بقضية شعبها، تقدّس تاريخه وتراثه، ترطن من وقت إلى آخر بكلمات من لغتها التي درستها قراءة وكتابة في طفولتها، لا تنوي أبداً أن تنسى ماضيها، تكرّر دون ملل نفس الجمل، ونفس الأحداث التي بتّ أحفظها. ما أجمل وطنيتها المخلصة لقضيتها أبداً! كلّما حدّثت أمّها بالهاتف برطنها العذب، استعدت في ذهني قصّة شعبها، قصّة حزينة تشبه كلّ قصص الشعوب المستعبدة، عندما يتعلّق الأمر بالشعوب المستضعفة فإنّها أوّل من يغضب، وأوّل من يقدّم الدعم، وطنيتها لها حسّ قوي يشبه حسّ عيسى، لأوّل مرة أراها متحمّسة له، بل لقضيته، بعد أن قرّرت الانضمام إلى الاعتصام الذي يدعو له اتحاد الطّلبة احتجاجاً على اعتقال بعض الطّلبة لأسباب سياسية غير معروفة، ومنهم عيسى، أنا سأنضمّ إلى هذا الاعتصام لكن بعد أن أراكَ.

رائحة القهوة أوّل ما يستقبلني في أوّل الرّدهة، أسمع صوتكَ تتكلم، بل تقرأ الشّعر، تقول بنبرتكَ المتهدّلة.

فراشـــة قالـــت لأخـــت لهـــا: ما أبهج الكونَ ومـا أسـنى!

لكـــنّني يـــا أخـــت في حـــيرة من أمره سرعانَ ما يفنـى! !

رفيقـــة العمـــر لنـــا يومنـــا فلنجن من نعمـاه مـا يجنـى

لا تسـألي عـــن غـــدنا ربّمـــا أيقظت من أشباحه الوسـنى

أكاد أدلف إلى مرسمكَ، وأقول لكَ:- الله ما أجمل الكون معكَ، ولكنّه سرعان ما يفنى!

لكن صوتها يتعالى، تقول بنبرتها المصطنعة:- يـا لهـا مـن فراشـة حمقاء! لا تدرك حقيقة الأعمار.

شرف كم أنت جاهلة! كدت أغضب من وجودك، لكـن فكـرك الضحل هو أكبر عقاب لمن أحبّ، عاقبيه أكثـر، ودعـي لغـة الفـراش لقلـوب تعـرف العشـق، وتعـرف قيمـة الحيـاة. لا تبـدين سـعيدة بحضوري، أجلس دون دعوة، تبدو مرتبكاً، لمَ ذلك يـا حبيبي؟ ألأنـي طلبت منكَ الحديث على انفراد؟ لا بأس هي تبدو وقحـة ولا تفهـم مغزى ما أريد، أحدّق بها وهي تشرب القهوة بتؤدة مقصودة، أتحـاول أن تغيظني بسلوكها؟ أراقب يديها ترقّصان فنجان القهـوة، وتتنـزلانه بيد ثابتة، كيف تستطيع يداها أن تملكـا هـذا الثبـات وهـي معـكَ؟ لم أشرب القهوة معكَ ولو لمرة واحدة، دون أن ترتجف يداي، وتسـكبان مما تحملان على ملابسي، لا يحتمل جسدي فرحة لقائكَ، كـلّ عضـو

به يعبّر عن رعشة سعادته ونشوته، حتـى الآن لا زلـت أملـك تلـك الرّعشة في كلَ جسدي، أنتَ فقـط مـن كـان يلاحـظ هـذه الرعشـة، ويعرف تماماً سببها؛ لأنّها تخصكَ أنت بالذّات.

متى قصصت شعرك؟ لَمَ هو قصير إلى هـذا الحـد؟ أتـوق لتأمّـل جسدك من دون أن يستر شعرك بعضاً منه. تغادر بعد أن تطلبَ منهـا المغادرة، تبدو ممتعضة لذلك، أحـدّق في ردفيهـا، أتراهـا تعلـم أنهمـا كبيران إلى درجـة التغـوّل؟ كيـف تسـتطيع أن تحملـهما؟ إلّـا يـثقلان عليها؟

- يبدو أنّها تحتاج إلى مساعدتي في بعض الأمور. تقول لي.

- حقاً!؟ في ما؟

- دعينا من الحديث عنها، وقولي لي كيف حالك؟ وجهـك مـا زال متعباً.

- أحتاج إلى مساعدتكَ.

- تحتاجين إلى مساعدتي!

- هناك من يحتاج إلى مساعدتك؟

- من؟

- عيسى ... يحتاج إلى مساعدتنا جميعاً.

- عيسى العرب؟ ما باله.

- البارحة قبض عليه، المخابرات تقول إنّ له نشـاطات سياسـية تخريبية.

- وهل له حقاً مثل هذه النّشاطات؟

- بالتّأكيد لا، كلّ ما فعله هو كتابة مقالة في الصـحيفة اليوميـة، يطالب فيهـا بتحريـر المـواطن العربـيّ مـن قيـوده ليسـتطيع أن يقـوم بواجبه في الدفاع عن الأراضي العربيّة المحتلة.

- فسجنته الدولة لذلك، وَعد مخرباً، وطويل لسان.

- بالضبط.

- ولا بد أن الدولة ستقطع لسانه.

- لن نسمح لها بذلك.

- من أنتم؟

- جميع الأصدقاء، أنا، الطّلبة، أنتَ ...

- لم أفهم، ما هو المطلوب منّي؟

- الدولة سترّحله إلى فلسطين، وتحرمه من منحته، المحامي يقـول إنهّ قد يجد له مخرجاً إذا وجدنا له كفيلاً مناسباً.

- ليكفله أصدقاؤه.

- رئيس المخابرات اشترط أحداً من الأكاديميّة، أكاديمياً أو إدارياً لكي يكون عمله كفيلاً لكليهما.

- والمطلوب؟

- واضـح، يجـب أن تكفلـه، كفالتـك سـتكون مقبولـة، وقريبـاً سينهي دراسته، ويغادر البلاد إلى بلد عربـي أكثـر حريّـة وأكثـر ولاءً لقضيته، كلّ الشعوب العربيّة تضرب بالسوط، وتصمت ثم تصـمت، وتنسى قضيتها.

- المهم، قال الطّلبة: إنّهم سيبحثون عن شخص يتطـوع بكفالـة عيسى، قلت لهم لا داعي لذلك، أنتَ ستفعل ذلك.

- هل يعلم الكلّ أنّك ستطلبين منّي ذلك؟

- نعم.

- هل يعرفون أنّك تطلبين ذلك منّي الآن؟

- نعم.

- مجنونة، مـن هـذا الـذي تريـدين أن أكفلـه، أنـا رجـل حياتـه مستقرة، لا أريد أيّة مشاكل.

- لا مشكلة في ذلك.

- أرجوك لا تعاودي الحديث في هذا الموضوع، وعذراً أحبّ أن تقلّلي من زياراتك لي في الأيّام القادمة، لا أريد أيّة مشاكل مع أحـد، أتفهمين؟

- لكنّك كنتَ في مكانه في يوم من الأيّام، وتعرف أنّـه في حاجـة الى مساعدتك.

- من قال لك ذلك؟

- لا يهم من قال، المهم أنّك تتخاذل بدون سبب.

- لن أغفر لك تجسّسك على حياتي، أنا عانيت كثيراً، ولا أريد المزيد من المعاناة؟ أنا لم أكن بطلاً سياسياً كما نعتني البعض، وكما ظننت نفسي بل كنت غبياً قدّم مجاناً ككبش فداء، لن أسمح لك بالذهاب إلى جهنم، ولن أسمح لك بتدمير مستقبلي الذي بنيته طوال سنين، لقد بنيت نفسي من الصّفر، رجل آخر لو كان في مثل ظروفي لكان الآن مجرد حرّاث، ولما كتب له أن يكون في موقعي.

- لا أصدق ما تقول.

- ولكن تصدقين جنونك وانفعالاتك الطفولية، يجب أن يمسكَ أحدنا بزمام الأمور، وأنا من سيقوم بذلك.

- في الفترة القادمة ...

- في الفترة القادمة سألقي على عاتقك مهمة إبعاد أيّ إصبع يوجه نحوي بالاتهام، وعيسى انس أمره تماماً، ولا تتدخلي في أيّ شأن من شؤونه.

- وإن لم أفعل؟

- أنت وشأنك، ولكن لا تورطيني معك، اجعليني بعيداً عن المشاكل، أفضل أن تفكري بهدوء، وحتى ذلك الوقت أرجو أن نقلّل من لقاءاتنا على الأقل هنا في المتحف.

- لا أصدق أذني؟

- أنت لم تخبري الحياة، كما خبرتها، الحياة لئيمة وقاسية تعطي القليل، لذلك يجب أن يتمسّكَ الإنسان بهذا القليل.

- وأنا؟

- أنت حبيبة قلبي، ومن تحبّني يجب أن تحميني، ومكانتك في قلبي محفوظ.

- لم أسألك عن مكاني؟ بل سألت عن رأيي بكَ، ألا يهمكَ؟

- أيّ رأي تعنين؟ أنا أعرف رأيك بي؟

- لا.. لا تعرف، الحقيقة أنا أيضاً لم أكن أعرفه قبل الآن.

- تعرفين ماذا؟

أحدّق طويلاً في قسماتكَ، متى أصبح فمكَ متسعاً إلى هذا الحد، شعركَ لا يتماوج كما شعر (هيليوس) بل كما شعر يتهيأ لبروز قرون شيطان من تحته، أنا أخشاكَ، أرمقكَ بغضب يساوي حبكَ لي:- أعرف أنّك جبان ...

لا أرى في عينيكَ دهشة، ولكن أرى غضباً فقط، أحقاً أنتَ جبان؟ هل الجبن عيبكَ الوحيد أمام جميع حسناتكَ؟ أم أنّ كرم نفسكَ معي يحمل نقيضه مع الناس، أي أنّ كرمكَ يحمل نقيضه تماماً، الشّيء يحمل نقيضه هذه فلسفتي العتيدة، اللعنة على فلسفتي.

لا أرغب في أن أراكَ، لأول مرة أرغب في أن لا أراكَ، أستجمع ذاتي، لأغادر مرسمكَ، صمتكَ يقول: أنّك غاضب إلى درجة كدتَ تطلب معها أن أغادر مرسمكَ، لا أعرف أيّهما يؤلم أكثر أن تجرحي حبيبك، أم أن تكتشفي أنّك تعشقين رجلاً لا يستطيع إلّا أن يكون جباناً! أقسم أنّ كليهما مؤلم.

(١٦)

لـو أنّ هـذه السـجون تحـوّل إلى مستشـفيات مجانيّـة لأصـبحتْ شعوبنا من أكثر الشعوب تمتّعـاً بالصـحة، لـو أنّ معـتقلات الأحـرار أصبحتْ سجوناً إصلاحيّة للمجرمين تهذّبهم وتعـدّهم أفـراداً محبّين للـوطن لانعـدم الخـوف في بلادنـا، لـو أنّ هـذا العـدد الغفـير مـن العسـكريّين وجّـهَ إلى سـاحة القتـال بـدل مطـاردة الكلمـة وسـحق الصيحة لحررتْ بلاد العرب والمسلمين منذ أكثر من نصف قرن.

أمّـا ذلـك الضـابط ببذلتـه الداكنـة، وعينيـه الغـائرتين، وأنفـه المعكوف كالصقر ينقضّ على فريسـة ضـعيفة، فـلا أجـد لـه مسـوّغاً للوجود على قيد الحياة، وأظنّ أنّ من يعيش مثل حياته، ويحمل فكـراً مثل فكره ليس على قيد الحياة، سخرت في ذاتي من كلمـة (فكـر) لا أظنّه يحمل أيّ فكر أصلاً، بل هو مجرد آلة بشرية مسيّسة من قبل أيـد متنفّذة ليكون سوطاً يجلـد نفسـه وأبنـاء شـعبه دون أن يشـعر بـوخز ضميره.

هل له عائلة وزوجة وأبناء؟ عنـدما يكـون بيـنهم أيّ القصـص ينسجها ليضـلّل أفكـارهم حولـه؟ أيقـول لهـم إنّـه يحـارب المجـرمين ويقضي عليهم؟ أيفخر أطفالـه بـه؟ أيتمنّـون أن يلبسـوا مثـل بذلتـه، ويحملوا مثل سوطه؟ لعلّهم لا يعرفون أنّ سوط أبـيهم لا يشـبع مـن لحم الأبرياء ودم الأحرار.

منذ متى لم يعد هذا الضابط إلى بيته؟ لعلّه منذ عدّة أيّام لم يرَ أبناءه، بالتحديد منذ اندلاع اعتصامات اتحاد الطّلبة، لا بدّ أنّه كان مشغولاً بتصيّد الطّلبة، والزّج بهم خلف القضبان بتهمة الشغب أو التخريب.

رائحة تعرّقه منتنة، لا بدّ أنّ الماء لم يقارب جسده منذ أيّام، يحاول أن يتصنّع الذوق، لكنّه يخفق، من أوّل مظاهر الذوق أن يدعو الحاضرين للجلوس، لكنّه لا يفعل، بل يجلس على مقعده الجلديّ المنجّد، لا بدّ أنّ ثمنه كبير، يعقد يديه المشعوعرتين أمامه على الطّاولة، يحاضر بنا كالمعاقبين، نحن زائرون، ولسنا معتقلين، يبدو أنّ الأمور سواء عنده، فالزائر يمكن أن يصبح بإشارة منه معتقلاً جديداً.

يوزّع نظراته أثناء حديثه بيننا نحن الطّلبة الواقفين أمامه، وبين الأستاذ مشعل الخضرا الوحيد الجالس بعد أن دعاه لذلك، يؤكّد لنا أنّ الاعتقالات كانتْ محدودة ومبرّرة لبعض الأشخاصّ، ينفي ما تناقلته بعض الصحف عن استمرار حملة الاعتقالات في صفوف الطّلبة، يؤكّد وطنيّة هذا البلد مثله مثل وطنيّة أيّ بلد عربيّ آخر، والجميع يحمل على عاتقه شرف التحرير المنتظر.

يدعونا إلى تناول الشاي الذي يقدّمه لنا أحد الجنود في أكواب بلاستيكيّة على صينيّة نحاسيّة قديمة، رائحة النعناع تفوح بشدّة، أمّا طعم الشاي فرديء، رديء جداً، أراقب ذلك الجنديّ، ما زال شاباً يافعاً، بل صبيّاً كبيراً، علامات من التأثر الخاصّ تسكن محيّاه، يقدّم

الشــاي باضــطراب واضــح، يــزداد تــوتّره عنــدما يقــدّم الأكــواب للطالبات.

لا بدّ أنّه لم يعرف من الدّنيا شيئاً سوى بيتـه ومعسـكر التـدريب وهذا المكان المقيت، في هذا المكان سيبقى لا يعرف شيئاً حتـى الأبـد، هكذا هو قدره أن لا يعرف شيئاً، فقط ينفّذ ما درّب من أجله.

يعود صوت الضابط الحادّ بطريقة مزعجـة يمـلأ المكـان، ويؤكّـد حرصهم، من هم؟ لا أعلم! على أبناء الوطن، يقول إنّ حبّهم كبير؟! وأنّهم مسخّرون لحماية الشّباب من تلك العناصر الفاسـدة والمخرّبـة، كلماته تبدو صادقة لمن يسـمعها دون أن يراقـب حركـة يديـه اللّـتين تعصران بعضهما البعض بغيظ واضح.

كلما علا صوت الضابط دفع برأسه إلى الأمـام، أنفـه المعكـوف يظهر بشكل واضح، عيناه صغيرتان، كيف تراه يرى بهما؟

أكاد أبتسم، أتذكّر جـدّتي، وأتـذكّر قصّـتها عـن ليلـى الحمـراء والذّئب، أتخيّل الضابط الـذئب سـينقضّ في أيّـة لحظـة علـى نورمـا، ويفترسها بلا رحمة، ثوبها القصير يناسب نظراته تماماً، لا ينفكّ يطالع لحم ساقيها من وقت إلى آخر، ثم يعود ليحدّث الجميع عن الأشـراف والأحرار، ولكن من وجهة نظره!

أراقب الأستاذ مشـعل الخضـرا، لأوّل مـرة أرى وجهـه متـورّداً بحمرة الغضب إلى هذا الحد، أرغب في أن أنحـني علـى يديـه بالتقبيـل لعشرات المرات، كنّا نسميه (السيّد دودة)، نسخر مـن قصـره المفـرط

وكرشـه المتكـوّر بشـموخ أمامـه، نظّاراتـه ذات العدسـات الغليظـة والإطار الأسود جعلتْ البعض يسميه دودة، لِمَ دودة؟ لا أعـرف، أنـا أكره الألقاب التي تسخر من شكل الإنسان وتكوينه الخـارجيّ؛ لأنّهـا أمور قدرية، لا اختيار لنا فيها، ولكن هذا لم يمنعني من أن أناديه أسوة بمن حولي (بالسيد دودة) أمّا الآن فالكلّ يجلّـه، ويـنحني خجـلاً أمـام نظراته، ويردّد باحترام اسم الأستاذ مشعل. دائماً كان صـامتاً وبعيـداً عن فعاليّات تخصّصه، كنّا نظنّه ممن يؤمنون بمقولـة العـواجيز (الحـيط الحيط ويا رب السّتر)، أمّا الآن وبعد أن كـان أوّل المعتصـمين، وبعـد أن أقدم بنفسه علـى تكفّـل كـثير مـن الطّلبـة وعلـى رأسـهم عيسـى بضمان عمله، بتنا جميعـاً نعلـم إنّـه مـن ذلـك النـوع الـذي لا يجيـد الجعجعة والشّـعارات، ولكنّـه مـن النـوع الـذي إن قـال فعـلْ، وإن صمتَ تدبّر.

أتخيّل قامة مشعل القصـيرة تتمـدّد لتصـبح بقـدر قامتـكَ تمامـاً، وجهه يستدير ليصبح بمثل استدارة وجهـكَ، عينـاه تتّسـعان لتصـبحا بمثل اتساع عينيكَ، فمه يتماوج ليصـبحَ مثـل شـفتيكَ، وبمثـل انتظـام أسنانك، شعره ينبت بعبث لذيذ ليصبح مثل شعركَ، وجهـكَ يبتسـم لي، يحدّق بي بكبرياء، يشـعرني بفخـر، أجيـل نظراتـي في وجـه مـن حولي أقول لهم باعتزاز: هذا حبّي، هو شهم دائمـاً، مـؤمن بكـلّ مـا يقول، انظروا إنّـه يتكفّـل الجميـع، ألم أقـل لكـم إنّـه شـجاع بشـكل خاصّ، لذلك أحبّه، لكم أن لا تلوموني في حبّه بعد الآن.

سريعاً ما يتبدّد وجهكَ، وتبقى صورة مشعل، أراقب نظراته الهادئة، يحدّق بشكل غريب بالضابط وهو يتكلّم، لا يصدر أيّ إيماءة تدلّ على أنهّ يسمع ما يقال، بل يكتفي بتجرّع قدح الشاي ببرود غريب واستخفاف واضح، يضع قدح الشاي جانباً، ينتصب واقفاً بقامته القصيرة، يصافح الضابط ويشكره، يشير إلينا بالخروج، نستجيب له متقزّزين ممّا حولنا، يؤكّد الضابط أنّنا سنجد الشّباب المفرج عنهم بكفالة الأستاذ مشعل الخضرا في انتظارنا في الخارج أمام مكتب الإفراجات والكفالات.

يتقدّم الأستاذ مشعل الطّلبة نحو الخارج، نظرات الضابط تشيّع ساقيّ نورما، أكاد ألمح لعابه يتنزّى من بين شفتيه، ليته يستطيع أن يقرأ العيون بدل متابعة السيقان لرأى في عيني نظرة اشمئزاز قادرة على قتله. ذلك الجنديّ اليافع الذي قدّم لنا الشاي قبل قليل، يلمح نظراتي، لا أظنّه يستطيع أن يفكّ معنى رموزها، على الرغم من ذلك التأثّر الذي يعلو محيّاه، ولا أعرف معناه.

عشرات الحكايا وآلاف الكلمات سكنتْ الدقائق الأولى بعد أن قابلنا عيسى والآخرين أمام بوّابة السجن، التعب والذلّ يتكلمان بطلاقة في وجوه المجموعة وإن اكتفوا ببعض الملاحظات والسباب البذيئة ...

قال أحدهم وهو يتحسّس رقبته ويضحك: أولاد الزانية، والله كأنّهم يهود. ضحك الجميع، حتى عيسى ضحك بحرارة، صافحنا جميعاً، وابتسم لي بعذوبة، لم يشكر أيّاً منّا على المساعدة كما فعل

معظم من كان معه، إنّما أكّد أنّ الكثير من الطّلبة وغير الطّلبة ما زال في الدّاخل، ثم حدّق في وجوه من معه، وجهه يخلو من أيّ معنى للامتنان، له الحقّ في ذلك، فما فعلناه من أجله أقل من واجبنا، ما يفعله العرب لقضيّتهم الأولى أقل من واجبهم.

يستأذن ويتّجه بخطوات متثاقلة نحو الشّارع الخلفي للسجن، أستطيع أن أخمّن أنّ الأيّام الماضية لم تكن سهلة بل تركت الكثير على نفس وجسد عيسى.

طيفكَ يجلس بعيداً عنّي، يراقب كلماتي، عندما أشيح بوجهي عنه، أجده قد سبقني إلى الجهة الأخرى، لا أريد أن أراه، أنا غاضبة منه؛ لأنّه طيفكَ أنتَ بالذّات، كلّما هممت بأن أدعوه إليّ تصورته جباناً يسير بحذر على أطراف أصابع قدميه، ويلتفت في كلّ الاتجاهات قبل أن يضمنّي، أكرهه هكذا، أمقته على هذه الهيئة، لا أستطيع أن أحلّق برجل خائف، أحتاج رجلاً هو أنتَ لكن دون مخاوف، رجلاً يحلّق نحو الشّمس بجناحين ممتدين دون خوف، نحو شمس لا تخشى الظلام، الظلام لا يعرف نشوة النور، الشّمس فقط تعرف معناها، وتعرف أنّ النّور قدر الظلام، قدر كلّ ظلام مهما طال.

ملامح طيفكَ مشوّهة بعض الشّيء، كلّما حاولتَ أن تبتسم، شعّت ابتسامة عيسى من قسمات طيفكَ، تتكلّم نورما بحماس شديد عنه، تصفه لفضيلة وأسرار، تصف كلماته وحركاته ومواقفه، تراجع معهما بحماس مجريات أحداث الأيّام الثلاث الأخيرة، كلّما ذكّرتها

أنّ كليهما لم تحضرا هذه الأيّام، تجاهلتْ ملاحظتي، واستمرت تحدّثهما بحماسها الشديد، تستفزّ فضيلة كعادتها، تطالبها بالاستماع لها بدل الاهتمام بأكل الفاكهة اللّذيذة التي أحضرتها أسرار معها من مستنبتها الجبلي.

تحاول فضيلة أن تبدي الاهتمام المطلوب لكي ترضى نورما التي أعرف تماماً أنّها لن ترضى عن فضيلة مهما فعلت.

تسألها فضيلة بنبرتها الطفولية:- ما سبب تحمّسك الشديد لعيسى؟ حتى أنّك لا تعرفينه إلّا منذ أيّام؟

تجيبها نورما:- متحمّسة له بسبب اقتناعي التام بعدالة قضيّته.

فضيلة:- فقط؟

أتدخّل في حوارهما، أغمز بعيني اليمنى كلاً من فضيلة وأسرار، وأقول بلكنة أرمنّية غير سليمة، تلك الجملة التي لطالما كرّرتها نورما على مسمعي في أكثر من مناسبة حتى حفظتها.

تحدّق نورما باستنكار في وجهي , وبنفس فضولي واحد تقول فضيلة وأسرار:- ما معنى ما قلت؟

معناه: إنّه الحبّ يا عزيزي.

تحدّقان في وجه نورما، تقولان بصوت تمثيلي ضاحك:- هكذا إذن! تبتسم نورما وتقول: مجنونات، ثلاثتكنّ مجنونات، أنا فعلاً متحمّسة لوطنيّة عيسى ولوطنيّة أمثاله لا أكثر، عندما أفكّر في الزّواج فلن أفكّر إلّا في رجل أرمنّي مسيحي، بل ومتديّن جداً، لن أفكّر بأيّ

غريب، هكذا هم الأرمن يحبّون بعضهم، وقد يحذرون الغرباء، هناك مَثَل أرمنّي يقول " فقير أرمنّي ولا غنيّ غريب " وأنا أؤمن تماماً بهذا المثل.

تقول أسرار بنبرة مشاكسة:- من قال لك تزوّجيه؟ نحن نقول أحبّيه.

أتذكّر عيسى، أتذكّر مخططه المجنون، هو يريد زوجة تهبه عشرة أبناء ليقدّمهم للوطن، وأنا أريد أحلام لا أحد غير أحلام. تقول نورما: مَن قال لكم أنّني سأتزوّج غير الذي أحبّه؟ في بلادكم تطعمون الحب للنّار، تلعنونه، تخفونه كأنّه خطيئة، تفخزون بأحقادكم وكرهكم، أمّا حبّكم فتخجلون منه، فيخجل منكم، أمّا في بلادي فشعبي يقدّس الحب، يعلن انتظاره دون خجل، وعندما يأتي يستقبله بالطيّب والزّهور، قليل هم من يتزوّجون من دون حبّ، الحبّ محطّة أساسية في حياة الأرمن، حتى أنّ تقاليدهم توجب على العريس أن يحبّ عروسه، ويخطفها من بيت أهلها قبل زواجه منها؛ ليؤكّد لهم حبّه الشديد لها، ورغبته الأكيدة في الزّواج المقدّس منها.

ما أجمل الحبّ يستقبل بالطيّب والزّهور! ها قد بدأتْ نورما تحدّث أسرار عن تقاليد شعبها، قريباً ستحدّثها عن اختمارت تلكَ العاشقة المخذولة. أراقب فضيلة من النافذة بعد أن استأذنتْ وخرجتْ، تستقبل كاظم، تحادثه أمام المنزل، أستطيع أن أخمّن دلال كلماتها من طريقة وقفتها، يهمس كاظم لها ببعض الكلمات، يلوّحان لي ثم يبتعدان. كم هي سعيدة بهذا الحب! تقابل الحبّ بكل هدوء

وتفهّم، لذا تسعد بـه مـن دون فلسـفات أو آلام، تقـول لـي بنبرتهـا الصادقة:- هو يحبّني بشدّة، أنا فقط أحبّه بصدق، لا أستطيع أن أحبّـه بشكل أشدّ، أحبّـه، لكـن لا أعشـقه، العشـق يحتـاج إلى طاقـة كـبيرة وامرأة جبّارة، كلّ من عشـقوا ضـحّوا بكـل سـعادتهم، أنـا لا أريـد التضحية، كلّ ما أريده هو حياة سعيدة معه إن أمكن، يقول لـي: إنّـه سيتزوّجني حتى ولو لم يوافق أبي على ذلك.

أنا لا أستطيع أن أغضب أبـي، لا يمكـن أن أخسـر لأجلـه، ولا أستطيع أن أعيش في العراق بعيداً عن عائلتي، أنا لن أضـحّي بعـائلتي لأجل أيّ حبّ.

كلماتها تذكّرني دائماً بكَ، أنتَ تعرف أنّ عشقي لكَ لا يعـرف حداً يتوقّف عنده، لذا تؤمن أبداً بأنّني مستعدّة للتضحية مـن أجلـكَ، لا بدّ أنّ هذه الثقة تشعركَ براحة وغبطة، أمّا أنـا فـتجعلني أعـيش في ترقّب دائم وقلق مستمر.

قلق يشبه قلقي وأنا أنتظر أن يتكلّم الضابط الذئب، ويفسّـر لـي سبب طلبه لي، طلبني مبكّراً، قال الجندي الذي أرسله في طلبي: الأمر ملحّ.

طوال الطّريق تساءلت عن سبب دعوته، لو أنّـه طلـب حضـور نورما لخمّنت أنّه يختلق الأعذار ليسطو عليها بنظراته، أمّـا أن يطلـبني من دونها فهذا أمر لا أملك له إلّا تفسيراً واحداً، لا بـدّ أنّـه قـد لمـح نظراتي في ذلك اليوم، أفهم معناها؟ لا أظـنّ أنّـه ممـن يفهمـون لغـة

العيون؛ لأنّه لو كان يفهم لغتها لانتحر منذ مدة طويلة، ولما كنت الآن هنا أجلس إلى مكتبه، أنتظر قهوته لكي يبدأ كلامه.

ابتسم الضابط الذئب، أنهى مكالمته، قال لي: سمعت أنّك فنّانة؟

أهي تهمة؟ من يدري، أجبته:- نعم.

- هل تستطيعين أن ترسمي لي لوحة؟

- لوحة عن ماذا؟

- لوحة ترسميني فيها!

- لمَ لا تحصل على صورة فوتوغرافية؟

- أملك الكثير منها، لكنّني أرغب في لوحة مرسومة باليد، أنا أقدّر الفن والفنانين.

أفضّل لو أنّه يلقي بي إلى جهنّم، بدل أن أقف قبالة أنفه، لأرسم وجهه الكريه، ما زال ينتظر إجابتي، أقول له من دون مبالاة:- أنا لا أرسم إلّا صوراً أوليّة لتماثيلي التي أنوي نحتها.

- إذن لن ترسميني؟

- هل طلبتني من أجل أن أرسمكَ؟

- في الحقيقة ليس أنا من طلبك.

- من طلبني إذن؟

- طلبتك شرف الجميل، قالتْ أنّك ستكفلينها؟

- أهي معتقلة عندكم؟

- نعم، لقد اعتقلناها في مظاهرة شغب البارحة، لقد عضّت أحد الجنود.

- هل أنا ملزمة بكفالتها؟

- بالطبع لا، تستطيعين أن ترفضي ذلك، وتتركيها كي تقدّم للمحاكمة بتهمة الشغب.

تعجبني الفكرة، تعجبني تماماً، أكاد أسأله إن كان يستطيع أن يرسلها إلى الجحيم بدل أن يرسلها إلى السجن؟ لكن ألن يؤلمكَ يا حبيبي أن تلاقي شرف هذا المصير؟ لطالما أخبرتني بأنّك تشفق عليها، شيء في عينيها يحاكي قلبكَ، حياتها تذكركَ بطفولتكَ، أحزانها تحاكي أحزأنّك، كيف تحاكيها؟ لا أعلم ...

اللّعنة عليها، لماذا لم تطلب مساعدتكَ؟ لا أظنّكَ كنتَ ستتخلّى عنها حتى ولو كلّفكَ الأمر عمركَ كلّه، عندما تحتاجكَ فأنتَ تلبّي دعوتها، أمّا عندما أحتاجكَ فتسارع إلى جحركَ خائفاً كما فئران السفينة، أفكّر في أن أتّصل بكَ، وأدعوكَ لمساعدتها، هذا مناسب أكثر.

صوت الضابط الذئب يقول بنبرة صادقة:- ماذا قلت يا آنسة، هل ترفضين كفالتها؟

- هل أستطيع أن أراها؟

- لا بأس، ولكن لدقائق ...

- فقط أحتاج إلى دقائق.

يطلب من أحد الجنود إحضارها، تتعالى دقات قلبي، أشعر بغضب شديد، كم أرغب في صفعها!! تدخل بمشيتها الغريبة، لأول مرة أراها من غير زينتها، هل رأيتها يا حبيبي من غير زينة، أنصحكَ بأن لا تفعل، لن يعجبكَ المنظر أبداً، سترتها قصيرة تظهر جزءاً من بطنها، البنطال ضيّق كالعادة، أتساءل بفضول أهذا مظهر فتاة تخرج في مظاهرة سياسية!؟ تداعب مخيّلتي بعض الأفكار الساخرة، أتخيّلها متوجهة إلى موعد مع نمر نصّار، تمرّ بالصدفة بالقرب من المظاهرة، يتحرّش بها أحد الجنود، تضربه، فتعتقل مع بعض المتظاهرين، وهكذا تصنع المقادير منها بطلة سياسيّة، فالمقادير تصيّر العيّ خطيّباً، وتصيّر شرفاً بطلة وطنية. أبتسم لهذه الخيالات، ما أروع الخيالات! هي متعة مدهشة لمن يجيدها، وأنا أجيدها.

لا بدّ أنّها ستحدّثكَ طويلاً عن هذا الاعتقال، ستجعلكَ تؤمن بعظمتها، سترسم نفسها بألوان زاهية، وستعشق كعادتكَ هذه الصّورة، هي تجيد الكلام، تتفنّن في حمل الشعارات، هي وطنيّة وقدّيسة وشريفة عندما ترسم نفسها لكَ بكلماتها، وأنتَ طيّب تسحركَ كلماتها، فتصدّقها؛ فقط لأنّها تجيد صنع الكلمات. أتمنّى لو أنّك كنتَ موجوداً لتشاهدها وهي تجادل الضابط الذئب، تؤكّد له أنّ جنوده قذرون، تقول إنّ أحدهم قد لمس صدرها قاصداً. يزجرها الضابط الذئب، ولكنّها لا تصمت بل تقول:- سأفضحكم في

الصحف، سأنشر كلماتكم البذيئة. يسألها الضابط مستغرباً:- أيّ الكلمات تعنين؟

تجيبه:- لا أستطيع لفظ تلك الكلمات.

- ولِمَ لا؟

- حيائي يمنعني.

يطالعها الضابط الذئب بابتسامته الماكرة، ويقول لها: حقاً؟ ! تصمّم على أن تكتب له تلك الكلمات لكي يعرفها، يوافقها وهو يغمز أحد جنوده، تكتبها على ورقة أمامه، يحدّق في الورقة، يعود لغمز الجندي، ما هي الكلمات التي كتبتها؟ لا أعلم، ولكن أعجب متى أصبحتْ ذات حياء؟ يسألها الضابط الذئب بنبرة غريبة: ما عملك؟

- أنا أعمل في مجمّع تجاري.

يشيح الضابط الذئب بوجهه عنها، ويسألني: هل ستكفلينها؟ لا أجيبه، أهرب نحو وجهها، متى أصبح نمشك بهذه الكثرة، ألم يشفَ بعض منه؟ ألا يفيده العلاج؟ أعرف أنّك تعالجينه، عرفت ذلك بالصدفة، عرفته منكَ يا حبيبي، أنتَ من حجز لها في ذلك المركز العلاجيّ المشهور، بل أنتَ من دفع لها تكاليف العلاج؟ يا لها من محظوظة! يا لها من ذكيّة! استطاعت في شهر واحد أن تعرف كلّ مفاتيح ذاتكَ، استدرّتْ عطفكَ كما لم يستدرّه أحد، جعلت منكَ وصيّاً على نفسها وعلى صحّتها الملعونة.

تحدّق بي، تنتظر إجـابتي، أسـألها بقـرف واضـح:- لمـاذا طلبـت حضوري؟

تجيبني بلهجتها الآمرة: كي تكفليني.

- كيف تثقينَ في أنّني سأكفلك، أنا لست صديقتك، أنت تعرفين جيداً حقيقة مشاعري نحوك.

- أنت لن تتخلي عنّي، أليس كذلك؟

- بل سأفعل.

طيفكَ يهمس لي بمساعدتها، يذكّرني بظروفها، يتعاطف بشـكل خاصّ معها، يتوسّل إلي بمكانتكَ عنـدي كـي أسـاعدها، أنـا ضـعيفة أمام طيفكَ تماماً كضعفي أمام عينيكَ.

يعود الضابط الذئب، ويسألني:- هل ستكفلينها؟

أسألها بحدّة: لماذا لم تتّصلي به، وتطلبي منه أن يكفلك؟

- لا داعي لازعاجه، لن يسعده القدوم إلى هنا.

- ولكنّه يسعدني، أليس كذلك؟

- ......

أكرهها؛ لأنّها تفهمكَ أفضـل منّـي، أنـا أحـاكي طيفـكَ، وهـي تحاكي حقيقتكَ، تهبني أحلاماً، وتهبهـا حقـائق ووعـود تتحقّـق، هـي تعرف أنّ هذا الوضع لن يسعدكَ، تعرف أنّك جبان لا يعتمد عليـكَ،

تعرف إجابتكَ دون سؤال، أمّا أنا فأرسمكَ فارساً فضيّاً يتقلّد عزمه وبأسه، ويمضي في وجه المجهول.

آه.. كم أنا طفلة غرّة! أمّا هي فامرأة لئيمة تحسب خطواتها بشكل جيّد، تقرأ ذاتي، وتعرف أنّني حمقاء مستعدّة للمساعدة في أيّ لحظة، وستجيد استغلال ذلك، لا، لن أدعها تقرأني بعد الآن، لن أكفلها، سأدعها تتعفّن في السجن.

- هل ستكفلينني أم لا؟

- أنا أعرف أنّ عائلتك تسكن في بلدة بعيدة، ولكن لمَ لا يكفلك أحد معارفك؟ هم كثر، أليس كذلك؟

- أرجوك لا تتخلي عنّي؟

يا الله كم تجيدين التذلّل، تماماً كما تجيدين تمثيل أدوار الكرامة والبطولة أمام حبيبي.

- لا.. لن أكفلك.

يقول الضابط الذئب: ألن تكفلينها؟

يطالعني وجه عيسى، يطالعني صوت مروة تقول بنبرتها الساخرة: الحياة مسرح كبير. أفكر في هجرك يا من أحب؛ لأنّك جبان، ترفض المساعدة، وها أنا أحاكي جبنكَ، وأتخلّى عن إنسانة تحتاج لمساعدتي فقط؛ لأنّ الغيرة الشديدة تسكن قلبي، يجب أن أشعر بالخزي من هذه المشاعر الوضيعة، جدير بالمحاولة أن أوظّف شيئاً من طاقتي في قهر مشاعر ضعفي الإنساني.

يسألني الضابط الذئب:- آنسة، هل هذا قرارك النهائي؟

- لا، بل سأكفلها.

سارتْ إلى جانبي حتى البوّابة، حـدّثتني كأنّهـا صـديقة، سمعتهـا دون أيّ ردّ، نكاتها البذيئـة أشـدّ مـا أثـار حنقـي، طلبـتْ أن تكـون صديقة لي.

تساءلت في قلبي: ألا يكفيك هو؟ ما حاجتك إليّ؟

لم أجبها، بل يممت نحـو ناصـية الشّـارع لأسـتقلّ سـيارة أجـرة، أوقفتني قائلة:- لقد أضعت نقودي في المظـاهرة، وأحتـاج إلى العـودة إلى البيت.

أهذه طريقتك في استدرار عطف مَن أحبّ؟

تناولت بعض الفكّة من محفظتي، طـالعتني صـورتكَ في محفظـتي، ناولتها النقود، شكرتني، وقالتْ: سأعيدها في أقرب وقت.

- لا داعيَ لذلك.

(١٧)

مروة تلكَ الرّوح المسكونة بفنّها، آمنتْ دائماً بي، كثيراً ما قالتْ لي: أنا واثقة من موهبتك، في يوم من الأيّام ستنحتين تمثالاً رائعاً، إتقانه وإبداع صنعه سيبعثان الحياة فيه، في يوم من الأيّام سأفخر بك، وأقول لمن حولي: أنا أعرفها، هي صديقتي.

ما أجمل كلماتها! تدفعني دائماً إلى العمل، أمّا الآن فأنا أحتاج إلى كلماتكَ، أحتاج إلى الحديث معكَ، أحتاج إلى تأبّط ذراعكَ، والسير طويلاً معكَ تحت المطر! ! حاجات تبدو روتينية بالنسبة لباقي العشاق، أمّا لي فهي حاجات كفيلة باستمرار حياتي.

تمرّ الأسابيع ثقيلة من دون لقائك، طيفكَ يواسيني، يربطني معكَ بنسيج لا ينفصم، نسيج يجعلني أنسج لقياكَ، وأنعم به، نسيج يجعل نبضكَ يسكن جسدي، ينقل لي كلّ خلجة من خلجات قلبكَ، ويصوّر لي كل أحوال نفسكَ، ليتكَ تأتي، ليتني ألقاكَ، ماذا سيحدث في الدّنيا لو أنّك خلقتَ أقل كبرياء، أو خلقت أقل عناداً؟

أنوي أن أغادر فراشي، لكن جسدي متعب، بتعب شهي، أتعلّل بكل الأسباب والعلل أمام من يسألني، أقول: أنّني أحتاج إلى النّوم المبكّر، فقط كي ألقاكَ في أحلامي، كلما طال النّوم طال لقياكَ، ما زالتْ كلماتكَ البارحة تملأ روحي، أتحسس شعري أهو مبعثر كما كان في أحلامي؟ نعم هو مبعثر تماماً كما بعثرته البارحة، إذن لا بدّ

أنّ وجنتيّ متوهجتين من قبلاتكَ، كم ممن حولي يستطيع أن يخمّن سبب هذا التوهج؟ .

لا أستطيع التحرّك من فراشي، أماّ مروة فتصمّم على أن يستيقظ الجميع، لكي يذهبوا مبكرين، ويشاهدوا العرض التجريبي الأخير قبل عرض مسرحيتها، طوال أشهر عملتْ في هذه المسرحية، هي من النوع غير المبالي في ما يحدث حوله، ولكن عندما يتعلق الأمر بالمسرح الذي تعشقه تصبح كلّ حواسها مجنّدة من أجل هذا الأمر، هي من أعدتّ هذه المسرحية بل وأخرجتها وستمثل دور البطلة فيها، أماّ قصّتها فقد اقتبستها كاملة من كتاب الأساطير الذي أهديتني إيّاه. لا تنفكّ تحدّث الجميع عن أحداث المسرحية وعن أبطالها، من دون سابق إنذار تقلب أيّ موقف إلى مشهد من مشاهد مسرحيتها، تأخذ بتمثيله أمام دهشة البعض وإعجاب الآخرين، أما أنا فأصفق لها دائماً، لها قدرة عجيبة على تقمّص الأشخاصّ والتنفس بنفسها، حتى أنّ أصواتهم تحلّ في حنجرتها للتكلم بها.

متوترة هي، بدليل أنّها لم تبدأ بالتمثيل حتى الآن، ولكنها لا تنسى أن تختار أغنية الصّباح، صوت فيروز يصدح , تشدو بلوعة عاشقات الأرض:

علّموني هن علموني

على حبّك فتحولي عيوني

والتقينا .... وانحكى علينا

علموني حبّك ولاموني

عأيّام الورد قلبي دايب

كيف كنا وكان العمر طايب

شو جرى شو غير الحبايب؟

مرقوا على بالي وما حاكوني

صوتك يدندن بهذه الكلمات، يهمس بها في أذني، أسأله بلوعة عن قسوته: من أين له بهذه القسوة؟

لا يجيب، بل يستمر بهمسه في أذني.

أراقب مروة تذهب يميناً ويساراً، تلبس ثيابها سريعاً، تجمع شعرها خلف أذنيها، لينسدل على ظهرها، تراجع بصوت مرتفع جدول أعمالها، جدول عمل زاخر وطويل، تؤكّد أهمية حضوري، تقول بصوتها المضطرب: لا تنس الساعة العاشرة مساءً، المسرح الأكاديمي. بطاقات الدعوة موجودة على طاولة المطبخ، لا تنس أن تذكّري نورما بالموعد.

- لن أنسى، لا تخافي.

- هل ستحضرين العرض التجريبي الأخير؟

- ربما ... لا أعلم.؟

- العرض في نفس المكان الساعة الخامسة مساءً.

وجهها شاحب، لا بد أنّها قلقة بشأن هذا اليوم. انتصب

أمامها، تصمت كأنّها تنتظر كلماتي، أمسك يديها، أفركهما، أقول لها: لا تخشي أيّ شيء، ستقدمين عرضاً رائعاً، أنا أؤمن بك. أنا محظوظة، لأنّي قابلت إنسانة بمثل موهبتك، تعلّمت الكثير منك، لن أنتظر الكثير حتى أراك نجمة مسرح مشهورة، بعد ساعات سيصبح اسمك علماً من أعلام المسرح العربيّ. ثقي بفنك.

- سأنتظرك...

- سأكون في الصّف الأول

تحدّق بي بدفء غريب، وتقول: لقد دعوته إلى العرض الأول، دعوته بنفسي، أكّد لي أنّه سيحضر.

أهزّ رأسي، أربت على كتفيها بامتنان خاصّ، تتجه نحو الباب، تخطو خطوة خارج العتبة، ثم تعود، وتطلّ برأسها، وتقول بنبرته الساخرة: ماذا ستلبسين هذا المساء؟

-....

- ليتك تلبسين ثوب سلفادور دالي، ستكونين ساحرة به، وستثيرين ثورة به.

- شقيّة...

- موعدنا العاشرة مساءً

ثوب سلفادور دالي، أنتَ من أسماه بهذا الاسم الساخر، لا زلت أذكر ذلك اليوم، حضرت أنا ومروة وهدى وفضيلة معرضاً يقيمه قسم الفنون يتضمّن لوحات رسمها الطّلبة النابغون تقليداً

للوحات عالمية، أثارتنا لوحة تحاكي لوحة أصيلة رسمها فنان اسمه سلفادور دالي، اللّوحة كانتْ غريبة فعلاً، تجسّد امرأة بملامح جميلة وشعر شبه مصفف ترتدي ثوباً نسائياً عادياً، لكن هذا الثوب ينفتق بالقرب من صدرها، ينفتق على شكل صندوق مفتوح يظهر منه الثديان بشكل كامل، ضحكنا طويلاً أمام هذه اللّوحة، تساءلنا ما المغزى من هذه اللّوحة؟ ماذا يعني ظهور الثديين بهذا الشّكل؟ لم نجد تفسيراً مقنعاً، ولكن ضحكاتنا تعالتْ إلى حد جعل معظم الزائرين ينظرون نحونا. عندما حدّثتك عن اللّوحة وعن ظهور الثديين، ضحكتَ من ردة فعلنا المستغربة، ونعتّني بالطفولية. عندما عدت إلى بيت الضّيافة في المساء، وجدت صندوقاً أبيضَ كبيراً في انتظاري، كتبتَ عليه: إلى آلهةَ القمر، إلى أرتميس، مع كلّ حبي ثوب سلفادور دالي .

أمام فضول صديقاتي، فتحت ذلك الصندوق المثير، ثوب أزرق ما كان فيه، ثوب قصير حتى الركب بوردة صغيرة على الخصر، وقبة واسعة، تساءلت: كيف سأرتدي ثوباً بمثل هذه القبة الواسعة؟ أردتَ أن تعطيني شجاعة خاصّة في اللباس تبعد عن نفسي تلك الدهشة الطفولية؟ لعلكَ أردت ذلك.

أردتكَ أن تكون أوّل من يراه علي، لذا كنت أمام مرسمكَ منذ السابعة والنّصف صباحاً، أدهشكَ جماله، قبّلتني، وقلت بنبرتك الساحرة: ثوب سلفادور دالي إذن...

أضحكتني تسميتك لهذا الثوب، كنتَ راضياً عن ثوبي وعن ما

يظهره بصراحة من جسدي، سكبت القهوة كعادتي على الثوب؛ فأنا لا أملك إلاّ أن أرتعشَ أمامكَ. وقد اعتدتَ على هذه الرعشة، بل أحضرتَ أوراقاً معطرة خصيصاً لأمسح بها ما يتسخ من ملابسي، بدل إزالة البقع بالماء واستعمال مجفف شعركَ الذي تحتفظ به في مرسمكَ لتجفيفها، انتابكَ غضب خاصّ وأنتَ تمسح تلكَ البقع عنه، وتلمح اتساع فتحة صدره قلت لي بنبرة حازمة: لا تلبسيه مرة أخرى.

- لماذا؟ أنت من أحضره.

- لم أعرف أنه سيكشف عن صدرك إلى هذا الحد.

- ولكّنه جميل، وأنا أحبّه.

- احتفظي به للذكرى، ولكن لا تلبسيه أبداً.

احتفظت به كما طلبت، وكلما سألتني الصديقات: لمَ لا تلبسين ثوب سلفادور دالي؟ تذكّرتكَ، وابتسمت قائلة: ادّخره لمناسبة مميزة.

وأنا أجلس في الصّف الأول قبالة خشبة المسرح تماماً، تفقّدت باهتمام هندامي، ثوبي الأزرق مناسب، ويرضيني بهذا الشّكل، شعري مسدل كما تحبّه، اتطيّب بعطرك المفضّل، بعطرخلاصة الياسمين، وكي لا أثير ضيقكَ ضيّقت فتحة الصّدر باستعمال دبوس خاصّ.

منذ زمن لم أستعمل هذا الدبوس الذّهبيّ الطلاء، هو على شكل شمس مشعّة, وجدتُه في السّوق، فاشتريته على الفور، لطالما

أعجبكَ، كنتَ تقول دائماً: أين يجد المرء امرأة مثلك؟ حتى هذا الدبوس المميز يبدو كأنّك نحتيه بيديك، وصنعتيه على هواك، ليناسب طبعك الخاصّ وذوقك المميز.

عندما حدّثتك طويلاً عن أورفيوس ذلك الموسيقي الأسطوريّ الذي عشق موسيقاه بقدر عشقه لزوجته (يوريديس)، وعندما سرقها الموت، لم ييأس، بل لحق بها إلى مملكة الموت، واستطاع بموسيقاه الحزينة أن يقنع (هاديس) إله الموت والحياة السفلى أن يعيدها إليه، لكنّ إله الموت اشترط عليه أن يسير أمامها، وأن لا ينظر إليها أبداً، لم يستطع أورفيوس أن يكبح فضوله، فنظر إليها، فاختفت إلى الأبد، وكتب عليه أن يبكيها إلى الأبد حتى الموت. أورفيوس هزم الموت، لكنّه لم يهزم فضوله. حضنتني، وقلت لي بنبرتكَ المعهودة: أتقصدين أنّ فضولي حولك قاتل؟

- بل أقصد أنّ كلمة هلاكي في علمك فقط.
- أيّ كلمة تعنين؟
- أعني كلمة الهجران و الفراق.
- نحن لن نفترق أبداً، كلانا قدر الآخر.

الكثير من الوجوه الموجودة أعرفها، بعض الوجوه الجديدة أخمّن أنّها من المهتمين بالمسرح والفن، أحد الفنانين المشهورين يجلس في الصّف الثّاني مع عائلته، باب المسرح يغلق بأمر من مدير المسرح، الساعة تجاوزت العاشرة بأربع دقائق، الأضواء تخفت حتى لا يبات

المرء يرى كفّ يده، السكون يخيم على المكان، المقعدان المجاوران لي ما يزالان خاليين ينتظران فضيلة وكاظم، يبدو أنّهما فضلا الجلوس في خلوة أمام شجر المسرح تحت أضواء المسرح الخارجية على حضور العرض، لن تسامحها مروة إن عرفت أنها لم تحضر هذا العرض التاريخي في حياتها.

لا أعنّي نفسي في البحث عنكَ في الظلام، أعرف أنّك غير موجود، قلبي يدرك حضوركَ كما يدرك غيابك، يفتح باب المسرح، لا أستطيع أن أرى ملامح القادم، عندما تجلس فضيلة إلى يميني أدرك أنّها وكاظم هما الحاضران، أضواء المسرح الحمراء تسقط مباشرة على وجه كاظم، شعره الأسود وذقنه الحادة يلمعان تحت وطأة الأشعة، أتخيّله بوجهه المستطيل وذقنه الحاد تحيط به هالة من الضوء الأحمر، كما وجه (توت عنخ آمون) الذي طالما طالعته في المجلات الأثرية، أوافق أسرار على تسميتها له بتوت عنخ آمون، لعلّها لمستْ هذا الشبه الخارجي بينهما قبل أن ألمسه أنا.

يجلس كاظم إلى يساري، يبدو قريباً جداً منّي، أتمّنى لو أنه يبتعد عن مقعدي، ويجلس في أيّ مكان آخر، لا أحبّ أن تراه إلى جانبي، أعرف أنّك لطالما مقته، وقلت: إنّه مخادع كبير. هو يكرهكَ، ولن أسامحه أبداً على ذلك، أنّى له أن يكره شريك روحي؟ ثم يظنّ أنّني سأحبه بعد ذلك، لعلّك تكرهه يا حبيبي؛ لأنّه استأثر بقلب فضيلة، فضيلة التي تعشق جمالها الطفولي وجسدها النحيل، قلت لي:أنّك مستعد لأن تعشق فضيلة فقط كي تخلصها من كاظم، عدتَ وقلتَ

لي: أنّك تمازحني. ضحكت من كلماتكَ، لكنّني كنت أدرك أنّك لا تمزح بل أنت جاد كلَ الجدّ في ما تقول، أنت مجنون، وعندما تجنّ تمزج جدكَ بالهزل من الكلام.

ساعة ونصف تمرّ بسرعة مدهشة، الديكور الرّائع والموسيقى الموفقة وإتقان الممثلين ينقلني بسحر إلى مدينة الملك (كالاجولا)، ذلك الملك المهووس، تموت حبيبته بين يديه، يشعر بأنّه خسر الدّنيا بخسارتها، يتعذّب من فقدانها إلى درجة الجنون، يرى أنّ القمر شبيهاً لها، لذلك يطلب الحصول عليه، وكل من يعجز أن يأتي به، يسفك دمّه حتى لو كان من رجال بلاطه أو من أعزّ أصدقائه، هوسه بالقمر يصبح رعب الشعب، يقرّر رجال دولته أن يتخلصوا منه، ليوقفوا نهر الدم، فيتآمرون ضده.

المشهد الثالث من المسرحية يتفطر قلبي بسببه، تتفنّن مروة في أداء دور الحبيبة الميتة، يضمها كالاجولا بحب مفجوع، يقفل دونهما أبواب مقصورته، تخفت الأضواء والموسيقى, جسده المفجوع وهو يضم الحبيبة يرسم بؤساً حقيقياً، يبكيها بحرقة، يرثيها بشعر جميل، يطالبها باسم الحب بأن تهجر الموت، ولكنّها لا تستجيب له، كيف تعصي أمر من تحبّ؟ لو أنّك دعوتني يا من أحبّ من الموت لقهرته، ولبيت دعوتكَ.

ستفسد دموعي زينتي، كيف سألقاكَ بزينتي وقد فسدت؟ ولكنّني لا أملك أن أمنع دموعي، أحزان كالاجولا أحزان يستطيع أيّ عاشق مجنون أن يفهمها تماماً، أحزانه تلامس شغاف قلبي، أعرف أنّك

موجود الآن هنا، قلبي يحدّثني بأنّك تـدخل الآن إلى المسـرح، الظـلام يمنعني من رؤيتكَ، لكنّ قلبي يدرك وجودكَ علـى الـرغم مـن ذلـك، أتراكَ تشعر بدموعي كما أشعر بخفقان قلبكَ أمام هذه المأساة؟ !

يميل كاظم بكتفه نحوي، يحاول أن يقول لي شيئاً، لعلّه سيسـألني عن سبب بكائي , أشير له بيدي، يفهم أنّني أرغب في تركي وشـأني، يعتدل ثانية في جلسته، يتركني لأحزان كالاجولا.

أبكي بدموع اعتدتها لأيّ أحزان أو لأيّ كلمـة تصـف أشـواقي لك، تحاكي عشقي لك، لطالما خمّـن مـن أمـامي أنّـني مرهفـة الحـسّ، وأتأثر بصدق ما أسمع، أحد لم يعرف أنّني ألمحكَ في كلّ كـلام الـدّنيا، وأبكيكَ في كلّ مآسي العاشقين، وأرجوكَ من دون كلّ البشر.

عند إسدال الستارة على المشهد الأخـير، يعلـو التصـفيق، تفـتح الستائر مرةً أخرى، وينحني الممثلون تحيةً للجمهور، وموجة التصـفيق ما تزال في ذروتها، لا عجب في ذلك، فمـا قـدّم الليّلـة كـان في قمـة الإبداع و الرقي، عينا مروة تتأثران بشـكل خـاصّ بحـرارة تصـفيقي وصديقاتي لها.

الكثير من الحاضرين يرغب في تحية الممثلين، وإعلان الرّضا لهـم عمّا قدّموا، بصعوبة أستطيع أن أصافح مروة، وأبلغها سـعادتي فيمـا حققته.

أقبّلها، فتهمس في أذني: كان هنا...

- من هو؟

- صاحب العينين السّاحرتين، صافحني، وخرج مسرعاً.

أراقب سيل الحاضرين المتدفّق نحو بوابة المسرح للخروج إلى خارج المبنى، أستطيع أن ألمح أعلى جذعكَ، وشعركَ يتطاير أمام تيار الهواء البارد، يالشّعركَ المجنون! تطايره يسحرني، لو كنتَ تملك شعراً ناعماً كما ممثلي السينما لظننت أنّني عشقتكَ لمحاكاتكَ لمعظم أبطال السينما، ولكن بهذا الشّعر الذي يروقني من دون كلّ شعر رجال الدّنيا، أنا متأكدة من عشقي المجنون، يجب أن يملك كلّ رجال الدّنيا مثل شعركَ، لكي يوهبوا شيئاً من سحركَ، لطالما أخبرتكَ بأنّني أعشق شعركَ، كلماتي كانت تثير عجبك، فيما بعد أصبحت أكثر صراحة، كنتَ تقول: لطالما كرهت شعري.

- أنا أعشقه، هو رائع.

- حقاً؟ !

- حقاً أنا أعشقه، وآمركَ بأن تحبّه، غير مسموح لك بأن تكره ما أحبّ...

تبتعد سريعاً، الكثير من الحاضرين يغادرون المكان، ها هو الممثل الشّاب الذي أدّى دور (كالاجولا)، أشهد أنّه موهوب، بشرته داكنة بشدة، أعتقد أنّه بموهبته الواضحة وبشرته الداكنة يستطيع أن يبهر الجميع إذا مثّل دور عطيل.

أكاد أقترح عليه فكرتي، لكنّني أتراجع عندما أراه يقبل بلهفة على تلك الفتاة التي تنتظره بخفر واضح، أسمع كلماته يدعوها إلى

الخروج، يتجهان بسرعة نحو الباب الرئيسـي، عنـد البـاب، يـدعوها بانحناءة جميلة إلى أن تخرج قبله، الرّدهة الطّويلة تـردّد صـدى كلماتـه: أنت أولاً يا أميرتي الجميلة.

سريعاً ما تخلو الرّدهة من الأشخاصّ إلّا القليل منهم، في انتظـار خـروج مـروة والأصـدقاء، أشـغل نفسـي بقـراءة بعـض إعلانـات العروض المسرحية، هذا الأسبوع سيكون حافلاً بالعروض المسـرحية، إحدى العروض تحمـل اسـم (غَـزَلْ) أتـذكّر مـروة عنـدما حضـرت إحدى محاضراتكَ بنـاءً علـى رغـبتي في نقابـة الفنـانين قالـت: عينـاه جميلتان، فيهما غزل.

ألم أقل لكَ يا حبيبي أنّ عينيك تحمـلان سـحراً، لا تسـتطيع أيّ امرأة أن تتجاهل سطوته.

مسرحية أخرى سـتعرض غـداً، تحمـل اسـم (جـورج صـاند)، أتساءل:ما هو موضوع هذه المسرحية؟ أسيكون عرضـاً لحيـاة الكاتبـة جورج صاند؟ التي أنّكرت أنوثتها، وكتبت تحت اسـم مسـتعار، كـي تستطيع أن تنشر كتابتها الأدبيـة في فـترة كـان الأوروبيـون يرفضـون فيها أن يتقبّلوا المرأة الأديبة أو أدب المرأة.

أحفظ عن ظهر قلب فقرة كتبتها جورج صاند وأرسلتها لكَ مع بطاقة وطاقة زهور تقول على لسان المرأة:

" أعطاني الأول عقداً من اللؤلؤ يعدل مدينة بأسرها بمعابـدها وعبيدها وقصورها.ونظم الثّاني من أجلي ديواناً من الشّعر قال فيه:

إنّ شعري أشدّ سواداً من الليّل، وإنّ عيني أصفى من أديم السّماء، والثالث كانتْ تحمّر وجنتا أمه عندما تقبّله لفرط جماله، فكان هـذا الجميل يجثو أمامي واضعاً يده على ساقي، ويخبرني بمدى حبّه لي.

أما أنت يا من أحبّه فلم تعطني شيئاً، ولم تنظم لي شيئاً، ولم تقل لي أنّني جميلة، ولكنّك أنت وحدك الذي أحبّه وأعبده".

(١٨)

بعض زخّات المطر تباشر الأرض استقبالها، أعدّ قطرات المطر واحد، عشرة، خمسين ... تندمج بعضها ببعض، لم أعد أقوى على إحصائها، في هذا الوقت من الظهيرة الباردة يخلو المتنزّه من الأطفال، قليل من المتنزّهين ينتشرون هنا وهناك، يطالعني البعض من وقت إلى آخر بنظرات فضوليّة، هل أبدو عجوزاً إلى درجة تجعل وجودي نشازاً في هذا المكان؟ لم يتجاوز عمري العقد الرابع، لكنّني أبدو أكبر من ذلك، أعرف أنّ قسماتي قد حفر الزّمن فيها تجاعيد لا تخفى، قلتَ لي:- أنّني من النّساء اللواتي لا يعرف الكبر الطّريق إليهنّ، وأنّني سأبقى شابّة نضرة إلى الأبد.

طوال السّنين التي عشتها معكَ قهرت الزّمن، حبّكَ بعث الشّباب في ذاتي، لكنّ السّنوات الثمانية عشرة التي قضيتها بعيدة عنكَ كسرتْ شبابي دون رحمة، أظن أنّ الشّباب هو فترة الحب في عمر الإنسان، وليس رصيداً مقدّراً من السّنين تنفق في الحياة.

قطرات المطر تصافح رمل المتنزّه، تنبعث من المكان رائحة التّراب المبلّل بالماء، تعبق في المكان رائحة الأرض تستقبل الحياة، آه ما أجمل رائحة أمّنا الأرض! آه كم اشتقت إلى رائحة البرتقال تضمّخ أمي ... كم أنا وحيدة من دونك يا أمي!! منذ رحيلك المشؤوم لم

يضـمنّي أحـد لأبكـي في حضـنه، مـن لا يحتـاج إلى أحـد ليبكـي في حضنه؟ !

عود الحياة قد يبسَ في داخلي من دون شك، وإلّا لَمْ أشعر بحطـام يسكنني وأنا أسير في هذا الشّـارع الطويـل؟ في الماضـي كنـت أحتـاج لعشر دقائق، عشر دقائق لا غير حتى أقطعـه، وأصـل إلى نهايتـه، أمّـا الآن فأجد أنّ نهاية الشّارع في آخر الدّنيا، هذه المقاعد الخسبيّة جديدة لم تكن في الماضـي، أجلـس علـى إحـداها، أتأمّـل أحـواض الزّهـور المنتشرة على طول الطّريق، الأحواض رخاميّة، لا بـدّ أن البلديّـة قـد أصبحت مهتمة برفاهية المدينة أكثر مما كانتْ عليه في الماضي، الشّـارع أمامي يعجّ بالسيارات، لكنّني أستطيع أن ألمح في الجانـب المقابـل مـن الشّارع ذلـك الحـانوت الـذي يشـغل الـركن الأوسـط مـن مجموعـة حوانيت أخرى، لا أذكـر أنّ هـذا القـدر الكـبير مـن الحوانيـت كـان موجوداً في الماضي، لكنّني أذكر جيّداً أنّ هذا الحانوت المغلق منذ زمن على ما يبدو قد كان يحمل اسم (جنّة أجود)، أمّا الآن فيحمـل لافتـة كتبت بخط رديء: بقالة ...، ماذا؟ لا أستطيع قراءتها، لا يهـم، يبـدو أنّ الحانوت قد فقد هويته التي عرفته بها منذ زمن طويل.

أمام الحـانوت المغلـق ألمـح فتـاة بشـعر أسـود داكـن، وبمعطـف فيروزي اللّون تسير مسرعةً، ولكـن بخطـىً مثقلـة بنـوع خـاصّ مـن الهموم، تحدّق بالحانوت المغلق تستدير، تقف قبالتي، من البعيد ترمقني بنظرات أفهم معناها تماماً، أعـرف هـذه الفتـاة، عيناهـا بالـذّات لـي

علاقة وثيقة بهما، أعرفها، وأشعر بتعبها، وتجول في رأسـي أفكارهـا، ربما لأنّي كنت إيّاها كنت قبل ثمانية عشر عاماً.

هي متعبة، أو أنا كنت متعبة، متعبة من تلك القطيعة التي نعيشها من أشهر طويلة، لقاؤك في دنيا الأحلام لا يكفيني، لا يكفي جـبروت عشقي، أشكو لطيفكَ من قسوتكَ، يوسدني صدره، ويـأمّلني بـأحلام تتحقق. أحتاج إلى متعة رؤيتكَ، أشتهي مراقبة روعة سيركَ. كـلّ يـوم في الثّامنة إلّا عشر دقـائق عـبر حديقـة الأكاديميّـة نحـو الفنـاء الخلفـي للمتحف، ترتقـي السـلّم الخلفـي للمتحـف، وتـدلف إلى مرسمـكَ، طوال أشهر اعتدت على أن أقف خلف زجاج ردهة المعـرض الـدائم للأكاديمية، من هناك ومن الطابق الثالث تحديـداً أسـتطيع أن أتابعـكَ من دون أن ألفتَ نظركَ، تأخّرتَ أحياناً، لكنّني أنتظركَ دائماً، قبل أن تلفي كنت أعرف بقربكَ منّي، قلبي يعرف دائماً بوجودكَ، يقرع قلـبي بقوّة، تلفحني رائحة أنفاسكَ، تغـادرني روحـي لتـزفّ إلـيّ لقيـاكَ، فأعرف أنّك قريب، تسعد عينـاي بـاختلاس النظـرات مـن مـراقص الجنّة، وتسعد برؤيتك.

لدقائق أراقبكَ تسير بإحساس واضح برجولتك السّاحرة، قـويّ أنتَ، لكنّكَ جبان، ولكن أستطيع أن أغفر لكَ ذلك، لقد ولدت لكي أغفر لكَ، أخشى أن تتجه عيناكَ نحو الطابق الثالث، فتراني أمتّع عيني برؤيتكَ، ولكنّكَ لا تفعل، كأنّك تشفق علـيّ فـلا تحرمنّـي مـن نزيـر لقائك.

لحظات رؤيتكَ تبدو حزينة كمسافرين نلوّح لهم في الميناء، نلوّح لهم حتى يصبحوا نقطة سوداء في وسط البحر. أتذكّر كثيراً من كلماتكَ، أتذكّركَ تداعب وجهي، وتقول لي كلّما أدهشكَ نشاطي الزائد واهتمامي الدؤوب بحياتكَ: أردت امرأة مميزة، فوهبني الخالق عالماً من النّساء، كلّ نساء الدّنيا تسكنك، وأنا مغرم بهذا الحشد من النّساء.

وعدتكَ منذ زمن بأنّي لن أرحل أبداً، وأنا أبرّ بعهودي، تبدو هذه العطلة طويلة، أشعر بوحدة شديدة منذ سفر نورما إلى حيث سكن أهلها، أتناول الغذاء مع كاظم وفضيلة في مطعم الجبل حيث كنت أنا وإيّاكَ نلتقي في بعض الأحيان، ولكنّ العمل في (جنّة أجود) يشغل جلّ وقتي.

أحبّكَ وأحبّ أن أهدي الورود إليكَ، عندما أكون بين الزّهور، أستحضر جمال كلامكَ، وحسن عنايتكَ بالورود، منذ فراقنا والورود عزائي الوحيد، أحبّ أن أكون بينها، أمّا فكرة أن أعمل في حانوت لبيع الزّهور، فهي فكرة أسرار. اقتراحاتها طريفة دائماً، ولكنّ هذا الاقتراح ناسبني تماماً، ففي هذه المهنة أستطيع أن أقتل الكثير من وحدتي وفراغي، وأن أمارس بسريّة عذبة متعة مخاطبة الأزهار.

اسم الحانوت (جنّة أجود) وفعلاً كان المكان جنّة، جنّة صغيرة تسكنها الأزهار الملوّنة من كلّ صنف ونوع، منسّقة في داخل المتجر بشكل ساحر حتى تبدو وأنّها قد نبتت في هذا المكان، نباتات الزينة تغمر المكان بالخضرة الغامقة، الكثير من طيور الحبّ الملوّنة تعيش

أزواجاً وجماعات في أقفاص ذهبية معلّقة على ركائز حديدية ضخمة أمام واجهة الحانوت الزّجاجيّة , من يسير في الشّارع يظنّ أنّه سيدخل حديقة لطيور الحبّ، هناك حوض سمك واحد في المكان، يبدو أنه ملك شخصي لصاحب المتجر، وليس معروضاً للبيع، لا أملك الخبرة في معرفة أنواع السمك، لكنّ ألوان أسماك الحوض تدلّ على أنّها من سلالات مميزة، هذا المكان ساحر، بخطوة واحدة يخطوها المرء من الشّارع إلى داخل المتجر، يدخل جنّة عدن، من نسّق هذا المكان إمّا أنّه ساحر وإمّا أنّه بستانيّ موهوب.

هو مجرد موهوب، تقول أسرار. تعرّفه عليّ، ثم تعرّفني به، اسمه أجود، صديقها منذ أيّام الدراسة، وصديق زوجها، يبدو أصغر من زوجها على الرغم من تلك اللحية البنيّة التي تطوّق أسفل وجهه، يستذكران الكثير من أيّام هذه الدراسة، يذكران الكثير من أسماء الأشخاصّ، ويتبادلان المعلومات حولها، أمّا أنا فأحدّق في تلك الصّورة المعلّقة إلى يسار حوض السمك، صاحب الصّورة يملك عينين بغاية السحر، أسأله: من يكون؟

أجود:- اسمه (لينو) بطل من أبطال الروس.

الصّورة المعلّقة تذكرني بالمعلومتين الوحيدتين اللّتين ذكرتهما أسرار لي عن صاحب هذه الجنّة، المعلومة الأولى: أنّه لن يعطيني أي نقود مقابل عملي، لأنّه مجرد تدريب لي، فهو لا يحتاج أصلاً لموظف في الحانوت والمعلومة الثّانية: أنّه كان ملحداً، ثم عاد ليصبح مسلماً متديناً.

لم يسألني أجود إلّا القليل من الأسئلة التي بـدتْ أسـئلة تقليديـة أكثر من كونها أسئلة تعرّف، لا بدّ أنّ أسرار قـد حدّثتـه طـويلاً عنّـي قبل أن يوافق على عملي في جنّته، السؤال الوحيد الـذي بـدا بهـدف المعرفة: كم هي المدة التي ستمضينها في العمل معي؟

- فقط الأشهر الثلاثة القادمة، مـدّة فصـل دراسـي واحـد، أنـا أجّلت دراستي لمدة فصل، في ما بعد ستشغل دراستي معظم الوقت.

- ستكونين دائماً موضع ترحيب.

- أشكرك.

في الأسبوع الأول من العمل زارتني أسرار ثلاث مرات لتطمـئنّ على وضعي، بعد ذلك لم تزرني لمدة شهرين، ليتها فعلتْ كي أعبّر لها عن امتناني بسبب هذه المتعة العظيمة التي اقترحتها علي، العمل كـان رائعاً، الزبائن كانوا دمثين في معظم الأحيان، وأجود كان شـابّاً رائعـاً وخلوقاً، كنت أفتقد وجوده كلما ذهـب إلى أحـد الصـلوات الخمـس التي كان يصمّم على أن يؤديها حاضرة في مسـجد المدينـة الـذي يقـع في الشّارع الخلفي.

طبعه يناسب تماماً العمل في الزّهور، إذا علم أنّ الزبـون يشـتري الزّهور لمناسبة خاصّة يهديـه بعـض الزهـرات المجّانيّـة ليضـاعف مـن سعادته وغبطته، يحبّه الزبـائن، ويثقـون بـه، وكـثيراً مـا يهمسـون لـه ببعض أسرارهم العائلية أو العاطفية، وأنا أيضاً أحبّ طريقته الدّمثـة في معاملة من حوله، حتى أنّي أصبحت أضاعف من عملي في جنّتـه،

ولا أخرج منها إلّا إذا صمّم أجود على أن آخذ راحة في بيتي، بـتّ لا أخرج من البيت إلا لكي أتّجه إلى جنّة أجود.

أملك بعض الوقت للقراءة في الحانوت، بالذّات إذا كان أجود مشغولاً مع بعض الزبائن أو مشغولاً برعاية الأزهار ونباتات الزينة، أمّا إذا كان غائباً فأحدّث طيفكَ طويلاً عن هذه الأزهار، وأدعوه لاختيار أجملها لأرسلها إليك.

لقد تعوّدت على أن أرسل لكَ الورود صبيحة اليوم الأوّل من كلّ أسبوع، ولا أستطيع أن أتخلّى عن هذه العادة التي تسعدني، وأعرف تماماً أنّها تسعدكَ، حتى في الخصام تجد ورودي طريقها إليكَ. في الماضي أنا من كان يحضرها لكَ، أمّا الآن فأبعثها مع صبي المتجر، لكثرة ما أرسلته إلى مرسمكَ ببطاقة الورود، أصبح يحمل طاقة الورود الحمراء صبيحة كلّ أحد، ويبتسم لي ابتسامته الصبيانية ويقول: إلى الرّجل نفسه؟

أهزّ رأسي، وأبتسم: إلى نفس الرجل...

أوصيه في كلّ مرة أن لا يسقط أيّاً من تلك الورود، هذه الـورود أرسلت لكَ، ولا أقبـل أن يشـارككَ أحـد في ورودي، كـثيراً ماكنـت أقابل بعـض أصـدقائي وأنـا أحمـل الـورود لـكَ، تعجـبهم الـورود، ويستهدونني بعضها، أبتسم لهم وكلّي خـوف مـن أن يأخـذوا بعـض ورودي، وأقول لهم مازحة: لا أستطيع , هذه الورود تحزن إن لم تهـدَ جميعاً إلى من حملتْ له.

يسألوني بفضول: وإلى مَن حملت؟

أقول بغبطة: سرّ...

اتفقنا على أنّ العمل مجانيّ، لماذا يقدّم أجود المال لـي؟ أرفضـه، لكنّه يصمّم على أن آخذه يعلّل عطيّته بعملـي الجـاد، وارتفـاع نسـبة مبيعاته منذ أن بدأت أساعده في العمل، ويقـول إنّ عمـل السّـخرة لا يرضي الله، هو يخشى الله، حمرة من نـوع خـاصّ تعلـو وجهـه، أقبـل المال، أشكره عليـه، لا أعـدّ المبلـغ، أقـدّر أنّـه مبلـغ قليـل، أدسّـه في محفظتي، أعاود تنسيق باقة أمامي، الحمرة تفارق وجـه أجـود، ويعـود الصّفاء إليه.

أشعر بفضول نحو إيمانه الهادئ الذي يبعـث الطمأنينـة في نفـس من يعرفه، أقـترب منـه، مـا زال منهمكـاً في مراقبـة أسماكـه الملوّنـة، أحاول أن أرتّب الكلمات في ذهني، يلاحظني، يبتسم لي، أسأله:-

- تجيد الاهتمام بالأسماك والطيور والنّباتات.

- أعشقها.

- لا بدّ أنّ دراستك للزراعة قد أفادتكَ في عملكَ.

يحدّق بي مستغرباً:- الزراعة، من قال أنّني درست الزراعة؟

- أسرار.

- أسرار قالتْ ذلك؟ !

- لـيس تمامـاً، لكنّهـا قالـت أنّكمـا كنتمـا زمـلاء في الدراسـة،

اعتقدت أن...

- نعم زملاء دراسة، ولكن ليس في التخصص ذاته.

- هكذا إذن.

- لقد درست الفلسفة.

- الفلسفة! وما علاقة الفلسفة بالزّهور؟

- قصّة طويلة.

-...

- أتحبّين أن تسمعينها.

- لمَ لا؟

- لقد درست الفلسفة، ثمّ فصلت من الجامعة لأسباب سياسية، حصلت على منحة من أحد الجهات الثورية، وأكملت دراستي في موسكو، أعجبني الفكر الاشتراكي. أعجبني احترام الطبقة العاملة، والإعلاء من شأنها، أعجبتني فكرة الفرص المتكافئة، المدارس المتشابهة، المنازل المتشابهة، الرواتب المتكافئة، أحببت تلك الحياة... ثم...

- ثم ألحدتَ.

يبتسم لكلماتي كأنّه يسمع تصوّرات طفلة لقصّة ترويها، ولكن بأسلوبها: ليس تماماً، آمنت بأنّ كثيراً من القوى الغيبية ما هي إلّا طريق لخداع المسحوقين، أمّا الشعب العامل الذي تحكمه طاقته

المنتجة بحق، أعني العمّال، فلا حاجة عنده إلى إله؛ لأنّه لم يعد مسحوقاً يبحث عن مساعدة من مصدر مجهول... آمنت بأنّ القوى المستبدة تستغل الدين, وتجعل الشعوب تقبل برضا الظلم والاستبداد ومصيرها الأسود.

- الظلم ليس قدراً من الله، الله لا يقبل به، بل يدعو إلى جهاده.

- نعم، الآن أعرف أنّ الظلم ليس من قدر الله.

- لذلك عدت الى إيمانك.

- أبداً.

- بل عدت إلى بيتي لأجد الكلّ ضدّ أفكاري، ضدّ ما أسموه بالإلحاد.

- ألم يكن إلحاداً؟

- بلى، لكنّني لم أعرف أنّه كان كذلك إلّا عندما آمنت بخالقي إيماناً لا ردّة بعده.

- لا بدّ أن عائلتكَ قد أعادتكَ إلى حياة الإيمان؟

- أبداً، بل تخلّت عني تماماً، وقطعتْ علاقتها بي، حتى أمّي كانت ترفض رؤيتي، وكلّما حدّثها أحد عنّي تبكي بمرارة، إلى أن مات والدي بشكل مفاجئ، لم يرد إخوتي أن أرث معهم في البيت، أرادوا أن أبتعد عنهم، لذا وهبوني هذا الحانوت، وتنازلت لهم عن البيت، حانوت أبي كان من أقدم الحوانيت في المدينة، كان عاشقاً للزهور، لم أعد أملك أيّ شيء إلّا هذا الحانوت، أمضيت كلّ وقتي بالعناية به،

أصبحتْ الأزهار هاجسي في الليّل والنّهار، حتى في الأحلام رأيت الزّهور، رأيتها جميلة تسبّح باسم الخالق، تأمّلت الزّهور لأسابيع طويلة، ألوانها وروائحها كلّها دلائل على عظمة الخالق، لا يمكن أن تَخلق الزّهور نفسها، بل لا بدّ من خالق مدبّر، كنت أسمع الزّهور تسبّح باسم الله، أمّا أنا فجاحد كافر، في ما بعد كنت أسبّح معها، أتفكّر في قدرة الخالق، طلبت الغفران طويلاً من الله، عندما سكنتني تلك السكينة عرفت أنّ التوبة باب لا يغلق.

- أكانتْ الزّهور سبباً في تجدّد إيمانك؟ !

- بل سخّرها الله من أجل أن يمنّ عليّ بالإيمان.

- وعائلتكَ؟

- علاقتي مع إخوتي ما انفكّت فاترة، أمّا أمّي فلا أنام قبل أن أقبّل يديها، وأطلب رضاها.

- والفلسفة؟ أقصد ماذا عن العمل في مجال تخصّصكَ؟

- من قال لك أنّني لا أعمل في مجال تخصّصي، الورود لها فلسفتها، الألوان والأشكال والروائح لها فلسفتها، يحتاج المرء لحدس من نوعها الخاصّ حتى يفهم فلسفة الورود.

- حقاً؟

- أنت تملكين هذا الحدس، طريقة تنسيقك للزهور تقول أنّك تملكين هذه الفلسفة.

أأقول له إنّ عشقكَ هو حدسي الغامض؟ أأقول له إنّ طيفكَ

يختار الألوان؟ و يلهمنّي في كلّ أعمالي؟ لا.. لن أقول، بل أبقيكَ سراً لا يدرك.

- من أين لك كلّ هذا العشق؟ !

- أيّ عشق؟

- عشق الزّهور. أحبّ فيك هذا العشق.

يبتسم ويقول بنبرة دافئة: أتتزوّجيني؟

- لا.

- أنا جادّ في عرضي.

- وأنا جادّة في رفضي.

يبتسم، يعود إلى أسماكه:- أنت الخاسرة.

أنهي تنسيق الباقة التي أمامي، الزّهور الصّفراء رائعة بحق، تدلف تلك الفتاة إلى الحانوت، تقبل باسمة، هندامها أنيق، السعادة في عينيها تقول إنّها عاشقة على موعد، تعجبها الباقة، أسألها ماذا ستكتب على البطاقة؟ تهمس في أذني:- إنّها لا تجيد الكلمات لكنّها عاشقة. أدوّن لها بعض الكلمات، يعجبها ما كتبت، تشكرني، وتقول لي:- كأنّك قرأت ما في داخلي ودوّنته على البطاقة. تأخذ باقتها، وتغادر مزهوّة بها، عشقي يدوّن لكَ آلاف البطاقات، ويرسلها لكَ عبر المجهول، أكتب الكثير من بطاقات العشق للزبائن، يظنّون أنّ كلماتي يمكن أن توهب لمن يحبّون، أمّا طيفكَ فيعلم تماماً أنّ كلماتي لكَ، أكتب لكَ بالذّات، هي لكَ وإن قرأها غيركَ، يعجب من يشترون الزّهور من

كلماتي يقولون:- إنّها تصف مشاعرهم، لا عجب من ذلك، فداخلي شعوب من العشّاق، بل شعوب من العاشقات اللـواتي يـذبن عشـقاً فيكَ، عندما يذهبون بكلماتي، أدوّنها على دفـتر صـغير لكـي أقرأهـا لكَ في يوم من الأيّام.

كم أكره زهرة النرجس!! تقـول الأسـطورة إنّهـا رمـز للمـوت والهلاك، أكره أن تهدى، لذلك لم أهدها لكَ أبداً، ليت أجود يتخلّص منها، ولا يعود إلى عرضها، تلك الصّفرة التي تسـكن بياضـها تـوحي لي بالمرض المكفّن بالأبيض، يقول أجود إنّ موسـم إزهارهـا قصـير، لذا ستختفي من أسواق الورد بعد أيّام قليلة، أحمد الله لأنّها سـتذهب إلى الجحيم.

يتجـوّل طيفـكَ في المكـان، يحـدّق في الزّهـور بطريقتـه المعتـادة، يلمس زهرة، يسأل ما اسمهـا؟ أجيبـه: ليليـوم. يسـألني طيفـكَ مـاذا تقول:- أحبكَ.

- وهذه ما اسمها؟

- جبسفين؟

- ماذا تقول؟

- أهواك.

- وهذه ما اسمها؟

- لويزيانا

- ماذا تقول؟

- بجنون

- وهذه ما اسمها؟

- كازبلأنّكا

- ماذا تقول؟

- إلى الأبد.

- وهذه ما اسمها؟

- الستروفيريا

- ماذا تقول؟

- يا سعادة.

- وهذه ما اسمها؟

- كلاديولاّ.

- ماذا تقول؟

- قلبي.

تصمتْ، تقترب منّي بطريقتكَ السّاحرة تقول:- أحبك أهواك وأعبدك بجنون إلى الأبد يا سعادة قلبي. أضمّ طيفكَ، تداعب يدكَ شعري، أقول لكَ هذه الزّهرة اسمها السوسن ترمز للصداقة المخلصة، وهذه الزّهرة اسمها زهرة جوزفين، سمّيت كذلك لأنّ جوزفين أحبّتها بشدّة، وزرعتها بنفسها في حديقة قصرها في باريس، زرعتها تمهيداً لكي تهديها إلى حبيبها نابليون.

بعد يوم طويل من العمل، يدعوني طيفكَ إلى شيء من المتعة، تحت زخّات المطر، هذه الأرجوحة شهدتْ كثيراً من ليالينا، في آخر المتنزّه، حيث تعلو أشجار الكينيا، تدفع أرجوحتي بكلتا يديك، تعلو ضحكاتي، تعود أرجوحتي سريعاً إلى حضنكَ، تهديني قبلتكَ، ثم تدفعني يدرك إلى الأعلى من جديد.

هذه الليّلة لا تدفعني يداكَ القويّتان نحو الأعلى، أجلس مكسورة على الأرجوحة، أدندن بلحن حزين كنتَ تغنّيه لي، طيفكَ يردّد الكلمات بصوت خفيض، أمّا صوت عيسى فيعلو في المكان، لم أتوقّع حضوره، لعلّه وجدني صدفة في هذا المكان. يضع معطفه الشّتويّ جانباً، يدفع أرجوحتي، يقول لي:- أنت أول امرأة أدفع أرجوحتها.

-...

- غداً أسافر، جئت أودّعك.

- كيف عرفتَ عن مكان وجودي.

- كثيراً ما رأيته يدفع أرجوحتك في الليّل.

- لم أنتبه لوجودكَ من قبل.

- عندما تكونين معه لا ترين أحداً، حتى ولو كان يقف أمامك.

-...

- لا بدّ أنّه رجل محظوظ ليحظى بعشق امرأة مثلك.

-...

- سجنت في صباي في معتقلات العدو في النّقب، كان لأحد المعتقلين الفلسطينيين حبيبة اسمها غآليّة أمضت ثلاثين عاماً تنتظر خروجه من السجن كي تتزوّجه، في كل أسبوع كانت تأتي لزيارته، وعندما لا يسمح لها بالدّخول لرؤيته، تمضي النّهار تصرخ قريباً من أسوار المعتقل، تنادي باسم حبيبها، تستمرّ بذلك إلى أن يخرج الجنود، ويوسعونها ضرباً، كنّا نعتقد أنّ أيّ حبّ أمام حبّ غآليّة لا شيء. من يومها لم أعشق أيّ امرأة، عندما رأيتك، عرفت أنّك بمثل عناد غآليّة، تمنّيت حبّك، لكنّك وهبته لغيري.

-...

- سأنتظر امرأة تملك قدرتك الخرافيّة على العشق.

- أنا حزينة بسبب ما حدث لتمثالك، علمت من أحد الأصدقاء بما أصابه.

- هذا الشرخ الذي أصابه، جاء مناسباً، مناسباً تماماً، يحتاج التّمثال إلى شرخ يجسّد ذلك الشرخ في جسد الأمّة، تصوري أنّ هذا الشرخ لم يؤثّر على تقدير عملي، وحصلت على علامة مرتفعة في مادة (مساق التخرّج).

-...

- ما معنى صمتك؟

حديثه عن الشرخ يذكّرني بدموع فضيلة منذ أيّام لم يفارق الحزن عينيها، بالتحديد منذ أن اكتشفتْ كذب كاظم، لقد اكتشفتْ عن

طريق الصدفة أنّه ليس طالباً، بل مجرّد عامل كادح مـن أسـرة فقـيرة، ولـيس سـليل أسـرة متنفّـذة في العـراق، ووالـده لـيس ضـابطاً في المخابرات العراقية بل عجوزاً حطّمه المرض والكبر.

- هل ستراسليني؟

-...

- هل قلت لك: أنّك المرأة الوحيدة التي دفعت أرجوحتها؟

بابتسامة أقول: نعم، قلتَ ذلك قبل قليل.

(١٩)

ليتكَ لم تسافر يا أجود، متى ستعود؟ أشعر بحاجة ملحة إلى أخـذ استراحة والنّوم طويلاً، أنا متعبة، متعبة من كلّ شيء حتى مـن رؤيـة الزّهور، متعبة منذ أربعة أيّام، لعلي متعبة من الانتظار، بالتّأكيـد أنـت يا حبيبي لا تعرف مـا حـدث ذلـك اليـوم، وبالتّأكيـد أنـتَ لم تسـمع استغاثاتي، على الرغم من ذلك أنا أتوقعكَ، أنتظر قـدومكَ، أتخيلـكَ تدلف من الباب مبتسماً، تقف على العتبـة بقامتـك الممتـدّة وشـعركَ الشّمسيّ، فتسدّ بقامتك الباب، وتمنع أشعة الشّـمس مـن التسـلّل إلى الدّاخل، ستأتي صباحاً، سترتدي بذلتك الرماديّة؛ لأنّني أحبّها، وأنتَ ترتدي دائماً ما أحب، سـتقترب منّـي، وتصـافحني، وتبقـي يـدي في مهجع يدكَ، تقول لي: جئت ألبّي دعوتك.

- أنا لم أدعوكَ.
- وماذا عن ذلك اليوم في المسبح؟ ألم تستغيثي باسمي؟
- لا، بل كنت أريد أن يكون اسمك آخر ما ألفظ.
- إذن لم تستغيثي بي؟
- أردت أن أودّع الدّنيا على أجمل كلمة، على اسمك.

تضمنّي إلى صدرك، تقول لي بنبرتك السّاحرة:- قصّي علي مـا حدث في ذلك اليوم.

- ألم تخبرك شرف بما حدث؟

- لا، لم تخبرني.

- إذن كيف عرفتَ؟

- هل أحتاج لوسيط بيننا؟ قلبي يخبرني بحاجتك إليّ، أتظنين نفسك الوحيدة التي تملك حاسّة سادسة تخصني؟ أنا أيضا أملك حاسّة سادسة تخصّك بالذّات، أرصدك بها، و أستشعر حاجتك إليّ من خلالها.

- حدث ذلك قبل أربعة أيّام، لم أذهب في ذلك اليوم إلى العمل، بل قضيته في بيت فضيلة، كانتْ متعبة بشكل واضح، قالتْ عمتها: أنا أخشى أن تكون مصابة بالتهاب الكبد الوبائي لذا سنعرضها صباحاً على الطبيب.

خمنّت أنّ هذا الاصفرار هو اصفرار الفراق لا اصفرار المرض، حدّثتني طويلاً عن كاظم، لن تغفر له أكاذيبه الطّويلة، لكنها تحترم تفانيه وعمله الكادح من أجل أن ينفق على أسرته المحتاجة لدعمه المستمر، قالتْ: إنّه مسافر. لم أجرؤ على أن أسألها عن مصير حبّها.

ذكر الفراق يرعبني، يجعلني أظنّ أنّ هذا الذكر ليس إلّا إرهاصات تخصّ علاقتنا، ولكن عندما أتذكّر أنّ طيفكَ لا يفارقني، وأن روحاً سرمدية تسكن جسدينا أشعر ببعض السكينة. والسكينة تدعوني دائماً إلى السباحة، يقولون إنّ من يمارس هواية السباحة لا يستطيع أن يفكر بأيّ موضوع سواها وهو يسبح، يخلع كلّ الأفكار

على طرف حوض السباحة، ويقفز إلى الماء متجرداً من أفكاره وذكرياته وملابسه، أنا أفعل ذلك أيضاً، أترك كلّ ذكرياتي عند طرف حوض السباحة، أمّا أنتَ فتظل تسكنني، عندما أقفز إلى الماء، وأغوص إلى داخله، أشعر بأنّني أنزلق برفق من رحم أمي، أنزلق من زلاله الدافئ، أتحوّل في لحظات إلى امرأة ناضجة وعاشقة، يستقبلني دفء ذراعيكَ، أشعر بهما يحيطان جسدي العاري، أغمض عيني، فيحيط جسدكَ بجسدي، مدرّبة السباحة توبخني دائماً، وتطلب منّي أنّ أفتح عيني عند السباحة، أنا لا أريد ذلك، لقاؤكَ في المجهول أجمل وأعذب، تقول: أنّ من يسبح بعيون مغلقة يفقد الاتجاهات. ما حاجتي إلى الاتجاهات وأنتَ في الدّنيا؟ في كلّ الاتجاهات أجدكَ، أنا أسبح كي ألقاكَ، كي نمتع نفسينا بمتعة السباحة سوياً.

أشد ما يزعجني وجود شرف في المسبح، وجدتها في انتظاري عند باب المسبح، كيف عرفتْ عن ساعات تواجدي في المسبح؟ لقد نسيت أنّ أسألها.قالت: إنّها ترغب ببعض الحديث معي. عندما تذكّرت أنها تقضي معظم الوقت الصّباحي معكَ، شعرت برغبة في صفعها. شكرتني على كفالتي لها قبل أشهر، وعرضت عليّ رد النقود التي استدانتها منّي في ذلك اليوم، سخرت من عرضها، وسخرت من نفسي؛ لأنّني لم أتركها لتتعفن في السجن.

- لا أملك الوقت يجب أنّ أسبح الآن.

- سأنتظرك، متى تنهين السباحة؟

- لا تستطيعين الدّخول إلى المسبح، هذا ممنوع لغير الأعضاء.

- سأكتفي بمشاهدتك من شرفة الزوار المطلّة على المسبح.

- ما أدراك بوجود مثل هذه الشرفة؟

- أحضر أحياناً إلى هنا مع بعض الصديقات.

أتساءل في نفسي مع بعض الصديقات أم معكَ؟ ترافقني إلى غرفة الملابس، تحدّق في جسدي، تتفقّده بشكل واضح، أظن أنّ لون أديمه أكثر ما يلفت انتباهها، أتعمّد أنّ أبقى أطول مدة أمامها لأعطيها الوقت الكافي لاختلاس النظرات، لا بدّ أنها عنّت نفسها بهذه الزيارة لكي تكتشفني عن قرب. طوال الساعة الأولى من السباحة، تجاهلت وجودها، بل تجاهلت تلويحها لي بيدها من وقت إلى آخر، لا بدّ أنها قد ملّت من مراقبتي من بعد، هي تنتظرني، أما أنا فأتعمّد أن أطيل فترة لهوي مع طيفكَ في الماء.

شعرت للحظة بطيفكَ يتبخّر من جانبي، لون الماء أصبح أزرق، أمّا بريقك السّحريّ اللامع فقد اختفى تماماً منه، هل جاءت شرف لتغرقني؟ لتقتلني بلعنتها، أغمض عيني، أبحث عنكَ، لا أثر لكَ في الماء، جسدي يتهاوى إلى الأسفل، أرتال الماء تربض على صدري، ودفق الماء يندفع بقوة إلى جوفي، سأموت، لا بد أنّني سأموت، أصرخ باسمكَ، أناديكَ أنتَ بالذّات، أحاول دفع جسدي إلى الأعلى، أصرخ باسمكَ مرة أخرى، ثم تخور قواي، أحاول أن أدفع نفسي إلى الأعلى مرة أخرى، لكن لا فائدة، يبدو أنّه الموت، لا أعرف ماذا حلّ بجسدي، ولا أعرف ما حلّ بطيفكَ، أين هو؟ لا بدّ أنّ صرخاتي قد ملأتْ أجواء المسبح، لا بد من الاستسلام، فليكن إذن...

الكثير من السيقان العارية حولي، جمع من الألوان يغزو بصري، هل أنا ميتّة، أشعر بأنّ طيفكَ قريب منّي، لعلّي في الجنّة معكَ، وإن كنت في الجحيم فلا أبالي إن كنت معكَ، يقترب وجه نسائي منّي، يصفعني برفق، يقول لي: أأنت بخير؟

مجموعة من الوجوه الفضولية تقترب منّي، أفتح عيني بتثاقل، ماذا حدث؟

- لا بدّ أنّك قد أصبت بشدّ عضلي حاد في قدميك.

- هل أنا ميّتة؟

تبتسم الوجوه، وتقول المدربّة: لا، أنت في خير.

- حقاً؟

أين شرف؟ ها هي ما تزال في الشرفة المطلّة على بركة المسبح، حسناً أنّها لا تستطيع النزول إلى هنا، تقترب المدرّبة، تهمس في أذني قائلة، من هو...؟

-...

- لقد استنجدت به وأنت تغرقين.

-...

أرتدي ملابسي على عجل، أجدها تنتظرني على باب المسبح.

أسألها: تأخّرت؟

- ملابسك مبتّلة.

- لا أحب أن أجفّف جسدي، أحـبّ أن يجـفّ بالتـدريج أثنـاء سيري في الليّل نحو المنـزل.

- ولكنّ الجو بارد، سمعت أنّ ثلوجاً متوقع أن تسقط في الأيّـام القادمة.

- أنا أحبّ السير في الجوّ البارد.

- إذن سأسير معك.

- كما تشائين.

لن أسير في الطّريق القديم حيث اعتدت أن أسير وإيّـاكَ في كـلّ ليلة، لا أحب أن يشاركني أيّ شـخص في اسـترجاع ذكريـاتي معـكَ، أختار الطّريق الرئيسي، معتم بعض الشّيء، ولكن لا بأس، خطـواتي أسرع من خطوات شرف، تتحدّث كثيراً، صـوت السـيارات المسـرعة تضيّع عليّ سماع بعض كلماتها، تتحدّث في مواضيع تـدور حولـكَ، لا بدّ أنهّا تحاول أن تخبرني بشيء معين، وإلّـا لمَ جـاءت إلى زيـارتي؟ بالتّأكيد لم تأت لتشكرني على أمر حدث منذ أشهر.

أتساءل هل سمعتني أستغيث باسمكَ؟ نظراتهـا محايـدة لا تشـي بأيّ شيء، السيارات مسرعة، وتكاد تلامس جسدينا، مـاذا سـيحدث لو دفعتها تحت عجلات إحداها؟ وتخلّصـتْ مـن صـحبتها الكريهـة؟ حتى في الليّل تشاركني في طيفكَ، وتسير عنوة معي.

تقول لي: إنّها تحبّكَ، وتتعّهد بإسعادك.

أقــف أحــدّق في وجههــا، أفكــر جــدّياً في إطعامهــا لإحــدى السيارات، أوقف سيارة أجرة، أركبها وأبتعد عنها قبل أن يفلتَ زمام أعصابي من يدي، وأقتلها.

يبتسم طيفكَ، ويقبّلني قائلاً: غيورة.

- فقط عليك.

ليتك تطيل زيارتكَ، لكنّكَ تختفـي مـن أمـامي، تـدخل أسـرار، تقول لي بابتسامتها المعتادة: لا تبدين سعيدة لرؤيتي.

- بل سعيدة تماماً.

- كنت في الجوار، ففكرت في إلقاء التحيـة، يبـدو أنّـك سـعيدة هنا.

- جداً.

- لا أرى أجود، أين هو؟

- لقد سافر إلى الساحل.

- سافر إلى الساحل! لمَ؟

تدخل فتاة محجّبة، قصيرة القامة ونحيلة، تمشي كما اللعبة، تسـلّم عليّ، تهمس بخجل واضح: هل عاد أجود؟

- لا، ليس بعد، أظنّه سيعود الليّلة.

- اطلبي منه أن يتصل بي حال عودته.

- سيفعل ذلك دون أن أطلب منه. تفضلي استريحي.

- لا عندي الكثير من العمل.

تغادر سريعاً، أشيّعها بعيني، ألتفت نحو أسرار، أقول لها: اسمها هلا، طالبة في معهد الجيولوجيا.

- تبدو صغيرة، أعمرها عشر سنين؟

- يكفيك سخرية، هي بمثل عمري.

- لقد سافر أجود إلى الساحل لكي يخطبها من أسرتها.

- ماذا؟ !

- لقد عرفها منذ أسبوعين، دخلتْ تطلب شراء حجر جيري، عرض صدفة إلى جانب باقة زهور في واجهة الحانوت الزّجاجيّة.

- و لِمَ تشتري الأحجار؟

- هي مهتمة بالأحجار، تراقبها، بل تبحث عنها في الشوارع، ولا تجد حرجاً في التقاط بعضها من الشّارع، ولا تسمح لأحد بلمس أيّ من حجارتها.

- ألهذه الدرجة تهتم بتخصصها؟

- تقول إنّ الأحجار كما البشر، تفهم وتحسّ، بعضها جميل وطيّب، بعضها خبيث وشرير.

- وما قصّة الخطوبة؟

- يبدو أنّ قلب أجود قد فتح لها، لقد شجّعته على الزّواج منها، تبدو فتاة مهذبة، أرجو أن يوافق أهلها على الخطبة.

- أظنّهم سيفعلون، أجود شاب ممتاز.

أقول ضاحكة: نعم هو يعشق الأزهار، وهي تعشق الحجارة...

- يجب أن أذهب الآن.

- ابق قليلاً.

- لا أستطيع، يجب أن أذهب، زوجي ينتظرني في السيارة.

تخطو سريعاً إلى خارج الحانوت، يدنو فتى الحانوت منّي، يقول بنبرته الطفولية الشقيّة: أهذه هي زهور هذا اليوم؟

- نعم.

- أأرسلها إلى نفس الرجل؟

- نعم إلى نفس الرجل.

أمسك ببطاقة، أخط فيها قصيدة لطالما أحببتها، وقرأتها على مسمعي، أكاد أسمع صوتكَ ينشد:-

ألفيتها مخضّلة في روضها والفجر بين ذيوله يطويها

حتى إذا انتفضتْ عليه، تجمّعتْ أنفاسه، وتجمّدتْ في فيها

وتمايلتْ تيهاً، بعرس فتونها وزهت وعرس فتونها يبكيها

والطيّب مسفوح على جنباتها يهمي على روحي بما يشجيها

فلويت في شبه الذهول أناملي وقطفتها...لهفي لمن أهديها؟ !

يطوي فتى الحانوت البطاقة في جيبه، ويسرع بعيداً وهو يحمل الورود الحمراء، يقول كاظم: ما أجملها من زهور!

لم أتوقع حضوره، يمسك بقبضة يد فضيلة، ما أجمل شعرها بهذا الشّكل! لكنّ وجهها أصفر بل شديد الصّفرة، لعلّها مريضة حقاً كما تقول عمتها.

أحدّق في وجه كاظم وهو يدنو منّي، وجهه باهت كميت على الرغم من ابتسامته الكسيرة، أقول له: أهلاً وسهلاً بكما.

- لقد جئت كي أودّعكَ، سأعود إلى البصرة، اليوم مساءً.

كوقع الصاعقة يقع الخبر عليّ، أحاول أن أفهم سر ابتسامة فضيلة، وما معنى تلك الدموع التي تتراقص في عينيها؟ لا أعرف لِمَ أتذكّر تمثال عيسى؟ أرى الشرخ في وسطه يتمدّد حتى يهشّم جسد التّمثال.

- أتذهب إلى البصرة؟ الإيرانيون يقصفونها بشدة.

- يجب أن أكون إلى جانب أسرتي، سأعمل، وأكمل دراستي في جامعة البصرة، وأعود لأخطب فضيلة.

- حقاً؟ ستتزوّجان إذن؟

- عندما أكون جديراً بها، سأفعل، صدقيني يا ...لقد قهرني الفقر، وحرمنّي من كثير من الأمور، قضيت أجمل أيّام عمري، أطارد لقمة العيش كي أعيل أسرتي، قهرني الفقر، لكنّني سأنتصر عليه هذه المرة، ولن أسمح له بأن يحرمنّي من فضيلة. دائماً كذبت، وأخفيت

ظروفي، أمّا الآن فأنا مستعدّ لأن أواجه الدّنيا بحبّ فضيلة.

أقطف زهرة بيضاء، أغرسها في جيب قميصه، أقول له: لا تتأخر علينا، يبتسم بفتور غريب، يقبّل يديّ، لا بد أنّه يشعر بمدى تعاطفي معه، يصمت ثم يقول: اذكريني في دعائك.

- سأفعل.

تهمس فضيلة بنبرة كسيرة: ألم يتصل بك؟

أومىء برأسي نافية ذلك.

تقول لي: شرف...

- أقول متمنّية، هل ماتت؟

- بل تزوّجتْ...

أشعر بالجفاف يلفح حلقي، لا دماء تسكن جسدي: هل تزوّجته؟ !

تبتسم بسكينة: لا، بل تزوّجتْ ثرياً يسكن العاصمة.

- متى حدث ذلك؟

- قبل يومين.

- وهو؟ !

- اتصلي به، لا تتركيه وحيداً ... أراك في ما بعد.

قلت يا شرف أنّك ستسعديه، أي سعادة عنيت؟ أرجو أن تذهبي إلى الجحيم، أحدّق في وجهكَ يا حبيبي، يعلوه شحوب غريب، ما

تراكَ تكتب؟

المكان مظلم وبارد أكثر مما يجب، كيف تراكَ تحتمل هـذا الـبرد؟ أدلف إلى المرسم، أقترب منكَ، أقف قريباً من مقعـدك، ألمـح ورودي التي أرسلتها في الصّباح، مـا تـزال مسـجونة في غلافهـا البلاسـتيكي، معظمها قد ذبـل، ألم تجـد وقتـاً لإنقاذهـا مـن سـجنها البلاسـتيكي؟ أتناولها، أنسّقها على عجل في الزهرية، لا أنظر إلى ناحيتـك، ولكـنّني أشعر بنظراتكَ تقترب منّي، أنفاسك تلفح رقبتي، تهمس بصوت كأنّه آت من القبر: لقد تأخّرت... انتظرتك طويلاً، ظننت أنّك لن تقهـري كبرياءك.

-...

- ضميني أنا محتاج لك، محتاج إلى حبّك المتدفّق دون انقطاع.

تتهاوى بصمت في مقعدكَ الجلدي، تصمت، تحـدّق بـي، كيـف لي أن أضمّ قامتـك الممتـدة؟ أجلـس في حضـنك، تطـوّقني، فـأطوّق عنقكَ بقبلاتي، أشعر بدموعكَ تتدفَق سريعاً، أمدّ يـدي إلى وجهـك، أمسح دموعك، أقبّل عينيكَ كأنّني أرجوهما، أتوسّل اليهمـا، همـا لا تسمعان توسلاتي، بـل تقـابلان دمـوعي بصـمت، حشـرجة بكائـكَ تعلو، تبكي كما الأطفال، وأنا أبكي رجولتكَ الباكية، أنت لا تعـرف مدى الحزن الذي يسكن قلب امرأة عندما يبكي الرجـل الـذي تحـبّ امرأة سواها، لا تعرف ذلك الشتات الذي يسكن قلبها، لا تعرف أيّ الدموع تجتاح ذاتها، تحمل أحزاناً مستحيلة، وتقـدّمها قربانـاً لأحـزان من تحبّ، تمدّ يدها لتمسح دموع حبيبها، وتبقى دمـوع قلبهـا دون يـد

تمسحها، لا بدّ أنّك شديد الحزن حتى تبكي بهذه الحرقة، أكنت تحتاج إلى حضني لتبكي شرف؟ أضمّكَ بشدة إلى صدري أكاد أسمع وجيب قلبكَ، شرف! ! سأقتلك ماذا فعلت بمن أحبّ؟ كيف تجرؤين على إيلامه إلى هذا الحد، الويل لك منّي.

أحدّق في تلك الورقة التي كنتَ تخطّ فيها، أأنتَ من كتب هذه الأشعار؟ تهزّ رأسكَ، أقرأ ماكتبتَ، لا بدّ أنهّا من تخاطب في كلماتكَ، أحاول أن أمثّل الهدوء والحيادية، أقرأ كلماتكَ، ابتسم، أقول لكَ وأنا أمسح آخر دمعاتكَ: لم أعرف أنّك تكتب الشّعر.

- نادراً ما أفعل.

- لو كنت مكأنّك لكتبته باستمرار، تملك موهبة جيدة.

أقبّلكَ، كأنّني أكافئك على ما كتبتَ، تقول لي بنبرة معاتبة: كنت أعلم أنّك ستأتين، لمَ تأخرت؟ أعرف أنّك لا يمكن أن تتخلى عني.

- أبداً لا يمكن.

- لقد حضرت زفافها، كانتْ سعيدة، أنا سعيد لأجلها، قالت إنّها لن تنساني.

- نعم، لن تنساك، لا امرأة تعرفك تستطيع نسيأنّك.

-...

- هل سافرتْ؟

- نعم... البارحة.

أعاود قراءة ما كتبتَ، اقرأ بصوت مرتفع: "... قد أتتك حبيبتي في ثوبها الأبيض عروساً كالقمر، كأردية السحر".

أبتسم مقتولة، وأقول بنبرة أحاول أن تبدو كنبرة حازمة: إذن فهي حبيبتكَ؟

لم أقابل امرأة تحتاج إليّ مثلها، كلّ رقة الدّنيا تسكن فيها... أردّد في ذاتي: كلّ رقة الدّنيا تسكن فيها، بدليل أنّها تخلّت عنكَ، ولحقتْ بأوّل رجل لوّح لها ببعض المال.

أداعبكَ، ألقي برأسي إلى صدركَ، تضمنّي بقوة، أتراكَ تتخيلني هي؟ أمّ تتمنى لو كانتْ في حضنكَ: لقد عشت حياتي يتيماً بلا أب يعطف علي، لطالما حلمت بأب انتظرته في كلّ ليلة، أنا أعرف معنى انتظار أب يهب الحبّ والحماية، هي يتيمة الأب مثلي تحتاج إلى عطف، أعطيتها كلّ العطف والحبّ والحماية بل والمال، كنت مستعداً إلى أن أرعاها طوال عمري، كلما نظرت في عينيها رأيت طفولتي القاسية، كلما ساعدتها شعرت بأنّني أساعد ذلك الطفل الحائر في عينيها، في طفولتي لم يرعاني أحد، لذا قرّرت أن أحميها من ذلك الضياع الذي تعيشه.

أحدّق فيه، أشعر أنّني أكره شرف أكثر مما تخيلت، كيف استطاعت أن تستغلّ بخبث عواطفك؟ لا بدّ أنّها خبرتْ الاستغلال، وعرفتْ كيف تستدر عطف من أحبّها وماله.

الثلج يتساقط في الخارج، نتابع سقوطه من خلف زجاج النافـذة وتقول: أنت فتاة محظوظة، وجدت دائماً من يحبّك ويعـتني بـك، أمّـا هي فلم تجد غيري ليرعاها.

أقول بنبرة حانقة: ها قد وجدت زوجاً غنياً ليرعاها.

تقول كمن يعزّي نفسه: ولكنّها ستحبّني دائماً.

أفاجئك بكلماتي: و لِمَ لم تبقَ إلى جانبك وهجرتك دون رحمة إن كانتْ تحبّك؟

- أنت لا تفهمين الأمـر جيـداً، يجـب أن تتـزوّج، هـي ضـعيفة تحتاج إلى زوج يحميها، أنا أحبّهـا ولكـن بطـريقتي، لا تطلـبي منهـا أن تكون بمثـل قوتـك، لا تسـتطيع أن تصـمد مثلـك وتقـول: لا، لكـلّ الدّنيا، وتبقى قريبة منّي، هي مختلفة عنك.

- لعلها لا تحبّكَ مثلي؟

تحدّق بي، ثم تقول مستسلماً: لا يمكن أن تحبّني امرأة كما تحبّيني، ... أنت حالة استثنائيّة في الحبّ بل وفي حياتي، أعرف أنّ لقائي بـك حدث خاصّ في حياتي ... منذ رأيتك لامست قلبي كما لم ولن تفعل أيّة امرأة، ألم أقل لك أنّني أحتاج إلى قوة مهولة حتى أسـتوعب حبّـك المجنون، لك مكانة مقدّسة في قلبي، تتجاوز الحـب، وترقـى عنـه، لـك مكانة في قلبي لم يدركها أحد من قبل.

- وماذا عن شرف؟

- حبي لشرف شعور تقليدي، يزول سريعاً بالسّـرّعة ذاتهـا الـتي

دخلتْ فيها حياتي، أمّا أنت، أمّا تقديسي لـك، فهـو لعنـة لا تـزول، وأعذب ما فيها أنّها لا تزول.

أنا لعنة إذن، كم أنا محظوظة بهذه التسمية! لعلّي محظوظة لأنّـني شديدة القوة والتماسك كما تقول، أنا قوية ومتماسـكة حتـى أنّـني لا أحتاج إلى حبّكَ، وهي ضعيفة ورقيقة لذا تحتاج حبكَ، معادلة غريبـة، كيف صغتها بهذا الشّكل؟ من قال إنّ النّساء الملعونات بلعنة العشـق لا يحتجن للحب والدفء أشدّ الحاجة؟

بدأت أصدق تلك الخرافة التي حدّثتني عنهـا جـدّتي باسـتمرار، بدأت أصّدق أنّ نساء عائلتي جميعهن ملعونات، تقول جدّتي إنّ أحـد أفراد عائلتها تزوّج من صبية طيّبة قبل مائة عـام، ولكنّـه كـان قاسـياً معها، بل وحبسها طويلاً في البيت، ومنعها من زيـارة أهلـها، ظلمهـا كثيراً، فدعت الله أن تظلم نساء عائلته، ولا يذقن طعم السـعادة كمـا حرمت منها، تقول جدّتي: إنّ الله استجاب لها؛ لأنّها كانت مظلومـة، ومن ذلك اليوم نساء عائلتي ملعونات لا يعرفن معنـى السـعادة، ولا يشعرن بها أبـداً، لا بـدّ أنّ تلـك اللعنـة تحصـل عليهـا نسـاء عـائلتي بالوراثة. أنا ملعونة، ملعونة بـكَ، ولا أعـرف طعمـاً للسـعادة بعيـداً عنك، أين أنـت يـا جـدّتي؟ لتبكـي طـويلاً علـى تلـك اللعنـة الـتي أصابتني، أنا ملعونة، وأنت تعشقين البكاء.

طوال الطّريق، توقّفت لأرى أثـر خطـواتي علـى ذلـك الغطـاء الرقيق من الثلوج التي تتساقط ببطء، الغطاء أبـيض ناصـع اللّـون، لا أرى دمائي تخضّب بعض أجزائه، أيعقل أنّ امرأة مقتولة بل ومذبوحة

مثلي، لا ينهمر دمها غزيراً على الأرض؟ ! لا بد أنّ دمائي تذوب بسريّة في دموعي التي تغسل وجهي بدفء غريب طوال الطّريق، الآن جاء دور بكائي، ولكنّ يدك لا تمسح شيئاً من دموعي.

في البيت أجد نورما، كم تسعدني عودتها، تضمّني باشتياق حلو، تقول لي: أكنت معه؟

أهزّ رأسي بالإيجاب، أتساقط على الأريكة، أتابع كرة الثلج البلورية التي أهديتني إيّاها في العام الماضي، تحرّكها نورما، يهتزّ الثلج، يتساقط، ويغمر الكوخ الموجود في داخل البلّورة، صوت الموسيقى يرافق سقوط الثلج، يتوقّف انهمار الثلج داخل البلورة الزّجاجيّة، تحرّكها نورما مرة أخرى، فيعود الثلج يتساقط داخل البلورة.

تقول لي: كنت أعلم أنّكما سوياً، لا بد أنّكما كنتما تراقبان بسعادة تساقط الثلوج، أيّ كلمات العشق قال لك؟ هيّا أخبريني، أما تزالين متكتمة حوله؟ ما أجمل العشق تحت الثلج!

- نعم ما أجمل أن يضمك رجل تعشقينه تحت الثلج! يضمك بصمت حتى يغمرك الثلج وإيّاه، تصبحان بحبكما جزءاً سعيداً من عشق الطبيعة.

تقول نورما مازحة: ويموتان من العشق.

- لا أحد يموت من العشق، بعض الناس تموت إذا مات عشقها.

أتزيّن، أتعطرّ، أسرّح شعري، ألبس الأزرق؛ لأنّك تحبّه، أنتظر مكالمتك، أعرف أنّك ستفعل، وأنا أحبّ أن ألقى صوتك بطقوس استقبال خاصّة، أرشف بعض الشاي من الكوب الفخاري الصّغير الذي صنعته لي بيديكَ، حفرتَ عليه صورة إله الحبّ عند الإغريق، يحمل قوسه وسهامه ويطير مزهوّاً بها.

يقرع جرس الهاتف، يكاد قلبي يطير، ترتجف يداي كعادتهما كلما كلّمتني، يتدفق صوتكَ العذب، يغرقني بهمساته، يقتلني، ولكن بسعادة...

(٢٠)

- سنحتفل بعيد رأس السنة معاً.
- ولكنّني لم احتفل أبداً من قبل برأس السنة.
- ولا أنا.
- فلمَ تريد أن تحتفل به الآن؟
- ألا تستحق امرأة مثلك الاحتفال بوجودها في كل لحظة؟
- لكنّكَ تحتفل بولادة عام جديد، ولا تحتفل بوجودي.
- بل احتفل بسعادتي بولادة عام جديد وأنت في حضني.
- لَمَ لا؟ لنحتفل، اين سنحتفل؟
- ألم أقل لك سنحتفل وأنت في حضني...
- لا أفهم.
- مفتاح بيتي ما يزال معك منذ مرضي أليس كذلك؟
- ولكنكَ كنتَ مريضاً حينها، وكان لي عذري في زيارتكَ...
- الآن أنا مريض بمرض آخر، وبشكل مزمن، ولا داعي لأن تبحثي عن مبرّرات وأعذار لزيارتي.

أحدّق في ابتسامتكَ، أذوب في كلماتكَ، ليتكَ تعلم كم انتظرت لحظة لقائكَ، لا بدّ أنّني أنتظرها من ألف عام، تصوّر أشواق ألف عام

تنتظـركَ، ليتـكَ تعلـم أنّـني خلقـت لكـي أحبّـكَ، تسـألني إن كنـت أخشاكَ؟ أبتسم من سؤالكَ، كم أنتَ جاهل!! لكـنّني أعـذر جهلـكَ؛ فأنتَ لم تقابل امرأة نذرتْ نفسها لك، امرأة هي لكَ، هي جزء منـكَ. أيخشى الجسد ذاته؟ أترتـاب الـنفس مـن ذاتهـا؟ أتخشـى الزّهـرة يـد زارعها؟ أنا هبة لكَ، أنا أهبكَ نفسي كما وهبتكَ قلبي وعمري.

تقول لي: سأنتظرك.

- سأحضّر لكَ مفاجأة تدهشكَ.
- مفاجأة تدهشني أكثر من حضورك؟
- نعم.
- لا أستطيع أن أتخّيل شيئاً يدهشني أكثر من وجودك.
- وجودي معكَ قدر، قدر لكلينا، والقدر لا يدهش بل ينتظر...
- هل أستطيع أن أخمّن ما نوع مفاجأتك.
- افعـل ذلـكَ وعنـدما نلتقـي سـتعلمنّي بتخميناتـكَ، لـكَ عشـرة تخمينات.
- موعدنا بعد غد، الساعة الخامسة مساءً، عند الغروب تماماً.
- عند الغروب تماماً، سـأزوركَ بأشـواق (أرتـيمس)، عنـدما تهـبط أرتـيمس بقمرهـا الـورديّ، سـأكون أول مـن يطـالع وجهـكَ الشّمسيّ، ويقدّم له قرابين الحبّ.
- سأتصل بك مساءً.

- لا تفعل، دعني أحترق بسعادة، دعني أنتظر بعد غد بشوق معتكف ينتظر هلول البشارة، دع أنوثتي تنتظر رجولتكَ دقيقة بعد دقيقة.

أنا لا أخشى الدّنيا، لا أخشى فكراً وتقاليداً وعادات تطعم حبّي للنار، وتصادر جسدي بتهمة العشق، لكنّني أتكتّم على لقاءاتنا؛ لأنّني غيورة، غيورة جداً، أغار من أن ألمحكَ في عيون النّساء الحالماتْ، أغار من أن يشاركني أحد متعة الذّكريات معكَ، ذكرياتنا ملك لنا، لنا فقط، وسأسرق عمر من يفكر بمشاركتي فيها.

من حانوت إلى آخر، أنتقل، أشتري الورود والشموع، الكثير من الشموع، أطالع تلكَ الورقة التي أكتب فيها ما علي انجازه أو شرائه قبل لقائكَ، القائمة طويلة، معظم ما كتب قد خططت فوقه بقلمي، أحبّ الكتابة بالرموز؛لأنّ العبارات العادية لا تكفي أحلامي بل لا تستوعبها جميعاً، ما زال عليّ الكثير لأعمله، لكنّ الوقت ما زال مبكّراً حتى تغيب الشّمس وتحلّ الخامسة، كم أنا سعيدة، أحقاً سألقاكَ؟

أنا سألقاكَ، يا لها من فرحة! ليتني أهدي البشر كلهم أزهاراً ابتهاجاً بلقائكَ، ليتني أخبر ذلك البائع المتجهّم بسعادتي، لقد تأخّر في الدّاخل، ماذا يفعل؟ يستغرب ابتسامتي العميقة، يضع أمامي ذلك الكيس الأبيض الكبير، أتحسّسه برفق، أحلم بما فيه، أدفع النقود، أشكر أجود في نفسي، لولا ما وهبني إيّاه من نقود لما استطعت أن أحلم بما في هذا الكيس. أبدو كالراحلة بهذه الأكياس، وبهذه الحقيبة

السوداء الكبيرة.

بضع درجات تفصلني عن بوابة بيتكَ، لَمْ أشعر أنهّا مسافة خرافيّة؟ قلبي يضطرب بشدّة، هذا العرق وهذا النفس المتقطع أهما إشارة إلى أنّني سأصاب بذبحة صدرية بسبب تلك الإثارة التي أشعر بها؟ يستحيل أن تصف الكلمات ذلك الشعور الذي يتملّك الإنسان قبل لقاء من يحبّ، يجعله يشعر بأنّه بين الحياة والموت، بين السعادة والبكاء، بين التقدم خطوة أو الهروب، كيف سألقاكَ، أستكون مبتسماً أم متجهّماً أم متوتّراً معي؟ أيّ التحيات سألقي عليكَ؟ أيّ التحيات ستردّ بها عليّ؟ أستستقبلني واقفاً أم جالساً؟ أين سأنام؟ أين ستنام؟ أيّ الروائح تسكن بيتكَ الآن؟ في أي المواضيع سنتحدث؟ أيمكن أن أسير حافية في البيت؟ أمرتب بيتكَ أم يحتاج إلى شيء من الترتيب؟ أنا محتاجة إلى استخدام الحمام، كيف سأطلب منكَ ذلك؟ أم يكفي أن أتوجّه إليه من دون سؤالكَ، عندي فضول حول كلّ شيء في بيتكَ، أأستطيع أن أروي هذا الفضول؟ أم أنّك من الأشخاصّ الذين يكرهون أن يلمس أحد أدواتهم وأثاثهم؟

شيء في بيتكَ قد تغيّر عن آخر مرة، ربما رجولتكَ الغامرة في كامل صحتها تعطي سحراً خاصّاً للمكان، أو لعلّ تلك الستائر تغمر المكان بظلام هادئ، هذه المقاعد الفرعونية جديدة، لكنّها تغمر المكان بطقوس خاصّة، ما أجمل هذه النّباتات! تنتشر على طول الرّدهة المؤدية إلى غرفة نومكَ، كم هي نباتات سعيدة، أترويها كلّ يوم؟ أتراكَ كلّ يوم؟ يا لها من محظوظة! تلك الموسيقى تغمر المكان بسحر

خاصّ، البيت يشّع نظافة، أتساءل كم من الوقت أمضيتَ حتى غدا المكان بهذا الترتيب؟ أحدّق فيك، هيئتكَ تدلّ على أنّك قد حضرتَ إلى البيت قبلي بقليل.

- لقد تأخّرت؟

- لا، بل على الموعد.

تضمنّي، تداعب شعري وتقول: رائع، تحدّق في الأكياس و الحقيبة السوداء الكبيرة، تقول لي: ما كل هذه الأكياس؟ أيّ نوع من العاشقات أنت؟ !

- عاشقة بجنون...

- أنا جائع، ما رأيك بعشاء فريد؟ أنا ماهر في الطهو، سأذيقك ألدّ (فيتو تشيني) في الدّنيا.

- فيتو تشيني؟ !

- إنّها معكرونة إيطآليّة تتكوّن من المعكرونة وصدر الدجاج والجبنة البيضاء، لقد تعلّمتها من جارة لي عندما كنت أدرس في إيطاليا. يجب أن تذوقيها.

- نعم...

- أستأذنكَ في نصف ساعة، سأحضر مكوّنات هذه المعكرونة من أقرب حانوت وأعود حالاً.

- وأنا ماذا أفعل؟

- البيت بيتك، تصرفي فيه كما تشائين.

- لا تتأخّرْ.

- لن أتأخر.

نصف ساعة ستغيب عني، نصف ساعة فقط، أحتاج إلى قرن كامل في بيتكَ، أريد أن أحدّق في كل ما يحتوي بيتكَ، كل قطعة أحبّ أن أتأمّلها، أن أتساءل ما الذي أعجبكَ فيها، كم من المرات تتعامل معها في النّهار؟ في أيّ الأكواب تشرب؟ في أيّ الصحون تأكل؟ أطالع أشرطتكَ وأسطواناتكَ , معظمها لفريد الأطرش، بعضها بلا اسم لمغنّيها، لا أجد أيّ شريط باللغة الإيطاليّة، أليس هذا غريباً! أدير مفتاح الراديو، صوت مذيع محطة (مونتي كارلو) يقرأ نشرته الإخبارية بلغته الرصينة، أهذا هو ما تسمع في كلّ صباح؟

ألقي نظرة سريعة على مكتبتكَ، أطالع بعض الأوراق، قريباًمن الهاتف أطالع دفتر العناوين وهواتف معارفكَ، أقلبّه، أضعه جانباً، نافذة غرفة نومكَ تطل على غابة صغيرة من أشجار السّرّو، في الحوض المعلّق إلى جانب الناحية الخارجية من النافذة تحتوي أنثى السّنونو صغارها برفق، لا بدّ أنّها اختارت هذا المكان لتكون قريبة من عطفكَ وحبّكَ.

أقترب من سريركَ، أشتم رائحتكَ، أفتح خزانة ملابسكَ، أتحسّس برفق ملابسكَ، رائحتكَ تسكن الخزانة، آخذ نفساً عميقاً تمتلئ رئتاي بالرائحة، أحقاً أنا في معبدكَ؟ ليت أسوار هذا البيت

تعلو حتى تصل أعنان السّماء وتحصرني أنا وإياكَ للأبـد، بعيـداً عـن كلّ البشر أنا وإياكَ والسعادة فقط.

أكياسي تحمل أسراراً تخصّكَ، أفتحها بسعادة كما الطفل يستقبل هدية، في كلّ الزوايا وفي كلّ الزهريـات أنشـر الـورود الـتي اشـتريت الكثير منها، أخصّ غرفتكَ بالياسمين، أغرقها باليـاسمين حتـى تبـدو الغرفة قـد نبتـت بـين أشـجار اليـاسمين، مسـكينة شـجرة اليـاسمين المزروعة في بيت الضّيافة، لقد جرّدتها هذا الصّباح من كـلّ زهورهـا، أنا واثقة من أنهّا سعيدة بعطيتها لي، فهي لم تُخلق إلّا للمحبين.

قبل دقائق كان المكان يغرق بالظلام، أما شموعي الـتي تجـاوزت المئة فقد أنارت المكان ببقع ضوئيّة خافتة، المكان يبدو كأنّه قطعـة مـن السّماء السوداء تكسوها النّجوم اللامعة في ليلة صيفية.

أغتسل بسرعة الـبرق، أتعطّـر، أسـرح شـعري كمـا تحبّـه تمامـاً، مسدل وبعض خصلاته تزيّن وجهي وكتفيّ، أقدم بفـرح علـى ذلـك الكيس، بفرحة مستحيلة التكرار, أخـرج الثـوب منـه، بياضـه يغمـر المكان، يبدو كأنّه قد حيك من زهـور اليـاسمين البيضـاء الـتي تغـرق الغرفة، أضمّ الثوب إلى صدري، أمام المرآة أقربه من جسدي، أحـاول أن أتخيّل جسدي يسكنه. لهذا الثوب سحر غريب على المرأة، عرفـت الآن معنى الحسرة الـتي تملـك قلـب النّسـاء اللـواتي لم يلبسـن ثـوب الزفاف، فرحة لبسه فرحة لا تضاهيها فرحـة، لا يمكـن أن تشـعر بهـا المرأة إلّا وهي تلبسه، لونه الأبيض يجتاح قلبها العاشق، يؤكّـد أنوثتهـا تزفّ إلى رجل يحترق شوقاً إلى لقياها.

آه كم أحبّ جسدي وهو يعانق بخفر هذا الثوب! هل اللّون الأبيض يعكس حمرة خاصّة على بشرة وجهي؟ أم أنّ إثارة جامحة تجتاحني كلّما تخيّلتكَ تقترب من البيت؟ تدلف إليه، لتقع عيناكَ على ثوبي. أنا سعيدة، سعيدة إلى حدّ الموت، يبدو أنّ لهذا الثوب وقعاً سحرياً على قلبي، لطالما تمنّيتْ أن تراني أمّي به، فأنا وحيدتها، ليتها كانت هنا لترى فرحتي الطفولية بهذا الثوب الأبيض، لتتحسسني، وتقبلنّي ثم تسلّمكَ يدي لتراقصني حتى الصّباح.

زوجتكَ أنا، حبيبتكَ أنا، قدركَ أنا، قمركَ أنا، أتوّج نفسي بتاج من زهور الياسمين يشبه ذلك الطوق الذي تعقده (أرتميس) الأسطوريّة على رأسها، أحدّق في تلك العروس السعيدة التي أراها في صفحة المرآة، أتأمّلها، أتأمّل ثوبها الأبيض...

أترك غرفتكَ، أتجه إلى شموعي وزهوري، أقف بينها، هناك شمعة قد انطفأت، أدنو إليها بشمعة أخرى لكي أشعلها، الباب يفتح، أشعر بضربات قلبي تكاد تسحق صدري، أسمع خطواتكَ تتجه إلى المطبخ، تنادي عليّ، لا أجيبكَ، بل أنتصب في مكاني كالمعاقب، صوتكَ في المطبخ يسألني عن سبب عدم إشعال مصابيح البيت؟ لا أجيب.

تدلف إلى غرفة الشموع، كلام في فمكَ يتجمّد، لا تتحرّك من مكأنّك، تحدّق بي مثل طفل مسحور بألوان قوس قزح، لحظات صمتكَ ودهشتكَ تساوي كنوز الدّنيا بالنسبة لي، ما أجمل نظراتكَ تداعب الأبيض! تدنو منّي، تتحسّس ثوبي وعنقي وشعري،

تتحسّسني مثل طفل يريد أن يتأكّد من حقيقة ما يرى، تقول لي بنـبرة دافئة: أنت أجمل عروس رأيتها في حياتي.

- هل أعجبتك مفاجأتي؟

- بل أذهلتني.

- هل توقعتها؟

- لو أعطيتني ألف فرصة لأخمّن مفاجأتك لما اسـتطعت أن أتنبـأ بمفاجأتك المستحيلة، لما استطعت أن أتوقّع هذا الثوب، وهذه الزّهـور وتلك الشموع.

- كانتْ ستفرح أمي لو رأتني بهذا الثوب...

- أيّ الأفكار تدور في رأسك الصّغير، أيّ الأحلام تسكنك؟ !

- لا أتخّيل أن ألقاكَ بغير ثوب الفرحة، بغير ثوب الزفاف، لقـد انتظرت لألف عام كي أرتدي هذا الثوب وألقاكَ به، لـن ألبسـه بعـد هذا اليوم، لن ألقى رجل بفرحة لونـه وأشـواق انتظـاره، تـأمّلني بـه، دعني أرى فرحته في عينيكَ، بعد هذه الليّلة لن ألبس الثوب الأبيض، فقط لون كفني سيكون أبيض.

- أرتميس، أيّ النّساء أنت؟ أيّ الأقـدار قـد ادخرتـك لـي، مـا أطول انتظاري لك، انتظار كاد يشيخ صاحبه وما شاخ هو.

- ألا يستقبل الأبيض بالأحضان؟

تضمنّي إلى صدركَ، تطوّق جسدي بيديكَ، يحدثني ثوبي بسعادته

بهذا الرجل السّاحر الذي يطوقه بحرارة، تشدّني من يدي كما الطفلة إلى حيث مكتبته، تخرج آلة تصوير فوتوغرافية، تستعد لالتقاط صورة لي، أسألكَ: ماذا ستفعل؟

- سألتقط لك صورة لا يمكن أن تمرّ هذه الليّلة دون أن أخلّدها بالصور.

آخذ آلة التصوير من يدكَ، أعيدها إلى حافظتها الجلدية، أدسها في درج المكتب، أحادثكَ كما نحادث صغيراً مستثاراً:- ليست الصور من تخلّد الذّكريات، بل تخلدها أرواحنا السعيدة، وقلوبنا العاشقة، لا تحصر سعادتنا وذكرانا في صورة صمّاء، لا تجعل سعادتنا مسجونة في صورة باردة، بل دعها تحلّق حرّة في قلوبنا، وتعيش طليقة في سماء ذاكرتنا ما حيينا وما عاش حبنا، عاش حبّنا، عاش حبنا.

قلت أنّك ستغيب للحظات، وها قد مرّتْ ربع ساعة، وما تزال في الدّاخل، هذه الدقائق تساوي احتراقي في انتظاركَ لسنوات طويلة، أسمع صوت الماء يتدفّق في الدّاخل، أشمّ رائحة الصابون، صمت المكان يجعلني أشعر بحركاتكَ، كأنّك تصمّم على أن تستحم وأنا عندكَ، أترقّبكَ، أنتظر رجولتكَ، تهلّ عليّ، تغمرني بأريجها، تجلس على الأريكة، صدركَ العاري يندفع بسحر إلى الأمام، شعركَ الشّمسيّ رائع وهو مضمخ بحرارة الاغتسال، أقترب وأجلس قريباً منكَ، ثوبي الأبيض يكسو جسدي ومعظم جسدكَ، أجعل يدكَ

مخدعاً لقبلاتي الحارة والمتتآليّة، رائحة أديمهما تعبق برجولتكَ، أبتسم، وأقول لكَ كمن وجد كنزاً في مكان قد راهن عليه:- رائحتك ساحرة.

كم تمنّيت أن أراقصكَ، أن أقطع في رقصي آلاف السّنين الضوئيّة، وكأنّ غفلة الأمنّية قد أصابت عطف الحقيقة، ها أنا أذوب في حضنكَ، يدكَ الدّافئة تدفعني نحو سحر صدركَ العاري، تطوقني برجولتكَ، لساعة كاملة أراقصكَ، أذوب معكَ في مراقص المستحيل، أنا متأكّدة من أنّني أراقصكَ في الفضاء محلقة بين وهج النّجوم، أفتح عيني، المكان يغرق في سحر شموعي، وجهكَ يحفظ قسماتي، أدرك أنّي في السماوات، أعود إلى صدركَ، وأغلق عيني لأترك الموسيقى تذيبني وتذيبكَ وتذيب شموعي وزهوري، ليتني أستطيع أن أراقصكَ بين النّجوم إلى الأبد.

لساعة أخرى نرقص سوياً، تختار شريطاً آخر، صوته يبدو أعلى من سابقه، باتَ الوقت متأخراً، تضمنّي من جديد، تزرعني في عالم من الأمنيات المستحيلة، لا بد أنّ صوت موسيقتنا يبدّد سكون الشّارع، ويتخلّل إلى بيوت الجيران، أهمس في أذنكَ: أخشى أنّ صوت الموسيقى يصل إلى الجيران.

- ليصل...

- ماذا سيقولون؟

- سيقولون:- عاشقان سعيدان، لا شأن لنا بهما.

- ألا تخشى الأقاويل؟

- بل أخشى عدم الأقاويل؟

ابتسم لكلماتكَ، تدعوني إلى مرافقتكَ إلى المطبخ، ستطهو لي، أما أنا فسأراقبكَ، تحدّق في ثوبي، تسألني بفضول: ألن تخلعي هذا الثوب؟ سيتسخ إذا دخلت المطبخ وأنت ترتدينه.

- وماذا ألبس بدلاً منه؟

- ألم تحضري أيّة ملابس معك؟ !

- لا.

- كلّ ما حملت كان وروداً وشموعاً؟

- نعم.

- ألم تتهيئي لخلع ثوبك؟

- كنت أظن أنّ البشر في الجنّة لا يخلعون أثواب سعادتهم.

- بل يفعلون إذا كانوا في أحضان من يحبّون.

منامتك تبدو مضحكة عليّ، لكن سعادة كبيرة تغمرني وأنا ألبسها، رائحتكَ تسكنها، جسدي سعيد؛ لأنهّ يلامس قماشاً قد لمس جسدكَ من قبل، تغلق الخزانة بعد أن تطوي الثوب في داخلها، تقول: حقاً هو ثوب جميل، لا بدّ أنّ ثمنه باهظ.

- لم أشتره بل استأجرته بربع قيمته.

- ممن استأجرته؟

- من متجر متخصص ببيع وتأجير أثواب الزفاف.

- من أين حصلت على المال لاستئجاره؟

- سرّ.

- أنا جاد في سؤالي.

- استأجرته من النقود التي أعطاني إياها أجود مقابل عملي في حانوته.

- إذن فقد بدّدت كلّ ما جمعت في الأشهر الماضية على ثوب واحد؟ !

- ثوب لن يتكرّر ارتدائي له مرة أخرى، لا بدّ أن فرحة ارتدائه تساوي الدّنيا بالنسبة لي.

- مجنونة...

- بحبكَ...

تناول الطّعام معكَ متعة مدهشة، مراقبتكَ وأنتَ تأكل تشعرني بحنو غريب نحوكَ، أتخّيلكَ كالطفل البريء يأكل خبزته غير معنّىً أو مشغول البال، أمّا مراقبتكَ وأنتَ تطهوفحادثة سعيدة في حياتي، أتابع حركاتكَ في المطبخ، أحفظ كلّ حركة تقوم بها، أتابع مراحل طهيكَ للطعام، أحاول أن أساعدكَ، تعترض على ذلك وتقول: أنت ملكة متوّجة في هذا البيت، اجلسي وراقبني، وجودك أكبر مساعدة لي. بحركة من يديكَ القويتين، ترفعني وتجلسني قريباً منكَ على إحدى طاولات المطبخ الرخامية، عندما أصمّم على أن أساعدكَ في غسل

الصحون، تسخر من عملي بنبرة ضاحكة، تداهمنّي من الخلف، وتطوقني بيديكَ، تقبّل يديّ، وتقول: غسلك للصحون يشبه غسيل جدّتي لها ...

- وكيف كان غسل جدتكَ للصحون؟

- مثل غسلك لها: سريع وغير نظيف.

تسترخي أرضاً على إحدى الحشايا الفرعونية، أجلس قريباً منكَ، تمسك بيديّ، وتدعوني إلى أن أكون في حضنكَ، تداعب شعري بعض الوقت، تطوّقني من جديد، وتغني أغنية من أغاني فريد الأطرش الذي تحبّه بشدة، صوتكَ يشبه صوته، ولكن نبرة صوتكَ أشدّ حزناً، لا بدّ أنّك لم تغن هذه الأغنية من مدّة طويلة، لذلك تنسى بعض مقاطعها، لكنّكَ كلّما نسيتها أساعدكَ في تذكّرها، تبتسم من نسيأنّك لبعض مقاطعها، لكنّكَ تستمر في الغناء، لا بدّ أن قسماتي تنقل لكَ مدى تأثري وسعادتي بسماع غنائكَ.

تنهي أغنيتكَ, أحيّيكَ على حسن أدائكَ بسيل من القبل، تدفعني نحو صدركَ تقول لي: عندما أكون معك أشعر بأنّني في الجنّة.

- أمّا أنا فمتأكد تماماً من أنّني في الجنّة.

- أعبدك، لقد انتظرتك طويلاً، كدت أيأس من لقائك، لم تأخّرت عني؟

- لَمَ سبقتني وجئت قبلي إلى الدّنيا؟

- لَمَ تحبّيني بهذا الجنون؟ ماذا فعلت لك لتحبّيني إلى هذا الحد؟

- لقد خلقت لكي أحبّكَ! !!

أتناول دفتراً صغيراً أسجّل عليه بعض ملاحظاتي، تسألني عيناك عما في الدفتر، أجيبهما: هذا دفتر أكتب وأجمع فيه بعض الأفكار التي أرغب في أن أقولها لكَ، سأنشدكَ قصيدة رائعة للشاعر إبراهيم ناجي:

يا شطر نفسي وغرامي الوحيد ما شئت يا ليلاي، لا ما أريد

من أيّ كون جئت؟ لم أعلم يا نفحة من نفحات الخلود

هيا! أجل هيا! إلى أينا؟ لحيث نحكي حلم روحينا

لحيث نروي سرّ قلبينا فإن فرغنا من حديث نعيد

أيّ مكأن بهوانا يضيق فامض بنا، إلى زحام الطّريق

في ظل حبينا رحيب طليق وكل ّركن طيّب في الوجود

من أنتَ؟ لا أدري، ولا من أنا فيا إله الحبّ ماذا اسمنا؟

إنّا حبيبان، وذا حبنا إنّا وليدان، وهذا وليد

- نعم يا شطر نفسي، ما شئتَ لا ما أريد.

- حدّثني عن حياتكَ.

حديثكَ يبعث السعادة في قلبي، مراقبتي لقسمات وجهكَ، تشعرني بالغبطة، أحفظ كلّ كلمة تقولها، بل وكلّ كلمة لا تقولها، حتى سؤالكَ عن فضيلة أحفظه، تسألني عما حدث مع كاظم؟

- لم يكـن موفقـاً، لقـد اسـتدعاه الجـيش العراقـي لينخـرط في جيوشه في الحرب الإيرانية-العراقية، يبدو أنّه سيضطر لتأجيل دراسته عاماً آخر.

- وستنتظره فضيلة عاماً آخر؟

- لعلّها ستفعل.

- أما زال يراسلها؟

- بانتظام ودون قطيعة.

اصمتْ، تدهشني نظراتكَ، أحاول تجاهلها، تقول لـي: مـن أيـن ورثت عينيك وبشرتك؟

- أبي يقول أنّني أشبه جدّتي.

- ماذا عن أمك؟ ألا تشبهك؟

أخرج من حقيبتي النّسائيّة صـورة لأمـي أحـتفظ بهـا، تتفرّسـها جيداً، تردّها اليّ وتقول: جميلة، لكنّها لا تشبهك أبـداً، أعـني أنـت لا تشبهينها.

- لا يمكن أن أشبه أيّاً من نساء الدّنيا، أنا مختلفة تمامـاً عـن كـلّ نساء الدّنيا، مختلفة بحبي لكَ وعشقي لكَ، مـن تعرفـكَ تصـبح امـرأة أخرى، ولا تشبهها أيّة امرأة ولو كانتْ أمّها.

- هيا إلى النّوم ...

تمسك بيدي، تقطـع بـي الرّدهـة الصّـغيرة، تـدلف إلى غرفتـكَ،

حيث سرير نومكَ، تستلقي في الفراش، وتتوقّع أن أنضمّ إليكَ، أتجّمد في مكاني، أتساءل في نفسي عن معنى دعوتكَ، لا بدّ أن نظراتكَ تقرأ بذكاء ما يدور في خلدي، أتذكّركَ كعادتكَ تتحدّث عن الشّعراء العذريين، تسخر من أشعارهم، وتشكّك في عذريتهم، تستنكر عليهم ذلك العشق الذي ينقل مشاعره وأشواقه عبر الأثير، تصف هذا النّوع من الحبّ بأنّه مجرد جلوس على أحجار متقابلة وإهدار غبي للحبّ والشّباب.

أتساءل أيّ الكلمات ستصوغها الآن، تغادر فراشكَ، تشدني من يدي، وتعود بي إلى سريركَ، تضمنّي بحنان غريب، تقول لي: ألا تشعرين بالأمان معي؟

- لا أشعر بالأمان إلّا معكَ.

تقبّل يديّ بقدسية خاصّة، تضمهما نحو صدركَ تقول: الرجال أيضاً يعشقون بعفّة، بل يعفّون إذا أحبّوا بصدق، لطالما أخبرتك بأنَ مشاعري نحوك لا تصنّف تحت اسم الحبّ بقدر ما تصنّف تحت اسم التقديس والإجلال، أنا أقدّسك، أخشى عفتك، أصمت أمام جبروت عشقك، لا أملك إلّا أن أنحني بإجلال أمام حبّك، وأطير بك إلى السماوات العلا حيث الطهارة والعّفة.أتفهمين معنى ما أقول؟

- وماذا عن سخريتكَ من العذريين؟

- كلّميني عن حبيّ، أنا لا عن حبّ غيري ...

كلماتكَ تذيب أسئلتي، لتنتحر شكوكي، وتفنى للأبد، أقبّل

يديكَ، أقبّل قدميكَ، تدهش من طقوس قبلي، أمسح على جبينكَ، وأقول: لطالما حلمت بأن أقبّل الأرض التي تدوسها قدماك.

كما الغصون يلتف جسدكَ على جسدي، أشعر بدفء جسدكَ يجتاح جسدي، أتكوّر في حضنكَ، وأترك لكَ مهمة مداعبة خصلات شعري، أقول لكَ:

- عدني بأنّك ستهبني طفلة منكَ في يوم من الأيّام.
- طفلة واحدة فقط؟
- نعم طفلة تملك جمال جسد أبيها الملك، نظراته السّاحرة، وروحه الطيّبة، وذاته الموهوبة، طفلة تملك باختصار سحرك.
- وتملك قلب أمّها الفيّاض بالحب، وعينيها السّاحرتين، لا بدّ أنها ستكون ذات سحر قاتل.
- سنسميها أحلام ...
- لِمَ أحلام ...؟
- أحلام أمها وأبيها، أحلامهما المستحيلة تتحقّق، وتكون حقيقة بها.
- إذن سنسميها أحلام.

تدثرني بدثاركَ، لا بدّ أنّك تشعر بتعب شديد بعد هذا السهر الطويل، أتكوّر بشدة في حضنكَ، تقول باسماً: لقد ذكّرتني بقطتي.

- أيّ قطّة تعني؟

- أنا أحبّ القطط، عندما كنت في إيطاليا اقتنيت قطة سيامية، كانت قطة مدهشة كانتْ تحبّني، ولا تكاد تفارقني، تثور غاضبة إذا انشغلت عنها بدراستي، بل إنّها تحاول أن تلفت انتباهي إليها بأيّة طريقة، كانتْ قطّة ذكية، عندما خطبت زوجتي، وأصبحت أوليها كلّ اهتمامي، بدأت أشعر بتغير كبير في سلوك قطتي. أصبحتْ دائمة الحزن، لا تأكل ولا تشرب، بعد ذلك كرهتْ زوجتي القطط، ولم تتقبّل وجود القطّة في البيت، اضطررت إلى أن أهديها لأحد الأصدقاء كي يربّيها في مزرعته، بعد أيّام علمت أنّ سيارة دهستها، وهي تحاول العودة إلى بيتي، لطالما كرهت زوجتي؛ لأنّها قست على تلك القطة المسكينة.

- أتؤمن بأنّ الحبّ طاقة غير محدودة القوة تستطيع أن تنجز المستحيل؟

- بالطبع.

- إذن ثق تماماً في أنّ روح تلك القطّة العاشقة لكَ تسكن جسدي، وتقول لكَ إنّ حبّها لكَ جعلها تسكن جسد آدميّة كي تلقاكَ، وكي تنعم بقربكَ وحبّكَ.

- يا سيدتي الاستثنائيّة، قولي لقطّتك المشاكسة التي تسكن جسدك: أنّني أعشقها، وأعشق الجسد الذي تسكنه، قولي لها إنّ القطط العاشقة لا تقل إدهاشاً عن النّساء العاشقات تماماً مثل عشق المرأة التي أحضنها الآن.

- القطّة تقول لكَ: ميو، ميو.

- نامي يا قطّتي، دعيني أنعم بضمك، دعيني أستيقظ لأجدكَ في حضني.

- عندما دخلت بيتكَ كنا في العام الماضي، نحن الآن في الساعات الأولى من العام الجديد، فعلياً قد حضنتني لمدة عام، عام كامل وأنا في حضنكَ ...

- وما زلت بحاجة إلى حضنكَ، إلى التأكّد من أنّني أحضنكَ، لا أكاد أصدّق أنّك بين يديّ، أنّك تهمسين بكلماتك في أذني، أنّك تعشقيني من دون كلّ البشر.

- منذ أن ودّعت الطفولة لم يندس أحد في سريري ليضمّني، ليحكي لي قصّة، ليصبّ في أذني آلاف الخرافات ... احك لي حكاية.

- أيّ الحكايات تريدين أن أقصّ عليك يا صغيرتي؟

- اختر أنتَ الحكاية، واترك لي متعة الترّقب والاستماع.

- سأحك لك قصّة (عقلة الإصبع) ... كان يا مكان في قديم الزمان، ولد صغير بحجم عقلة الإصبع، كان له إخوة ثلاثة, كانوا يستهينون به بسبب صغر حجمه، وفي يوم من الأيّام ...

- ماذا حدث في يوم من الأيّام؟

أمتعب أنت يا حبيبي؟ ما أجملك من نائم! أراقب تلك التعابير الراضية على وجهكَ الدافئ، أتتبسم وأنتَ نائم؟ أيّ روح

تسكنكَ؟

أتتحسس ذراعيك اللّتين تحيطان بي، أقبّلك، ثم أقبّلك، كأنّني مسافرة لكن إلى حضنك، أقترب من أذنك أهمس بصوت خفيض، خفيض جداً:-

أنا أحبّكَ، أنا أحبّكَ كما لم يحبّكَ يوماً بشر ...

أتوّقع في كلّ لحظة أن ينبت جسدكَ الآن الأوراق والأغصان لتمتدّ وتغرقني وإيّاكَ في كساء أخضر تعلوه آلاف الزهرات والزهرات، وتسكنه بلابل عاشقة، كساء أخضر نرقد فيه آلاف السّنوات بدعة وسلام بعيداً عن فضول البشر.

قسماتكَ الراضية تنبّئ بنوم عميق، أما أنا فلا أستطيع النّوم، كلما غفوت أراكَ في أحلامي، أتصدّق أنّني في حضنكَ ولكنّني ما زال أحلم بكَ؟ أستيقظ بين الفينة والأخرى، أتأكدّ من أنّك في حضني، أفرح بشدة بكنزي الذي أنعم به من دون كلّ البشر، أقبّلكَ وأعود إلى لقائك في أحلامي.

رائحة البيض المقلي تملأ المكان، لا بدّ أنّني قد غفوت متأخرة، لستَ إلى جانبي، قريباً من السّرّير على المنضدة الصّغيرة صينية تحتوي على البيض المقلي والجبن وعصير البرتقال تعلوه وردة حمراء، رائحة البيض شهيّة، مقلي هو بالطّريقة التي أحبّها، لا بدّ أنّ لنا ذوق واحد في الطّعام بل وفي كثير من الأمور، أنا لم أقابل طوال حياتي إنساناً يستطيع أن يدركني، أن يرقص معي رقصّة الجنون، أن يتحسس ذاتي

وأشـواقي، مثلـك أنـتَ، يقـول أرسـطو في تفسـير الحـب: إنّ البشـرَ يخلقون على شكل ثنائيات ثم يرسـلهم الإلـه إلى الحيـاة الـدّنيا علـى شكل كرات، فإذا كتبَ لهذه الثنائيات أن تلتقي في مكان واحد وزمان واحد، فقد كتب لها عشـق لا يتكـرّر وسـعادة لا تنضـب، لاشـكّ في أنّك جزئي الذي خلقت معه، بحثت عنكَ في أزمـان وأمـاكن طويلـة، وها أنا ألقاكَ لنعيش سعادة لا تنضب.

أهجر فراشي، أكياسي وبعض لوازمي تغرق المكـان بالفوضـى، الشموع ذائبة حتـى الانتهـاء، أجـدكَ واقفـاً في الحمـام تحلـق ذقنـكَ، رائحة عطري تفوح منكَ، الكثير من أدوات زيـنتي وأمشـاط شـعري تنتشر في الحمام، أراقبكَ وأنتَ تحلق ذقنكَ، تبتسم لي بحذر خوفاً مـن أن تجرح نفسكَ تقول:-

- فطورك جاهز.
- سأنتظركَ، لا شكّ أنّك تدللني أكثر من أمي.
- لو عرفت والدتك أنّك في حضني لأحرقتني.
- بل لشكرتكَ؛ لأنّك تسعد ابنتها كما لا يمكن لبشر أن يفعل ...
- هل ألقيت نظرة من النافذة؟
- لا، لماذا؟
- الثلج يغمر المدينة.
- حقاً؟ !

تبتسم لي وتقول:- يبدو أنّك ستكونين ضيفتي السماوية لعدة أيّام، سنسجن سوياً، أرجو أن لا تتبرّمي من إقامتك الجبرية في بيتي.

- بل إنّ الطبيعة الطيّبة بذلت ما في وسعها لتهبني مزيداً من السعادة معكَ ...

(٢١)

قوالب الكعك جميعها تبدو شهيّة، كعكة الفراولة كبيرة، كعكة الشوكولاته تبدو مناسبة، لكنّكَ لا تحبّ الشوكولاته، كعكة البندق أكثر مما يستطيع أن يأكل اثنان، أحبّ كعكة الفراولة، لكنّها تبدو غير طازجة، لن آخذ كعكة الكريما، فأنا أعرف أنّك تتبع حمية دائمة، ولا تميل إلى الأطعمة الدّسمة، سأختار كعكة المكسّرات، أنتَ تحبّ المكسّرات، أراقب صبي حانوت الحلويات ينقل الكعكة بحرص من الثلاّجة الزّجاجيّة، ويضعها باهتمام في صندوق ورقي يحمل اسم وشعار الحانوت، يسألني إن كنت أرغب في كتابة بعض الكلمات على القالب، أقترب منه، أهزّ رأسي بالإيجاب، يمسك الصبي لفافة أسطوانية من الورق مملوءة بالكريمة، يسألني إن كانتْ المناسبة عيد ميلاد، أهزّ رأسي بالإيجاب، يعود ويسألني: هل هو طفل أم طفلة؟

ابتسم وأقول: طفل ...

– ماذا تريدين أن أكتب له؟

– اكتب له: " إلى حبيبي هيليوس ... عقبال ألف عام ".

– اسم الطفل غريب، أم أنّ هيليوس اسم الدلال؟

– نعم اسم الدلال هو هيليوس.

– حقاً! !

أحبّ أعياد الميلاد تماماً كما أحبّ الاحتفالات، في طفولتي كان حفل عيد ميلادي هو الحدث الأكثر إدهاشاً لي عبر العام كلّه، شراء الكعكة وتعليق الزّينات ونفخ البالونات وشراء ثوب جديد، ودعوة الأصدقاء والأقارب، كانتْ الطقوس التي أبات طوال أيّام قبل عيد ميلادي أحلم بها، وأراقب بفرح استعدادات أمي لها.

أحبّ أن أدعو الكثير من الأصدقاء والأقارب، أسعد بمشاركة الناس وضحكات الأطفال، أمّا الليّلة فلا أرغب بأيّ ضيوف، أريدكَ فقط، لا أريد غيركَ، ستكون احتفالي وحضوري وسنين عمري.

لم أعرف أنّ الإعداد لحفلة يحتاج كلّ هذا التحضير، لعلّ إصراري على أن يكون هذا الحفل حدثاً لا ينسى في حياتك يجعلني أبذل الكثير كي أرضى عن حفلة تعدّ لمليك قلبي، لا بدّ أنّك ستفتقد زيارتي اليومية لك في المتحف، ستضطر إلى أن تشرب قهوة الصّباح وحيداً، فقط هذا اليوم ستشربها من دوني، أعتذر لغيابي المفاجئ، لكن الحفلات هكذا يجب أن تكون مفاجئة، عندما دخلت إلى بيتكَ شعرت ببعض الذّنب؛ لأنّني أدخل بيتك من دون إذن، لأول مرة أدخله من دون علمك، ومن دون أن تكون في انتظاري.

بعد أن أنهي نفخ هذا البالون أنهي جميع التحضيرات، ما أجمل هذه الزّهور تغرق المكان!

ستقول كعادتكَ: إنّ الزّهور كثيرة، يكفي زهرة واحدة للتعبير عن مشاعر الحب، لا داعيَ للمبالغة. ليتكَ تعلم أنّني لا أبالغ، وأنّ عشقي يحتاج لآلاف الزهرات للتعبير عنه، ليتني أستطيع أن أهدي

الزهر لكلّ البشر بمناسبة عيد ميلادك، ليتني أملك أن أزيّن الدّنيا بأطواق الياسمين لينعم البشر بشيء من سعادة قلبي وفرحة روحي.

الشموع جميلة بالذّات تلك الغارقة في ركائز الشمعدان الفضيّة، ما أكثر البالونات! ليتني أستطيع أن أدفع بعضها إلى الشّارع، سيفرح أطفال الجيران بالتقاطها، ستستشعر طفولتهم فرحة قلبي وسعادتها بميلادكَ، وإن لم يدركوها تماماً، تلك الزّينات رائعة، لطالما أحببتها بألوانها اللامعة وأشكالها المفرحة، لا أصدّق أنّني استطعت أن أنهي تزيين المكان في ساعتين فقط، لا بدّ أن حبّكَ يمدّني بطاقة مدهشة تستطيع تحقيق الكثير.

لا بد أنّك في الطّريق إلى البيت، ولا بدّ أنّك غاضب بسبب اختفائي هذا اليوم، عندما تدلف إلى البيت، وتراني ألبس مناماتكَ وأنتظركَ بشوق ستعرف سبب سلوكي، وتغفر لي ذنبي، أشعر بأنّ ساعات هذا النّهار كانتْ بطول دهور، منذ شهور لم نفترق لأكثر من ثلاث أو أربع ساعات، بعد دقائق سأكون في حضنكَ، سأطوّقكَ، وأقول لكَ: كلّ عام وأنتَ بألف خير لمن تحبّكَ، كلّ عام وأنتَ حبيبي.

أتفقّد سريعاً جميع ما حضّرت، الكعكة والسكاكر والعصير تنتظركَ بشوق، الزينة تهيء نفسها لمفاجأتكَ، الشموع تعدّ لحظات ذوبانها لكي تلقاكَ، ألقي نظرة أخيرة على نفسي في المرآة، الأقراط تلمع على الرغم من الضوء الخافت الذي يغمر المكان. زينتي جميلة، عطر الياسمين يفوّح منّي، أتحّسس عنقي، أفتقد ذلك الطوق الذّهبيّ،

لأوّل مرة منذ أربعة سنين لا أجده يطوّق عنقي، لقد أحببته جداً ليس فقط لأنّه جميل أو لأنّ جدّتي أهدتني إيّاه بمناسبة إنهائي للمرحلة الثانوية، بل لأنّك كنتَ تحبّه، وتقول له: كم أنتَ محظوظ، لأنّك تطوّق عنق من أهوى. ألقي نظرة على الشموع والزّهور والكعكة، أتخيّل سعادتكَ بهذا الحفل، سعادتكَ تساوي أكثر من ذلك الطوق الذّهبيّ، سامحيني يا جدّتي، أعرف أنّك ستغفرين لي بيعه إذا علمت أنّني احتجت ثمنه للتحضير لهذه الحفلة، لا بد أنّك تحبّين سعادتي، ولهذا أهديتني هذا الطوق، وأنا أحبّ إسعاد الرجل الذي أعشق لذلك بعت ذلك الطوق، سامحيني يا جدّتي، أنا لا أحتاج إلى هذا الطوق لكي أتذكّرك باستمرار، ولكي أعرف كم تحبّيني ...

لا تتوقع وجودي، لكنّه يسعدكَ، أتعلّق برقبتكَ، أغرقك بقبلاتي، تتصنّع غضباً طفولياً بسبب غيابي عنكَ، أمسك بيدكَ، وأدلف معكَ إلى غرفة الاستقبال، في لحظة تفهم ما يجري، الفرحة في عينيكَ، تقول: أنا سعيد.

تضمنّي، بيديك القويتين ترفعني عن الأرض، تقول: ما هذا يا مجنونة؟

- عيد ميلاد سعيد يا حبيبي.
- هو سعيد؛ لأنّك تحضرينه.
- قل لي إنّه أجمل عيد ميلاد رتّب لك.

تبتسم وتقول بنبرة خافتة: بل هو عيد الميلاد الوحيد الـذي أعـد لي، أنت الإنسان الوحيد الذي احتفل بعيد ميلادي ...

- إذن ستذكر هذا الحفل دائماً؟

- إلى الأبد، وسأذكر دائماً تلك المرأة المدهشة الـتي جـاءت مـن المجهول لتسعد قلبي، ولتهبه فرصة أخيرة للسعادة، قولي لي يـا شـعبي العاشق أيّ الأسرار أملك حتى تحبّيني إلى هذا الحدّ؟ ماذا قدّمت لـك لتهبيني كل هذا العشق؟

ابتسم لك، أطوّق وجهكَ بكفيّ، أقول لكَ جملـتي المعتـادة الـتي تزرع ابتسامة رضا على شفتيه: لقد ولدت كي أحبّكَ.

وفقاً لعادتكَ تستحم، تتعطّر، أما أنا فـأنتظر بـاحتراق رجولتـكَ تقترب منّي، تجلس إلى جانبي على الأرض، تسند ظهركَ إلى المطـارف الفرعونية التي تتجمع بالقرب من الطّاولة الفرعونية القصـيرة، تحـدّق بالكعكة، تقرأ بغبطة ما كتبت عليها، تراقـب الشـموع تـذوب برفـق، تعدّها، فتجدها بقدر سنين عمركَ، تبتسم، وتقول: هل أصبحت كبيراً إلى هذا الحد؟

- أحببت أن أتأكّد من أنّك ما تزال شاباً، وأنّك تملك رئتين قويتين.

- كيف استطعت أن تهيئي كلّ هذه الأمور؟

- اليوم ركضت في البيت ما يساوي عشرة كيلـو مـترات كـي أنجـز الأمر قبل أن تأتي.

- من أين لك بكلّ هذه النقود لتحضري مثل هذا الحفل؟

- لقد أعطاني إياها أجود مقابل عملي في حانوته.

- ألم تنته هذه النقود؟

- اليوم انتهت ...

تغافلني، تنقضّ بأنفاسك على تلك الشموع المزروعة في جسد الكعكة، هواء زفيرك قويّ يطفيء كلّ الشمعات بل، ويحرك غطاء الكريما، ويكشف وجه الكعكة، يا لكَ من طفل صغير! أحبّكَ حتى لو لم تملك رئة قوية أو جسد فتيّ.

أقدم لك هدية عيد ميلادك، تفتحها، تدّس الخاتم الموجود فيها في إصبعك، تدني يدكَ وتبعدها، تقول: خاتم جميل، يختلف عن ذوقي، لكنّني أحبّه، لأنّه من اختيارك.

- تستطيع أن تستبدله إن لم يعجبكَ.

- لن أبدلّ شيئاً اخترتيه لي.

- لا تخلعه من إصبعكَ، سأعرف أنّك تتذكرني وتحبّني ما دمت تلبسه.

- أتذكّرك من دون خاتم يذكرني بك.

تطالع البطاقة المرفقة بالهدية، تقرأ كلماتها، تقرأ بصوت خفيض، ويرددّ قلبي كلّ كلمة تقرأها:-

حبيبي هيليوس:

للبشر أعياد ألفوها ...

ولقلبي وقلبكَ عيد ... هو يوم ميلادكَ.

عشتَ عظيم هذا العيد.

... وينـزل الغيث

مع كلّ الحبّ: أرتميس.

- ماذا تعنين بجملة (وينـزل الغيث)؟ لم أفهم قصدك؟

ابتسم لكلماتكَ، أعود بالذّكرى إلى شهور مضتْ، أتذكّر تلك الكلمات المكتوبة على قصاصة صغيرة تدفعها إليّ مع صبي حانوت الورد، تستقبل ورودي، وترسل إليّ بصمت: ((حبيبتي أرتميس ... "وهو الذي ينـزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته" الشورى ٢٨ مع كل حبي هيليوس)) أتفاءل بكلماتكَ التي تحمل بشارة من الخالق بقرب الفرج والرحمة، أتسلّح بها ضد التشاؤم واليأس الذي أكرهه، وأنتظر أن ينـزل الغيث.

تقطع شيئاً من الكعكة، تضعه في صحن واحد، تدّس لقمة في فمي ثم أخرى في فمكَ وثالثة في فمي، تعلق الكريما بين أصابعكَ، أنتَ تكره الكريما، أمّا أنا فأحبّها، ألعقها كما الطفل عن أصابعكَ، تدفعني نحو صدركَ، تربت بعطف على كتفيّ، يغرق رأسي في حضنكَ، لا أراكَ، لكنّني أدرك ذلك الطّيف من الصمت يجتاحكَ، بعض الشموع تذوب تماماً، ضوء المكان يخفت قليلاً، تدندن بعض الكلمات، ثم يعلو صوت غنائكَ العذب (**مش كفاية يا حبيبي**).

دائماً أحببت فريد الأطرش وهو يغنّي هذه الأغنيـة، أمّـا عنـدما أسمعها بصوتكَ، فتصبح الكلمات أكثر جمـالاً، والألحـان أكثـر رقّـة، تعرف أنّني أحبّ هذه الأغنية، لأنّها قدّمتْ في فيلم رائع مقتـبس عـن رواية اسمها (**رسالة من امـرأة مجهولـة**) لكاتـب مـدهش اسمـه (استيفان زفايغ)، لا زلت أحتفظ بنسـخة خاصّـة مـن هـذه الروايـة، عندما حدّثتك عن موضوع تلك الرواية التي تدور حول عاشقة متيّمة تحبّ بإخلاص وصمت حتى تموت، استغربت من هذا الحب، وقلت: هل يعقل أن هناك بشر يستطيعون أن يحبّوا بمثل هذه القوة؟

قلت لكَ: أنا أعشقكَ كما لم يعشق بشر.

ابتسمتَ وقلتَ لي:- أنا أعرف هذه الرواية منذ زمن طويل.

- هل قرأتها؟

- لا، بل شاهدت فيلماً لفريد الأطرش مقتبساً عن هذه الرواية.

- متى؟

- قبل أن تولدي.

- أمّا أنا فقد شاهدت هذا الفيلم قبل ثلاثة أعوام.

- ...

صوتكَ كلّ ما أعبد في هذه اللّحظة، أشعر بأنّـك تحتضـنني منـذ ألف عام، وتغني لي دون توقّف، أشتاق لرؤية عينيـكَ، أرفـع رأسـي من نعيم حضنكَ، أتأمّل قسماتكَ، أتحسّس بعشق ذلك الغور المدهش

في ذقنكَ، كم أعشق ذلك الغور السّاحر، تغلق عينيكَ، تترك لي متعة تفرّسكَ، قسماتكَ تبدو أكثر شباباً، جلدكَ أكثر نعومة عما قبل، شعر رأسكَ أكثر غزارة، عظام صدرك تندفع قليلاً إلى الأمام، في لحظة تبدو أنحف، يختفي شاربكَ من وجهكَ، أهدابكَ تبدو أكثر كثافة، تعلو حمرة غضّة وجنتيكَ.

تبدو أصغر سناً، كأن السّنين تركض بجنون إلى الوراء، أشعر بخوف، أغمض عيني، وأزرع رأسي في حضنكَ من جديد.

عندما ينتهي غناؤكَ، أفتح عيني، أطالعكَ، ها قد عدت إلى ما كنتَ عليه قبل أن تحضنني، أقول لكَ بوجل ظاهر: أتعدّ أن تصدّقني إذا أخبرتك بأمر غريب.

- أعدك.

- قبل لحظات وأنتَ تغني، عاد الزّمن إلى الوراء، ورأيتك بعمر العشرين، صدّقني.

- ...

- قل شيئاً، ألا تصدقني؟

- بل أصدّقك تماماً.

- كيف تصدق كلاماً لا يصدّق؟

- مع امرأة مثلك يمكن أن يحدث أيّ شيء ... أيّ شيء.

بضع شموع أخرى تذوب، المكان يغرق في ظلام أشدّ، القمر بدر، يبدو بوضوح من نافذة الغرفة، أبتسم لك، أتذكّر تلك الخرافات عن اكتمال البدر، أقول لكَ: ليتكَ تهبني أحلام تحت ضوء القمر.

- الأطفال الذين تحمل بهم أمهاتهم تحت ضوء القمر يولدون بلعنة.

- أنا لا أخشى اللعنات.

- أنا أخشاها.

- إذاً تزوّجني، وهبني أحلام بعيداً عن ضوء القمر.

- أنا لا أتزوّج من أحبّ.

- لِمَ؟

- لأنّ الزّواج مقبرة الحب.

- إذن لا تحبّني، وتزوّجني.

- بل أحبّك، ولا أتزوّجك.

- إن تزوّجتني سأهبكَ سعادة مستمرة.

- كلّ النّساء تقول هذا قبل الزّواج، أمّا بعده فلا شيء غير التعاسة.

- لن أتزوّجك كما زواج البشر بل كزواج الأساطير.

- وكيف يكون زواج الأساطير؟

- بكلمة منك أصبح زوجتكَ، وبكلمة منّي تصبح زوجي، الله يشهد على هذا الزّواج.

- وماذا عن باقي البشر؟

- فليذهبوا إلى الجحيم، أنتَ من تعنيني من هذه الدّنيا.

- أظنّ أنّ زواجاً بتعاسة أكثر أماناً من زواجك المجنون.

تضحكني كلماتك، أغرق في ضحكاتي، وتشاركني في ذلك الغرق، كم أنا مجنونة! كم أعشقكَ!

شمعة أخرى تذوب، أشجار السّرّو تتمايل نحو النافذة، حفيفها حزين، أقول لكَ: أتعرف أنّ الأسطورة الإغريقيّة تقول إنّ الهَ الشّمس هيليوس نادى أن يزرع السّرّو عند قبر كلّ من كان مسجوناً في الحياة.

- حسناً أنّني فعلت ذلك.

- لمَ.

- لأنّني وإيّاك مسجونان هنا، أمّا الدّنيا في الخارج فتنعم بالحرية والعلنية.

- إن كان وجودي معكَ هو سجن، فليته يدوم إلى الأبد.

- وماذا سأقول للناس حول تلك المرأة التي تسكن حياتي وتقاسمنّي حياتي؟

- قل لهم إنّها جاريتكَ، جاريتكَ من ألف عام، وقد نهضت رفاتها من القبر لكي تزورك؛ لأنها اشتاقتْ لكَ.

- آه يا جاريتي، تعجبني فكرة ملكيتي لجسدك ولقلبك ولعمرك.

- نعم يا مولاي، شبّيك لبيّك أنا بين يديك، اطلب فتطاع.

- أتمنى أن أبحر وإيّاك في زورق من ذهب فوق بحيرة من زئبق.

- سمعاً وطاعة يا مولاي.

أطلب منكَ أن تلزم مكأنّك، أنقل معظم الشموع إلى الحمام، الشموع تبدّد القليل من ظلام الحمام، أملأ الحوض بالماء الساخن والصابون، أعود إلى غرفة الاستقبال، أدير مفتاح المسجّل، تنطلق ألحان شريطي المفضّل، أرفع من صوت المسجّل، أشدّك من يدكَ، تدهشكَ الشموع قريباً من حوض الاستحمام، أسبقكَ إلى الحوض، منامتكَ التي ألبسها تبدو داكنة اللّون وهي مبتلّة، أمدّ يدي إليكَ، أدعوكَ إلى جانبي، كالمارد تدخل إلى الحوض، تضمنّي، الماء الساخن رائع، تفتح صنبور الماء العلوي، ليستمر دفق الماء الساخن، البخار يملأ المكان، سعادة غريبة تغمر جسدينا، بنبرة حالمة أقول لكَ.

- مولاي! !!

- نعم يا مليكتي السّاحرة.

- بلغني أيّها الملك الرشيد ذو الرأي السعيد، أنّ امرأة تهواكَ بجنون، هي مسحورة بكَ، وإن هجرتها فسوف تتحول إلى حجر، وتتركك وحيداً من دون حبّها.

- وأدرك شهرزاد الصّباح. فسكتتْ عن الكلام المباح.

- لا ... بل قالت:

كتبت أحبّكَ فوق جدار القمر

(أحبّك جداً)

كما لا أحبّكَ يوماً بشرْ

ألم تقرأها؟ بخط يدي

فوق سور القمر

وفوق الكواكب تمسح عنها.

غبار السّفر

كتبت على دفتر الشّمس

أحلى خبر ...

(أحبّكَ جداً)

فليتكَ كنتَ قرأتَ الخبر.

(٢٢)

في الطابق العشرين حيث المطعم الشّتويّ، سنتناول العشاء هذا اليوم، أنا لا أحبّ أن أتناول العشاء بعيداً عنكَ، لا طعم للطعام من دونكَ، وأنتَ تصمّم على أن أرافق صديقاتي إلى هذا العشاء، تطالبني بأن أوازن بين عشقي لكَ وبين حياتي الاجتماعية، تلحّ علي أهمية الإبقاء على علاقاتي مع الآخرين وعدم محورة حياتي عليكَ، تريدني أن أحيا حياة طبيعية بما فيها من علاقات وصداقات ولهو، رفضت الخروج إلى هذا العشاء، وفضّلت أن أقضي الليّل معكَ في المنتزه، اعتذرتَ لي عن الحضور، وأخبرتني بأنّك مرتبط باجتماع ليليّ مع الأعضاء الإداريين للمتحف، استفسرت من سكرتيرة المتحف وعرفت أنّ لا اجتماع عندكَ، لا بدّ أنّك ستقضي الليّلة في المرسم، أمّا أنا فأقضي الوقت مع صديقاتي كما أردتَ لي. أتظاهر بأنّني قد خدعت بخطتكَ الطيّبة، مع أنّني أعلم تماماً أنّك اختلقتَ كلّ هذه الأكاذيب لكي تدفعني إلى الخروج مع صديقاتي والاستمتاع معهنّ، ترفض أن تحبّسني في دنيا حبّكَ، تقبل أن أتنفّس حبكَ ، ولكن في دنيا رحيبة بعيدة عن القيود، كم أنتَ عظيم!!

لا أتذكّر كيف بدأنا أنا وصديقاتي بالتردّد على هذا المطعم، بل لا أتذكّر كيف وجدناه في هذا الحيّ المزدحم في هذا البرج المرتفع، كثيراً ما تردّدت أنا وصديقاتي على هذا المكان على الرغم من اختلاف طباعنا، لم نجتمع على حبّ مكان واحد في كلّ المدينة كما

اجتمعنا على حبّ هذا المكان.

أدلف وصديقاتي إلى المطعم الدافئ، تلك المدفأة النفطية تتربّع قريباً من الطّاولة التي اعتدت وصديقاتي على الجلوس إليها، لهب المدفأة قويّ، لكنّه لا يكفي لتدفأة هذا المطعم الكبير، بل تهب التدفئة المركزية الدفء للمكان، أمّا هذه المدفأة فليست أكثر من ديكور فلكلوريّ يتناغم مع الطراز الشعبي للمطعم، نجلس في مقاعدنا الجلديّة التي تحيط بالطّاولة التي تطلّ من خلال الزجاج البرتقالي على معظم أحياء المدينة.

نخلع معاطفنا، نضعها قريباً منّا، نتبادل النكات، تعلو ضحكاتنا في المكان، أمّا ذلك الصبي الذي يجلس متيّماً إلى جانب صبية يافعة فنلاحقه بنظراتنا، نخمّن أيّ الكلمات يسمعها إيّاها، لا بدّ أنّهما طالبان في المدرسة الثانوية. المكان مزدحم بالزبائن، حسناً أننا جئنا في هذا الوقت لو تأخرنا قليلاً لما وجدنا أيّ طاولة شاغرة، الكلّ مشغول بتناول وجبة العشاء، روائح الطّعام تفوح في المكان، بطوننا الجائعة تشتهي كلّ الأطباق.

نطلب قائمة الطّعام، تسخر مروة من طلب القائمة، تقول بنبرتها الساخرة: ألم تحفظوا بعد قائمة طعامهم؟ أستطيع أن أذكر لكم محتوياتها عن ظهر قلب.

تقول دلال بلغتها المستهترة والمستخفّة بكلّ شيء: دعينا نظهر كما الزبائن المحترمين.

مروة: ألا نكون محترمين إلّا إذا حدّقنا طويلاً بقائمة الطّعام؟

تتدّخل هدى، تخاطب النّادل بنبرتها الرزينة، وتملي عليه ما نرغب به للعشاء، تطلب تسعة أطباق من اللحم المشويّ، مع المرق والسّلطة والأرز المبهّر.

دقائق تمضي ثم يصبح الطّعام أمامنا، الكلّ يأكل بشهيّة، أتمنّى لو أنّك تحضر، وتجلس بهدوء معي إلى تلكَ الطّاولة الصّغيرة التي تطلّ على الشّارع الخلفي المؤدّي إلى الحي القديم، كثيراً ما اصطحبتني إلى هذا المكان الذي نحبّه في الشّتاء، كما نحبّه في الصيف، في كلّ مرة نرى من هذا المكان منظراً مختلفاً للمدينة، نأكل قليلاً و لكن نتحدث كثيراً، هذا اللحم لذيذ، ليتكَ إلى جانبي تأكل منه، فأراقب طريقتكَ الفريدة في الأكل، طريقتكَ التي ترغّب من أمامك بالأكل بمثل شهيتكَ وبمثل إقبالكَ على الطّعام.

أشكركَ من قلبي لأنّك دفعتني إلى هذا العشاء، أشعر بسعادة غامرة وأنا مع صديقاتي، منذ مدة طويلة لم أصحبهنّ إلى أيّ مطعم، لا بدّ أنهن يشعرن بمدى انشراح صدري وسعادتي، عندما أكون على وئام معكَ يجتاحني الرّضا وأعيش حالة سلام مع نفسي ومع غيري، يتّسع قلبي لكلّ البشر؛ لأن قلباً يعشقكَ لا بدّ أن يحمل كلّ حب وعشق الدّنيا، حباً يكفي ليغمر كلّ البشر. نتحدّث في مواضيع كثيرة، ولكن نعرضها بطريقتنا الساخرة والضاحكة، شقاوة فاتنة تثير ضحكاتنا المتحفّظةعلى سلوكها المستهتر، تعقد رجلاً فوق رجل، وترقّص العليا بطريقة لافتة للنظر، أعجب من ولعها الشديد بالملابس

الضيقة التي تظهر صدرها الكبير، لا تملك شهيّة حقيقية للطعام، تكتفي بالقليل منه، تتابعنا ونحن نأكل، تطالبنا بالتّوقّف عن شرب الحساء، نضحك من طلبها، نرتشف ما تحويه ملاعقنا من حساء، تجيل نظراتها في المكان، تتسمّر نظراتها في أقصى المطعم، من طريقة ابتسامتها وطريقة إسدال هدبيها، نخمّن جميعاً أنها وجدتْ (تسلية اليوم) كما تسمي الشّبّاب الذين تتعرف بهم.

تكلّمنا، ولكنّها لا تنسى أن تهديه بعض نظراتها، نظرات فضولنا تمتدّ إليه، لا بدّ أنّه سيدنو من طاولتنا، ويكلّمها بمجرد أن يرفع العشاء من أمامنا، تضحك بطريقتها العابثة وتقول: ألم أقل لكم أنّني لا أقاوم؟

تضحك صديقاتي، تبدو هدى غير سعيدة بسلوكياتها الطائشة، ولا راضية عن رضا الصديقات عن سلوكها، تقول لها بنبرة حادّة: لقد فضحتنا، الكلّ يراقبنا، أرجوك كفّي عن استهتارك، دعينا نتناول الطّعام دون شغب.

لا تمتعض فاتنة مما تسمع بل تضحك، وتستمر في عبثها، أحدّق فيها، أقول لها بنبرة لا تخفي ابتسامتي: متى ستعقلين، وتعتقين أبناء العالم من سلوكياتك الشيطانية؟

- عندما أتزوّج.

- ومن المغفّل الذي سيتزوّجك؟

- المغفلون كثر، انظري إلى ذلك الشّاب. ألا يبدو مغفلاً جذّاباً؟

كلماتها تبعث الضحك في المكان، ليتني أستطيع أن أبعث لـكَ بعض ابتساماتنا، في الصّباح كنتَ منـزعجاً بشدّة، ليس من عادتكَ أن تتجهّم في وجهي، ألححت عليكَ لأعرف سبب تقطّب حاجبيـكَ، لا بدّ أنّك رجل خلقت من الرقة لتتأثر إلى هذا الحدّ بسبب دهسكَ لقطّة من غير قصد، تؤكّد أنّك لم تلحظها تعبر أمام سيارتك، تتمنى لـو أنّ رجلاً كسرت لكَ، ولم تدس تلـكَ القطّـة المسكينة، تؤكّـد لـي أنّـك ستتجاوز انزعاجك، وتبتسم، ولكنّني أعلم أنّك ستتأثّر طويلاً بسبب دهس القطّة، لستَ ممن يملكون ضميراً ساكناً بل ضميركَ دائم الثـورة والشكوى والاحتجاج.

وجيب قلبي يعلو، دمائي تسري سريعاً في جسـدي، أخمّـن أنّـك قريب منّي، أبحث عنكَ في المكان، أقول لصـديقاتي بنـبرة مـن يتلقّـى وحياً من السّماء: هو موجود، أشعر به هنا.

- أين؟ لا أراه.

- لا أعرف، ولكنّني متأكّدة مـن أنّـه قريـب منّـي، تقـول فاتنـة بنبرتها الساخرة: والله يا بنت آخرتك بتنجنّي...

- أين هو لا نراه؟

اقترب سريعاً من النافذة التي تجاور طاولتنا مباشرة، ألقـي نظـرة سريعة إلى الأسفل حيث الشّارع، أرى سيارتكَ تقف إلى رصيف الشّارع، أستطيع أن ألمح رأسكَ، أصرخ بصديقاتي كطفل وجد كنزاً: انظرن، ها هو، ألم أقل لكنّ أنّني أستطيع أن أعرف بوجوده

قريباً منّي.

- ماذا يفعل هنا؟

- لا أعرف، لا يبدو أنّه ينتظر شيئاً معيناً.

- لعلّه اشتاق، لك فأراد أن يكون قريباً منك

- لم لا تذهبي إليه، وتدعيه إلى تناول العشاء معاً؟

- لن يفعل هو يكره دخول المطاعم في أوقات ازدحامها.

نراقبك جميعاً من النافذة، تدير محرّك السيارة، ونبتعد بعيداً، أشيّعكَ حتى تختفي، أعود إلى جلستي الأولى، تقول فاتنة بفضول واضح: كيف تستطيعين أن تعرفي بوجوده قريباً منك؟ !

- لا أعرف، قلبي يضطرب، وأشعر بيديّ ترتجفان، وشيء خفي يحدّثني بقربه.

- يا لها من حاسّة! لا بدّ أنّك محظوظة بهذه القدرة المميزة على معرفة قرب الناس منك.

- هذه الحاسّة تتعلق به فقط، أمّا مع غيره فلا أملكها، بل لا أستطيع أن أرصد وجود أيّ أحد في محيطي إلّا إذا وقعت عيناي عليه.

- يا لك من امرأة! ما رأيه في هذه الحاسّة؟

- يقول إنّه يكره هذه الحاسّة؛ لأنّه يشعر بأنّه مراقب، وأنّني أطارده بحواسي غير العادية، أتصدّقون أنّه يصفني أحياناً بالكابوس؟

يضحك الجميع من هذا الوصف، يقترب النّادل الأشقر من طاولتنا للمرة الرابعة، يسألنا إن كان الطّعام ينال رضانا، نردّ عليه بالإيجاب، لا بدّ أنه يتحيّن الفرصة ليسألنا عن أنس، في كلّ مرة نأتي إلى هذا المطعم يسألنا عنها، وفي كلّ مرة يقول: إنّها ابنة حلال، وإنّها كانتْ صديقة مقرّبة إلى أخته، ولكن صداقتهما فترت عندما تزوّجت أنس، وسافرت إلى الكويت مع زوجها الذي يعمل مهندساً هناك.

أجيبه بإجابتي المعتادة: هي بخير والحمد لله.

يعود ويسألني إن كانت سعيدة؟

أقول له: نعم هي سعيدة.

يشكرني ويستأذن برفع الصحون، يجمعها سريعاً ويذهب، الحمرة تعلو وجنتيه، حبيبات العرق تتنزّى من جبينه العريض، يغادر صالة الطّعام، لعلّه يختفي في المطبخ، تسأل صديقاتي عن سبب اهتمامه بالسؤال عن أنس، أهزّ كتفي وأقول: لا أعرف، لعلّه يبرّ بصديقة أخته.

- بل لعلّه يحبّها.

- معقول؟ !!

تقول مروة بنبرتها التمثيلية: لا مستحيل تحت الشّمس في هذه الحياة.

تقاطعها هدى: فالحياة مسرح كبير، نعلم ذلك

المكان يعبق برائحة الأرجيلة، تبدو فاتنة وهي تدفع دخان الأرجيلة من أنفها وفمها في الهواء على شكل حلقات متداخلة كما (معلّم قهوة) في فيلم مصريّ تقليديّ. لا يروقني منظرها بتلك الأرجيلة، أمّا صوت ذلك المغني فيطربني بقوة، يجلس أمام مكبّر صوت خفيض يناسب جلسته، يضّم عوده بألفة واضحة، لا فرقة موسيقية معه، بل هو من يتولّى أمر الموسيقى والغناء، يؤدّي كثيراً من الأغاني القديمة، يطالبه الجمهور بأن يعيد غناء أغنية (من غير ليه)، يؤدّيها مرةً أخرى، يعيد ضبط أوتار عوده، يقول إنهّ سيغني قصيدة للشاعر محمود درويش هو من قام بتلحينها، وسيغنّيها الليّلة لأوّل مرة، تتقدم مقدمة موسيقية غناءه، يصدح صوته قائلاً:

تكبّر... تكبّر

مهما يكون من جفاك

ستبقى بعيني ولحمي ملاك

وتبقى كما شاء حبّنا أن أراكَ

نسيمكَ عنبر: وأرضك سكرّ

إنّي أحبّك أكثر.

عندما كتبت هذه القصيدة لكَ على بطاقة مع ورود كلّ أسبوع، قلتَ لي: وإنّي أحبّك أكثر.

ليت حبّكَ لي يجعلكَ ترفض أيّ مكالمات من شرف، أصبحتْ تكثر من مكالماتها لكَ، أؤكد لكَ أنّي لا أنزعج من اتّصالاتها، أعلّل

الدموع التي تفرّ من عيني بالحساسيّة المفاجئة بسبب تقلّبـات الطقـس، لعلّك لا تصدّق ادعاءاتي.

لا بدّ أنّ هذا الموضوع يترك مسحة حزن واضحة على وجهي، تسألني هدى: أهناكَ ما يزعجك؟

- أبداً، لماذا تعتقدين أنّني منـزعجة؟

تقول فاتنة ودخان الأرجيلة يندفع من أنفها:- دعونا نفتح موضوعاً مسلّياً.

أقول لها بفضول: مثل ماذا؟

- مثل آخر أخبار الفضائح.

تبتسم نورما التي تهوى تلقّط الأخبار ونشرها: خبر الموسم هو عودة شرف إلى المدينة.

يا له من خبر! لو أنّ السّماء تساقطتْ على رأسي قطعاً لكانت أرحم بي من كلماتك يا نورما، لما عدت يا شرف؟ قلبي يحدّثني بالكثير حولك، لا بدّ أنّ عودتك تحمل الكثير لي. أسأل نورما بفضول أحاول عابثة أن أخفيه: متى عادت؟

- من أسبوع.

- هل رأيتها؟

- لا.

- إذن كيف عرفت بعودتها؟

- أخبار شرف تتداول أكثر من تداول الدولار.

- لَمَ عادت؟

- عادت إلى عملها في المجمّع التجاري.

- وماذا عن زوجها؟

- لقد انفصلت عنه.

- ماذا تعنين بانفصلت عنه؟

- أعني أنّهما قد تطلقا.

- ماذا! !؟

يستمر الحديث وتعلو الضحكات وتستمر التعليقات، أمّا أنا فأغرق في همّي الجديد، أشعر بهالة من السحاب الأبيض تلفّ المكان، رأسي يدور، كثير من الأوهام تلهو برأسي، كم أتمنّى أن ألج في عالم مجهول، عالم بعيد لا وجود لشرف فيه، ليت ساعات الظهيرة تعود لأدخل مع مروة ذلك الهرم الحديديّ مرة أخرى، وأفرّ فيه إلى عالم من الرّاحة والاسترخاء.

قالت مروة: إنّ هذا الهرم قد شيّده طالب نابغ في علم النفس، يجري فيه بعض الدراسات حول التخاطب عن بعد، وحول التنويم المغناطيسي، عندما سألتها: ما سبب تشيّده على هذا الشّكل الهرمي؟ قالت: إنّه يشيّده بشكل يحاكي شكل الأهرامات التي يعتقد أنّ

لتشيدها على هذا الشّكل حكمة لا يعرفها إلّا المصريون، ولا بد أن هذا الشّكل الهندسي قد وفّر لهم الكثير من الخطوط والدوائر المغناطيسية التي تؤثر تأثيراً مهماً على عقل الإنسان ونفسه وجسده.

أثارتني فكرة قدرة ذلك الطّالب على التنويم المغناطيسي، مروة قالت: إنّها جرّبت مثل هذا التنويم، قد كان لها بمثابة التجربة المدهشة. رغبت في أن أخبر هذه التجربة، حاول الطّالب لأكثر من ثلاث مرات أن يدخلني إلى أحضان ذلك النّوم اللاإرادي، ولكنّه فشل تماماً، فقد بقيت بكامل وعيي وإرادتي، قال لي:

لأول مرة أفشل في تنويم واحد.

-...

- لا بدّ أنّك تمتلكين إرادة حديدية تجعلك تسيطرين على كامل وعيك، أو أنّ عقلك الباطن يرفض هذا النّوم لتكتمه الشديد على سرّ يعزّ عليه أن يكشفه.

- لا أملك أيّ أسرار.

طيفكَ يجلس قريباً منّي، يبتسم لي بخبث، كأنّه يقول لي: يا كاذبة أليس عشقك لي هو الذي يسكن ذاتك؟ أقول لطيفكَ: لكنّ كثيراً ممن حولي يعلمون بأمر حبّي.

- ولكنّهم لا يعرفون أنّك تعشقينني حدّ الجنون.

يا لطيفكَ العذب! يقف بيني وبين نفسي , يستقر في كلّ مداركي، يحول بيني وبين الاستسلام لدنيا هذا الطّالب، يصرّ على

سريّة هذا العشق، يعقل لساني عن فكّ رموز هذا السحر الذي يملكنّني دون حول منّي أو قوة.

شرف أحاول أن أهرب منها لكن لا فائدة، هي في كلّ مكان، ثوبها التوتي اللّون جميل جداً، أمّا القبعة السوداء التي تعلو رأسها فتجعل نمشها البني أكثر ظهوراً، نورما أوّل من يتنبّه إلى دخولها إلى صالة المطعم، تقبل بخطىً واثقة نحو طاولتنا، تصافح الجميع بحماس واضح، تشدّ على يدي، هل تريد أن تقول لي: إنهّا قد عادت؟ أم تريد أن تأكّد لي أنّها حقيقة، وليست وهماً أتخيّله؟ تعرّف الجميع على تلك السّمراء الضخمة التي ترافقها كما الحارس الشّخصي، لا بدّ أنهّا قد قضتْ الوقت تتسوق وصديقتها. تجلس إلى طاولتنا من دون دعوة، أتابع كلّ كلمة تقولها بتحفز لا أستطيع أن أكبحه، أبحث عن أيّ جملة قد أفهم منها أنهّا مغادرة، وأنّ فترة بقائها في المدينة فترة قصيرة. تتحدّث مع الجميع، تصطنع الكثير من المرح والضحك، لكن نظراتها لا تفارق وجهي، كأنهّا تحاول أن تعرف أيّ المشاعر تسكنني تجاهها.

نشرب عصير البرتقال، أمّا هي وصديقتها فتطلبان العشاء، تأكل بشهيّة واضحة، أحسدها على هذه الشهيّة، أراقب طريقتها في الأكل، كم أتمنى أن تموت، يعجبها صوت المغنّي الذي يشدو بصوته الجميل، تدندن معه ثم لا تلبث أن تردّد معه بضعة مقاطع مما يغنّي، حركاتي تبدو عصبية ونزقة، أفرك يدي اليمنى بعصبية، أصيح من الألم، لقد لامس جلد يدي المدفأة النفطية، فاحترق ظاهر كفي، يسارع النّادل

إلى إحضار بعض الثلج، هذا الحرق يؤلم أكثر مما تخّيلت، يقول النّادل: لا تقلقي هذا حرق سطحي سرعان ما سيختفي.

-ولكنه يؤلم.. يؤلم بشدة.

التأثر واضح على محيّا هدى، لابد أنهّا تشعر بالذّنب؛ لأنهّا والصديقات يجاملن شرف، وهنّ يعلمن كلّ العلم أنّني لا أطيق رؤيتها، أشدّ بالثلج على يدي. ما زالتْ تأكل، ملامح صديقتها تقول إنهّا أدركت انزعاجي من وجودها، تستأذن السّمراء، وتنتصب في مكانها، بينما تجمع شرف أكياسها وتحمل حقيبتها النّسائيّة تهيؤاً للانصراف، تقول فاتنة بنبرة متعآليّة: أصحيح ذلك الخبر الذي سمعناه عنك؟

- أيّ خبر تعنين؟

- الخبر المؤسف عن طلاقك.

- ليس خبراً مؤسفاً، لقد أفلستْ شركة طليقي، وأصبح عصبياً لا يطاق، فانفصلت عنه، لقد خشيت أن يدفعني إلى الجنون. تقول فاتنة بنبرة مازحة، ولكن ذات مغزى عميق:- أأصبح عصبياً لايطاق أم مفلساً لا يطاق؟

-كلاهما معاً، أنا صبية فاتنة، وأستحق أن أمتّع شبابي.

أراقب ذلك الخاتم الماسي في إصبعها، حجره الكبير يدل على أنّ طليقها متّعها طويلاً، ولم يبخل عليها أبداً، يا له من غبي تعس! دفعه حظه الحائر إلى حضن شرف. تخطو شرف خطوة إلى الأمام تقول

بنبرة أخالها تقصدني فيها:-سنلتقي عما قريب..إلى اللّقاء.

يراقبها الجميع تخرج من الصالة وتختفي، يعود الحديث إلى سابق عهده، أرجيلة فاتنة تغرق الطّاولة في سحابة دخانية بيضاء، أمّا أنا فأراقب ذلك الحرق المؤلم في ظاهر كفي، أتساءل إن كان هذا الحرق هو الحرق الأخير الذي ستعذّبين جسدي به يا شرف؟ أم أنّ هناك حرائق أخرى ستكوين روحي بها؟

(٢٣)

منذ شهر كامل لم نمارس سوياً طقوس السير في المتنزّه، تقول أنّك اشتقتَ إلى لقائي، و ورودي التي أبعثها تحثّكَ على رؤيتي، أنتظركَ في ذلك المقعد الشّتويّ الذي اعتدنا الجلوس عليه، ها أنتَ تقبل، هذه الليّلة قامتكَ تبدو أقصر، ألفتكَ تسير بشموخ تشرئب إلى الأمام، تنتصب بكلّ عزم، أمّا الليّلة فتسير متهالكاً أكاد أرى رأسكَ يغور بين كتفيكَ، لمَ لا تلبس الملابس الرياضية التي اعتدتَ على أن تلبسها لغاية السير سوياً؟ إذن لم تأت للسير سوياً كعادتنا ولم تشتق إلى من تعشقكَ، بل تبحث عن إنسان تثق بحبّه وبإخلاصه لتسرّ إليه بمكنون قلبكَ.

تدنو منّي، تلقي التحيّة، ثمّ تجلس إلى جانبي، لم تقبّلني تلك القبلة التي اعتدتها كلّما قابلتني في المتنزّه، تقول: لقد اشتقت إليك. أبتسم لكَ ابتسامة لا تخفي خيبة أملي، وأقول:- صدّقني، أنّني اشتقت إليك اشتياقاً لا يوصف.

أتحرّك من مقعدي لأدنو منكَ، أصبح ملتصقة بجسدكَ تماماً، أستجمع شجاعتي وأمسك بيدكَ، آخذ نفساً عميقاً كمن سيلقي بنفسه في البحر، أقول:- أتثق في حبّي لكَ؟

تقول بتوجّس من سؤالي: كلّ الثقة.

- أتثق بإخلاصي لكَ؟

- بل أنا متأكد من أنّني لو جرت عليك، وطلبت عينيك لاقتلعتيهما من محجريهما وأعطيتني إياهما طائعة راضية.

- من تستطيع أن تعشقكَ بهذا الجموح، ألا تعتقد أنّها تستطيع أن تكون صديقة مخلصة مستحيلة الوجود، تمسح دموعكَ، تحفظ أسراركَ، وتحرس أحلامكَ؟ لن تجد صديقاً يسمعكَ بروحه وقلبه وعقله كما سأسمعكَ، تكلّم، حدّثني عن أحزانك، ستجدني دائماً إلى جانبكَ، إن قدّر لأحد أن يقف إلى جانبكَ في هذه الحياة فلمَ لا تساعدني على أن أكون هذا الإنسان؟

تحدّق بي بنظرات مشفقة، أكره الشفقة، لم أخلق لكي أستجدي شفقة أيّ إنسان حتى ولو كان أنتَ، تقول بتأثّر واضح:- أنت لا تستحقين منّي أيّ ألم، بل تستحقين أن أحلّق بك إلى السموات العلا.

- الألم الوحيد الذي لا يمكن أن أحتمله هو أن أراكَ تتألم إلى هذا الحد.

الدهشة تملأ عينيكَ، أتعجب أن أشعر بآلامكَ، وأن أدركَ حيرتكَ؟ أقول لك بدمعة أحاول أن أغالبها:- عندما تحزن، فإنّ الحزن يغمر قلبي، أنا لا أحزن بقلبي بل بقلبكَ، أيّ أمر يسعدكَ يسعدني، ثق تماماً بحبّي، أحبّكَ كما لم تحبّ امرأة رجلاً.

أراقب صمتكَ يهرب إلى البعيد، أنتظر كلماتكَ، وأخشى سماعها، أشدّ على يديكَ أقول بعد تردّد:- أهي شرف؟

تطالعني سريعاً ثم تقول بصوت خفيض:- لا يمكن أن تعشقني

أي امرأة بمثل عشقك، أحسد نفسي على هذا الحب العظيم، لا يمكن أن تملكَ امرأة مهما بلغت مكانتك في قلبي.

- تريدها في حياتكَ، وتخشى خسارتي، أليس كذلك؟

- لا أستطيع أن أتحمّل فكرة خروجك من حياتي، لا أتصوّر دنياي من دونك، أنت أثمن ما أملك.

لا أستطيع أن أغالب دموعي بعد الآن، تنزلق دموعي سريعاً في تجويف فمي، أمسحها بسرعة كأنّها لم تكن, تركض بي الذاكرة إلى سنوات مضت، أعدكَ بافتتاح وإنهاء موسم الياسمين في كلّ عام، تقول: إن فعلت ذلك، فستكونين أثمن إنسانة قابلتها في حياتي.

أهزّ رأسي ساخرة من قدر أثمن إنسانة في حياتكَ...

أقول بصعوبة:- لن تخسرني، لا قوة في الأرض تستطيع أن تفرّق بيننا، أنا رفيقة قلبكَ حتى آخر العمر.

- اغفري لي ذلك الألم الذي أسببه لك.

- الألم الحقيقي أن تتألم بصمت فقط؛ لأنّك تخشى من أن تؤلمني، ما دمت أراكَ وأسمع صوتكَ، فأنا أسعد نساء الأرض، يكفيني أن تعرف بحبّي وتثمّن مشاعري.

- أنا لم أقدّس إنساناً كما قدّستكَ، لم أقابل في حياتي إنساناً مثلك أنت إنسان لا يقابل في الحياة سوى مرة واحدة.

- دائماً سأتمنى لكَ السعادة، سأكون دائماً القلب الذي يعشقكَ، ويغفر لكَ كلّ ضعفَ.

- أنت لن تهجريني، أليس كذلك.

أبتسم بصعوبة أبلع ريقي، وأقول:- حتى ولو طلبتَ منّي أن أهجركَ فلن أقوى على فعل ذلك، دائماً ستجدني عندما تحتاجني.

تطلب منّي كما الطفل أن أضمّكَ، أحاول أن أحتوي جسدكَ الممتد بين ذراعيّ، أقبّل رأسكَ ووجنتيكَ ويديكَ، أقول بصوت مذبوح:- يا لها من امرأة محظوظة! تحبّها أليس كذلك؟

- ليس أكثر مما أحبّك، ستبقين دائماً أثيرتي وطفلة عمري.

- أيّ الأمور تعشق فيها؟

- شرف امرأة ضعيفة، عاشت حياة صعبة، لم تعرف أباً، حلمتْ به دائماً، أمّها وأخوها كانا بمثابة الأب لها.

- أتشفق عليها؟

- لا، ولكنّها تذكرني بطفل عاش يحلم بأب يأتي في ليلة العيد، يحمل الهدايا والألعاب والملابس الجديدة ويغمره وأخويه بالحب، طفل يتمنّى أن يوسّد رأسه إلى صدر أبيه، وينام طويلاً؛ لأنّه يشعر بالأمن.

- هل حدّثت شرف عن ذلك الطفل؟

- حدّثتني عن طفولتها، فحدّثتها من دون قصد عن ذلك الطفل.

- ألم يحن الوقت لتحدّثني عن ذلك الطفل؟ أنا أعرف عنكَ كلّ

شيء، ولكنّني متأكد من أنّني لا أعرف عنكَ أيّ شيء.

تتنهّد كأنّك على وشك اقتلاع صخرة:- أنا لم أقل لك من قبل أنّني أنتمي لعائلة رجالها ينسجبون نساءً قدرهنّ أن يعشقن أمواتاً، والد جدّي تزوّج لليلة واحدة، ثم اقتادته (الجندرمة) إلى الحرب ولم يعد أبداً, وبقيت زوجته تنتظره وطفله ثمرة الليّلة الواحدة، زوّجت ابنها مبكّراً، كانت سعيدة به، تزوّج لمدة عام، وأنجب جدّي، كان شهماً يغيث كلّ من يطلب مساعدته، خرج في صباح باكر ليساعد في دفن جار له، تحمّل البرد لساعات كي يحفر قبر جاره، عندما عاد إلى البيت في المساء عاد جثّة هامدة, فقد أوقف البرد قلبه الفتي، طوال حياتي سمعت جدّتي تبكيه، وتتذكّر العام السعيد الذي عاشته معه، القدر كان أقلّ لؤماً مع أبي، فقد وهبه حياة لمدة ثلاث سنوات مع أمي، في كلّ عام وهبته أمي ثمرة من ثمار حبّهما، أنا كنت أحد هذه الثّمار، خرج يوماً إلى العمل، ولم يعد أبداً، طوال عمري انتظرته ليعود محمّلاً بأشواقه، ويحضنني وإخوتي، ويقضي عمره معنا، لكنّه لم يعد.

تدهشني كلماتكَ، القدر رتّب لي لقاء رجل يقابل كي يفارق.

- إذن فأنتَ ثمرة حب قدره الفراق؟ يا لكَ من ثمرة؟

- يبدو أنّني سليل عائلة رجالها يموتون بعشقهم، ولا يمهلون أكثر من عمر شمعة..

أبتسم ساخرة: أنا سليلة نساء ملعونات لا يعرفن السعادة،

وأنتَ سليل رجال عاشقين يولدون بعشقهم، ويكفّنون به.

- لطالما رغبت في أن أبكي أبي، ولم أقدر، عندما تبكي شرف أباها أشعر بأنّ دموعها تغسل قلبي، هي إنسانة رقيقة وضعيفة تحتاج إلى مساعدتي، تقول إنّها لم تقابل إنساناً عطف عليها مثلي.

- ...

- لا بدّ أن عطفكَ واهتمامكَ يعني الكثير لها.

- حياتها تختلف عن حياتك، أنت امرأة محظوظة، أمّا هي فأقلّ حظّاً منك، أنت امرأة جبّارة وقوية لا تحتاجين إلى مساعدة أي أحد، أمّا هي فضعيفة تحتاج لكلّ عون.

كيف يمكن لامرأة تملك مثل قلب شرف، وتسكن في قلب رجل مثلكَ أن تكون ضعيفة وغير محظوظة؟ بينما امرأة يحترق قلبها بصمت وتراقب عجزها بكبرياء تعدّ محظوظة وقوية، ليتكَ تعلم أنّ العشق يهزم أقوى القلوب، ويجعلها عاجزة أمام قدرها، ليتكَ تدرك مدى ضعفي، وعظم بلائي، ليتكَ تعلم أنّني غدوت امرأة وجودها مرهون بقربكَ، واتزان عقلها وروحها وقلبها مرتبط بوصالك.

- يبدو أنّها ستكون محظوظة منذ الآن.

- تماماً كما أنا محظوظة بكَ؟

- ستكون محظوظاً بعظيم صداقتي.

- لطالما احتجت إلى حبيبة صديقة أو صديقة حبيبة، فوهبتني كليهما.

أتحسّس شيئاً غريباً في يدكَ اليسرى، بحركة طفوليّة أفتح يدكَ، خصلة من الشّعر البنيّ تسكنها، ابتسامة الموت تعلو وجهي، أقول مقتولة:- أهذه خصلة من شعرها؟

- أحتفظ بهذه الخصلة منذ زواجها.

- وتظنّ أنّ امرأة تعرف رجلاً بمثل رقّتكَ ليست محظوظة؟

- أشعر بأنّ كلامي قد أحزنك.

أهرب من سؤالكَ، أطالع خصلة شعرها بحسرة خفيّة: خصلة شعر جميلة.

- ليس بمثل جمال عينيك.

- أنا متعبة يجب أن آخذ قسطاً من الرّاحة.

- لأول مرة أسمعك تشكين من التعب!

- ربّما لأنّني أشعر به لأول مرّة في حياتي.

- ممّ تشكين؟

- من قدري.

أدير قرص الهاتف، أنتظر سماع صوتها، لبعض ثوان لا أملك الكلمات، لا بدّ أنّني آخر من تتوقّع سماع صوته، تستقبل مكالمتي استقبالاً حسناً، تسألني عن صحّتي، لا أجيبها، بل أسمع بعضاً من ثرثرتها، أقول لها بنبرة صادقة:- شرف ... هو يحبّك، هذه فرصتك لحياة سعيدة، اغتنمي هذه الفرصة، اسعديه، اسعديه كما يجب، إيّاك

أن تؤلميه، إن فعلت فسوف أقتلك، إيّاك أن تستهيني بكلماتي، لا تمتحني جنوني، لن أغفر لك خذلانه إنْ فعلت، ستسعدين بأطيّب رجال الدّنيا.

لا أنتظر إجابتها، أغلق السّماعة، أهرب من سماع صوتها، أدير قرص الهاتف مرة أخرى، كقطرات العسل يتدفّق صوتكَ، أخبركَ بعزمي على السّفر تلبية لدعوة هلا خطيّبة أجود، فقد توثّقت علاقتي معها.

- أنا محتاجة لراحة ما، لعلّي أجدها عند البحر، تسألني عن عنوان أعطيكَ إيّاه على عجل، أعدكَ بعودة قريبة، أتمنّى لكَ الحظ والسعادة، فتتمنّى لي عطلة مميّزة، صوتكَ حزين، لكنّني أحاول أن أتجاهل هذا الحزن، أكاد أنهي المكالمة، صوتكَ يقول لي:- ليتك في حضني ...

- ليتني في حضنكَ ...

- أبعدَ كلّ ما سببت لك من ألم تتمنّين حضني؟

- حتى ولو كنت عظاماً نخرة أو تراباً حقيراً فسأبقى أعشقكَ، وأشتهي تراب قدميكَ.

- أتسافرين غاضبة؟

- بل أسافر؛ لأنّني أحبّكَ، لأنّني أحترم رغبتكَ، أريد أن أوفّر لكَ فرصة لفهم مشاعركَ.

- وماذا عنكَ؟

اقول بنبرة العاقلة لكن بمذاق دموع مالحة:-

- لقد ولدت لكي أحبّكَ.

منذ أسبوعين أجلس على هذه الصّخرة، تنغرز نتوءاتها في جسدي، أسألها أن ترفق بجلدي؛ لأنّه يغلّف روحاً من الأحزان والأشواق، كم أشتاق لكَ!! كلّ يوم أبعث لكَ نداءً، أتسمع ندائي أم أنّ لجّة البحر تبتلعه كما تبتلع أسراري التي أناجيه بها في كلّ يوم لقاء، وما أكثر لقاءاتي به، أوّل مرة زرته برفقة هلا وأختها الصغرى، عندما عرفت الطّريق أصبحت أزوره وحيدة، حدّثته طويلاً عن صداقة خفيّة تربطني به، كلّما أقبلت نحوه، تسرع لجّته إلى لقائي، هديره يحدّثني بآلاف الأسرار والحكايا، أمّا حكايتي فتستهويه بشكل خاصّ، يسارع ماؤه إلى غسل أخمص قدمي، كثيراً ما يلهو عابثاً، فيغسل أجزاء من جسدي ببعض قطرات مياهه التي تقفز بخفّة نحوي.

تعجب هلا من ملازمتي لهذا البحر، تظنّ أنّني أعشق هذا الحشد المهول من الماء، أمّا أنا فأعشق البحر، لأنّه يشبهكَ، إنّه طيّب مثلكَ، يحسن سماعي مثلكَ، يسرّ لي بكلام لا يكاد يفهمه غيري، غضبه يشبه غضبكَ، صمته يشبه صمتكَ، ماؤه يلامس جسدي برقّة تشبه رقّتكَ، كم أعشق البحر! ! طيفكَ يقترب منّي بفضول ويسألني بفضول عن مبلغ حبّي له، أبتسم له، وأقول: أحبّه بمقدار شوقي لرؤية شمسي...

متى ألقاكَ يا سليل العشق؟ طال الفراق، لعلّكَ سعيد الآن، إن كنتَ كذلكَ، فأنا راضية بقسمتي، أحدّثكَ عن طفولتي وعائلتي،

أحدّثكَ عن أحلامي، طيفكَ يسألني بفضول عن حياتي، أجيبه سعيدة بأسئلته، فأنتَ يا مَن أحبّ لم تسألني يوماً عن حياتي، ما تعرفه عنّي يبدأ من اللّحظة التي قابلتني فيها في الأكاديميّة منذ سنوات، أرغب بنهم في أن تسألني عن حياتي، أحدّثكَ لعشرات الساعات عن تلك المرأة التي عشقتكَ بلا حدود، حتى البحر له حدود، أمّا عشقي فلا حدود له.

هذه الأمواج التي ترتطم بشدّة باللّسان الصّخري تذكّرني بغضبكَ وبانفعالاتكَ وبعطفكَ، تذكّرني بكَ وأنتَ تضحك، وتقول لي:- ما رأيك في أن تستيقظي غداً، وتقفي أمام المرآة، وتعاهدي نفسك على أن تعيشي كامرأة عاديّة حتى ولو ليوم واحد؟ عدي نفسك بأن تغضبي بلا مبالغة، بأن تحبّي بلا مبالغة، بأن تحزني بلا مبالغة، بأن تكوني امرأة عاديّة لا تسكن كلّ الأجساد وتقطع الأماكن والمسافات لتكون في حضني، عديني بأن تكوني ولو مرّة واحدة ضمن الطّبيعيّ، وأن لا تكوني دائماً في قمّة الاستثارة والتحفّز.

أجيبكَ باسمة:- من قال لكَ إنّ حبّي مبالغة وليس جنوناً يأتي على مراحل؟

لا ألحظ وجود هلا وشقيقتها إلّا بعد أن تجلسا إلى جانبي، تقول أختها: ما قصّة البحر معك؟ تزورينا أم تزورين البحر؟

أبتسم لسؤالها، الهواء يعبث بأطراف ثوبي الأبيض، أمّا شعري المتطاير فيحجب جزءاً من وجهي، لعلّه يمنع عيني من أن تقولا الكثير. ولكنّه لا يمنع ذاكرتي من أن تسترجع البارحة، أن تسترجع

ثوب العروس يغمر الحفل بالأبيض، طيفكَ يقترب منّي يدعوني إلى استرجاع لحظات راقصتكَ بها بثوب أبيض، أتخيّل نفسي ألبس الأبيض ولكن في العلانيّة، كلّ عشّاق الدّنيا مدعوون إلى ذلك الزفاف، زفافي إليكَ، لأول مرّة منذ ألف عام أنعم معكَ بالسعادة، سعينا الدؤوب خلف الوصال يتوّج باللّقاء، يتوّج باللّون الأبيض، تضمنّي، وتغنّي لي، فتذوب قلوب العذارى الحالمات برجل مثلكَ، رجل يحاكي أحلام المرأة وأمنّياتها، رجل ما زال يجيد امتطاء الخيل.

تقول هلا بصوتها الرقيق:- هل أعجبك زفاف البارحة؟

- كان حفلاً بهيجاً.

- أهذه أوّل مرة تحضرين بها زفافاً قريباً من البحر؟

- نعم أوّل مرة.

- ما أكثر شيء أعجبك في هذا الزفاف؟

- أعجبني اللّون الأبيض.

تضحك هلا من الإجابة، أمدّ يديّ نحو شقيقة هلا، فتودعني طفلتها الصّغيرة، أضمّها إلى حضني بفرحة من وجد كنزاً، أتفقّد أطرافها الصّغيرة، تنام بملء عينيها، ملاك صغير يطلّ من جبهتها، أتحسّس شعرها المسدل، أداعب بأطراف أناملي بشرتها الورديّة، يا إلهي ... تبتسم وهي نائمة، تفتح عينيها للحظة , ثمّ تعود إلى عذب نومها، أدنيها بكلتي يديّ من قلبي، أقبّل جبهتها ويديها الصّغيرتين، أغمض عيني للحظات، أدعو الله أن يهبني أحلاماً لتكون بمثل وداعة

هذه الطفلة، وبمثل جمال عينيكَ يا من أحبّ..

يتعكّر صفو الطفلة، وتشرع ببكاء عذب، أقبّلها، أهمس في أذنها:- أنا أدعو الله أن يهبني أحلاماً، ولكنّني سعيدة لوجودك في حضني، فلا تغضبي من دعائي، وعودي إلى نومك قريرة.

تتناول الأمّ طفلتها، تقول بنبرتها الطيّبة: إذا بقيت تجلسين وحيدة في هذا المكان فقد تصابين بجنون البحر.

- وما هو جنون البحر؟

- يقولون إنّ من يطيل الجلوس إلى البحر يعشقه إلى درجة تدعوه إلى أن يقذف بنفسه فيه ليصبح طعاماً للأسماك أو ليلفظه البحر جيفة عفنة، هكذا هو البحر يقتل كلّ عشاقه.

وكذلك أنتَ يا من أحبّ تقتل من تعشقكَ.

- يجب أن تهجري هذا البحر.

- أتحاولين أن تخيفيني لأهجر الجلوس في هذا المكان؟

- صدّقيني إنّ جنون البحر مرض حقيقي لطالما قتل أناساً من أهل الساحل، لو كنت أريد أن أخيفك لحدّثتك عن حارس المنارة ...

- أيّ منارة تعنين؟ تلك؟

- نعم، تلك المنارة القديمة، في أعلى التلّ.

- ما قصّة حارسها؟ أهو مجنون أيضاً؟

- لا، بل هو قاتل.

- ماذا؟ !

- يقولون إنّ هذا الحارس عشق قبل سنوات طويلة فتاة أطالـت الجلوس إلى البحر، عشقها إلى حد الجنـون، ورغـب في حبّهـا، لكنّهـا صدّته بقسوة، فقام بقتلها، وألقى بها في البحـر، ومنـذ ذلـك اليـوم لم تظهر الفتاة ...

- وماذا حدث للحارس؟

- منذ ذلك اليوم يقطع الشاطئ ذهاباً وإياباً يبحـث عـن حبيبتـه الجميلة.

- ألم تقولي إنّه قتلها؟

- لم يصدّق أنّه فعل ذلك بل بقي ينتظر حضورها مثل كـلّ يـوم ويترقّب جلوسها إلى الشاطئ.

- لا أستطيع أن أصدّق هذه القصّة.

- ولكنّها حقيقية، وإن لم تصدّقيني فهذا شأنك.

- حارس المنارة يقتل من يحبّ! هذه قصّة غريبة ...

تميل هلا بكتفها نحوي وتقول:دعونا من خرافـات البحـر وأهـل البحر، ما رأيك في أن ترافقينا أنا وبعض الصديقات لحضـور فـيلم في السينما.

- اليوم؟

- نعم بعد ساعة من الآن.

- لا رغبة لي في حضور أيّ فيلم.

- إذن سنلقاك على الغدّاء.

- إن شاء الله.

تغادر هلا وشقيقتها، أبقى وحيدة، أسأل طيفكَ:- لِمَ لمْ تصحبني أبداً إلى السينما.

يقول طيفكَ: عمّا قريب سأفعل.

- اصحبني لمشاهدة عرض فيلم (سبارتاكوس).

- ولكنّه فيلم قديم، قديم جداً.

- أريد أن أشاهد ذلك الفيلم؛ لأنّك حدّثتني طويلاً عنه، لقد شاهدته لأول مرّة في ايطاليا أيّام دراستكَ، في تلك الفترة كان الفيلم في موسم عرضه الأوّل، لطالما تكلّمت بحماس عن الممثّل (كيرك دوجلاس) الذي أدّى دور العبد الروماني سبارتاكوس الذي ثار على الدّولة الرومانية التي تستعبد البشر، وتعاملهم معاملة الحيوانات. قلتَ لي:- أنّك بكيتَ بشدّة عند مشاهدة اللّقطة الأخيرة في الفيلم، تلك اللّقطة التي تصوّر البطل سبارتاكوس مصلوباً على جذع أصمّ، يرى طفله أمامه، ولكن لا يستطيع أن يلمسه ولو لمرّة واحدة في حياته، ويبقى وحيداً ليواجه الموت مصلوباً بينما تبتعد زوجته بابنه الرضيع...

دقّات قلبي تشتدّ، لا بدّ أنّني خائفة من ذلك الشّخص الذي

يقترب منّي، أتـراه حـارس المنـارة جـاء يبحـث عـن عاشـقة جديـدة يطعمها للبحر؟ لا بدّ أنّه يقصدني، مع كلّ خطـوة يـدنو منّـي، يعلـو وجيب قلبي، أهرب بنظري نحو الأفق، لا أريد أن أشاهد وجـه ذلـك القاتل يسرق روحي.

- أنا أكره رطوبة البحر.

أطالع الصوت، لا بدّ أن ندائي قـد وصـلكَ حتـى أراكَ أمـامي مبتسماً، وشعركَ الشّمسيّ يداعب هـواء البحـر أطرافـه، تـدنو منّـي، تجلس إلى جانبي، ترسل نظراتكَ لتطارد نظراتي الهاربة نحو الأفق.

تقول لي:- لا أستطيع خسارتك، أستطيع تحمّل خسـارة الـدّنيا، لكن ليست خسارة إنسانة تعشقني حدّ الجنون، حيـاتي مـن دونـك لا تطاق.

- وماذا عن شرف؟

- أنت من أعشق، وغيرك من النّساء مجرّد نزوة سرعان ما يزول تأثيرها.

- ألا تحبّ شرف؟

- أستطيع تحمّل خسارتها، فأنا لا أعرف مـا نـوع المشـاعر الـتي أحملها لها، مشاعري نحوها ليست بوضـوح وعمـق مشـاعري نحـوك، أنت أثيرتي.

- كنت أعرف أنّك عائد.

- كنت أعرف أنّك عائدة .

- ضمنّي إلى صدركَ.

- لا تتركيني ثانية، كوني إلى جانبي، أحتاج إلى امرأة بمثل قوّتك وحبّك كي تحميني كي تدثّرني كما الأطفال.

- ضمنّي إلى صدركَ.

- الليّلة، بل الآن، سافري معي لمدة أربعة أيّام إلى إيطاليا، هذه فرصتي لكي تنقذيني من شرف، لا تتركي حبّك في مهبّ الرّيح، سافري معي ...

- ولكن ...

- سافري معي، ولتحترق الدّنيا من بعد ذلك، سأحضر هناك مؤتمراً فنّياً، وستكونين ملهمتي في هذه الرحلة.

- ضمنّي إلى صدركَ. موجة طموحة تأتي سريعاً، وتحتضن جسدينا بمائها البارد، تقول لي:- توقّفي عن الهرب، لا تجعلي شرف ملاذي الوحيد.

- ليس من الحكمة التورّط في مثل هذه المعركة، حرب القلوب حرب خاسرة على كلّ الأحوال.

- متى كنت بهذه الحكمة؟ لطالما كنت مجنونة، أنا الآن بحاجة إلى كلّ تهوّرك وإقدامك، بحاجة إلى حبّ لا يهزم أمام امرأة تجيد تذوّق شفقتي.

- أنا لا أريد أن أغتصب حياتكَ كما تفعل، لا أريد أن أتسلّل إلى حياتكَ كما اللصوص والفضوليّين، لا أقبل بشفقتكَ بل أريد أن

أدخلها وهي تنديني بالياسمين، وهي تتحرّق شوقاً إلى لقائي.

- من قال أنّك امرأة تهدى الشفقة؟ أيّ شفقة تقدّم لسحرك وعشقك؟ أنت نصفي الحبيب، ولست نصفاً غريباً قد أهدي إليه شيئاً من عطايا وفتات اهتمامي.

- ولكن ...

- أجهدني هروبك، لِمَ لا تكوني كسائر نساء الأرض؟ تقولين لمن تريد اغتصاب سعادتك: هذا الرجل لي، أعشقه، ولن أستغني عنه، ولتذهبي إلى الجحيم.

- ربّما لأنّك لستَ كسائر الرجال.

(٢٤)

أسافر معكَ؛ لأنّك تحتاج إلى حمايتي، تحتاج إلى قوتي، تحتاج إلى حبّي، يدكَ التي تحضن يدي بقوة تريد أن تقول لكَ: أنتَ من يحميني، أنتَ الذي أرغب في حبّه، وأحلم بلقياه.لم أعلم أنّ الذين يسرقون من قبل من يحبّون يشعرون بمثل هذه السعادة، سعادة تسكن قلوبهم، تفتتهم، وتنشرهم رذاذاً في وجه الشّمس، آلاف الأقدام تفصلنا عن الأرض، الكلّ في الطائرة نيام، قسمات وجهكَ النّائم تفيض بالأمن والسعادة، أطبع قبلة على جبينكَ، إحدى المضيفات تلمحني، تبتسم لي، وتهزّ رأسها كأنهّا تقول: قبضت عليك. بعض السحابات تدنو من نافذة الطائرة قريباً مما أجلس. ما أجمل لونها القطني السّاحر! ليتهم يسمحون لنا بمغادرة الطائرة إلى تلكَ السّماء الرحبة، هم لا يعلمون أنّ العاشقين يجيدون التّحليق في الهواء، يغلقون أعينهم، ويمسكون بأيدي من يحبّون، فيحلّقون في السّماء، يتركون للريح مهمة مداعبة أجسادهم، والتّحليق بها هنا وهناك، الحبّ معجزة قادرة على إحياء الموتى كما هي قادرة على منحنا هبة الطيران من غير جناحين.

في المطار تطوّق كتفيّ بيدكَ اليمنى، تدفع بي نحو حضنكَ، نسير على مهل، لا بدّ أنّ هيئتنا تلفت انتباه بعض الفضوليين، يفوتني أن أتفرّس في المكان الذي أزوره لأول مرة، وجودي معكَ يلغي الأماكن والأزمان كلّها، يجعلكَ الحيّز الوحيد الذي أدركه، تحدّثني طويلاً، تقصّ عليّ بعض ذكرياتكَ، أحفظ ما تقول عن ظهر قلب، تحدّثني

عن أناس كثر تعرفهم في هذه البلاد، أحسدهم جميعاً، أحسد كلّ من عرفك قبلي، أحسد كلّ من تمتّع بصداقتكَ وبقربكَ وبحلو معشركَ، أحسد الهواء؛ لأنّه يستطيع أن يداعبكَ باستمرار، يستطيع أن يسكنَ في رئتيكَ متى تشاء، وكلّما دفعتَ ببعضه إلى خارج رئتيكَ عادَ مرةً أخرى إليه.

ضابط الجمارك الإيطالي يفتّش حقائبنا القليلة، يطالع على عجل ما فيها، ليتني أتقن لغته لأخبرته أن حقائبنا تحمل الكثير من الممنوع، تحمل عشقاً يصادر في كلّ الدّنيا، تحمل عشقاً يستطيع أن يكفي كلّ البشر، أنا ومن أحب نحترف تهريب العشق إلى كلّ البشر، تستطيع أن تضعنا في السجن بتهمة تهريب العشق.

يحادثكَ الضابط قليلاً، تبتسم لكلماته، تحادثه بلغته ثم تحييه على ما يبدو، وتعود إلى تأبّط ذراعي والسير نحو باب المطار، أسألكَ بفضول: ماذا قال لك؟

- لم تسألين؟

- لأنّ كلماته جعلتكَ تبتسم.

- لقد ظنّ أنّني مخرج إيطالي مشهور، عندما أخبرته أنّه متوهّم، وأنّه قد خلط بيني وبين ذلكَ المخرج بسبب شبه يربطنا قال لي أنّني أشبه الفنانيين الإيطاليين، أبدو بالنسبة له كرسام موهوب أو ممثل ساحر أو كمخرج عبقري، تصوري عرف أنّني فنان من دون أن أخبره بذلك.

- نعم أنت فنان، فنان في إسعاد المرأة التي تهواكَ.. أتراني أسعدكَ كما تسعدني؟

- بل تدهشيني، عشقك يدهشني، يجعلني أحار فيه، وأحدّث نفسي بتلك السعادة التي أقبلتْ معك.

- ...

- قال لي: أنّك جميلة...

- حقاً؟

- فقلت له:- وتعشقينني أيضاً...

ليتني أملك أن أرسل لأمّي لأقول لها:- أنّني أعيش أسعد لحظات حياتي معكَ، لأقول لها:- أنّي معكَ هنا في إيطاليا لمدة أربعة، أيّام ولست في المدينة حيث يجب أن أكون.

ليتها تعرف أنّي أسأل نفسي عشرات المرات في اليوم إن كان ما أحياه الآن حقيقة أم مجرد حلم جميل؟ إن كان ما أحياه مجرد حلم أرجو الله أن لا أستيقظ من نومي أبداً لأعيش هذا الحلم إلى الأبد.

إذا مت يا من أحبّ فاكتب على شاهد قبري أنّ عمري كان الأربعة أيّام، لاشيء غير أربعة أيّام، عمري اختزل كلّ سعادته في هذه الأيّام ألأربعة التي قضيها معكَ هنا؛ أعمار الناس لا تقاس بالسّنين بل تقاس بالسعادة، إذا مت فأخبر أمي أنّك أسعدتني، أسعدتني كما لم تَسْعَد امرأة، أمّي تحبّ من يسعدونني حتى وإن لم ترضَ عن أسلوبهم في سعادتي.

لم أعرف أنّ اليوم الواحد بساعاته الأربع والعشرين، يمكن أن يحتمل كلّ هذه البهجة والسعادة، أراقبكَ وأنت تنام كالطفل إلى جانبي، لا بدّ أنّك متعب، ليتني أستطيع أن أنعم بالنّوم مثلما تنعم به، ولكنّني كلّما كنت معكَ جافاني النّوم، لا أستطيع أن أنام، وأفوّت لحظة من عمري إلى جانبكَ دون أن أمتّع عيني بمطالعة وجهكَ. بعد بضع ساعات سيكون الصّباح، سأتأبّط ذراعكَ مثل كلّ يوم ولآخر يوم، وسنطرق الشوارع والأسواق سوياً، غداً هو اليوم الأخير لنا هنا، ليت إجازتنا تطول حتى آخر العمر.

لا أعرف أيّ أحد هنا، بل لا أفهم ما يقول من حولي، هذا الوضع يفرحني، يشعرني أنّني وإيّاكَ في دنيا وحدنا، لا أحداً فيها غيرنا، ولا أفهم فيها إلّا كلماتكّ. في الأيّام الماضية اكتشفنا سوياً كلّ أركان المدينة، لم نترك شارعاً في روما إلّا وكتبنا اسمنا بحروف من عشق على مبانيه.

قلت لي:إنّ كثيراً مما تزوره معي تراه لأوّل مرة في حياتكَ، ولم تزره من قبل عندما كنت تدرس هنا. طلبت منكَ أن نزورالأماكن التي عشت فيها في الماضي، وأن تعرّفني على كلّ ركن ألفتَ الحياة فيه أثناء دراستكَ قبل سنوات في هذه المدينة، رفضتَ ذلكَ، وأخبرتني أنّك تريد اكتشاف الجديد برفقتي، أمّا الماضي فقد أسقطته من ذاكرتكَ؛ لأنّني لم أكن به، وأيّ ذكرى لا ترتبط بي لا قيمة لها.

قلت لي: أريد أن اكتشف الأماكن برفقتك، أريد أن أتذكّرها بكلماتك، أريد أن أرسمها بحركاتك، وأن أسمها بدهشتك، أريد أن

أتأبّط ذراعك لتطالعني الأماكن برفقة أرتميس التي تعشقني بجنون.

كلّما زرنا مكاناً جديداً أخرجتَ دفتراً صغيراً من جيب قميصكَ، وكتبتَ بخطّكَ الصّغير المتّزن اسم المكان وساعة زيارتنا له، ثم تجعلني أكتب كلمة أصفه بها، كلمة واحدة مثل: رائع، كبير، مخيف، أخضر... ثم تعيد الدفتر بعطف إلى جيبكَ. حدّثتني كثيراً عن تلكَ الأحداث والأساطير المرتبطة بكثيراً من الأماكن والآثار التي زرناها، أحياناً كنتَ تستذكر بعض الفتيات الإيطاليات اللواتي قابلتهنّ في الماضي في هذه المدينة، وعندما كنت أسألكَ بفضول عنهنّ، كنتَ تبتسم وتقول لي:- لا واحدةً منهنّ عشقتني مثلك. ثم تعود إلى حديثكَ العذب عن الأماكن والأحداث.

أستيقظ فلا أجدكَ، لا بدّ أنّ النّوم قد قهرني، أطالع الساعة، لقد نمت لساعتين، أبحث عنكَ فلا أجدكَ، لا أثر لكَ في الغرفة، أفكّر في أن أرفع الهاتف لأسأل موظف الاستقبال عنكَ، ذلكَ العجوز البشوش الذي استقبلنا في اليوم الأول لزيارتنا، لقد ابتسم لنا وأعطانا مفتاح غرفتنا.

سألتكَ يومها: لمَ يبتسم لنا بهذا الشّكل؟

قلت لي: لأنّه متأكد من أننا عاشقان.

- لعلّه ظنّ أننا عروسان في شهر العسل.

- في هذه البلاد لا يحتاجون إلى ورقة صفراء يوقّع عليها رجل دين، ويشهد عليها غريبان كي يباركون العشق ...

- أستنـزل في غرفة واحدة؟

- أنا أحبّك إلى درجة التقديس، أنسيت؟ على كلٍّ هـذه الغرفـة كبيرة إلى درجة أننا لن نقابل البعض فيها.

- أتسخر منّي؟

- بل أحدثك بلغة الأطفال التي تحبّينها.

لكنّ بأيّ اللغات سأسأله عنكَ؟ ليتني أتقن الإيطاليّة لأسـأله إن كان قد رآكَ تغادر المكان صباحاً.

تدخل المكان وأنت تحمل كيساً بلاستيكياً كبيراً وبعض الزّهـور، أسألكَ بانفعال:-

- أين كنت؟ !

لا تجبني بل تطبع قبلة عجلى على وجنتي، تفرغ زهرك في زهريّة قريبة من السّرّير، تسألني إن كنت مستعدّة لمرافقتكَ من جديـد، أؤكد لكَ أنّني مستعدّة، بحركة منكَ، تدير جسدي نحو المرآة، تخرج من الكيس ثوباً وردياً، بيديكَ تقرّبه منّـي، تضـع أعلـى كتفيـه قريبـاً مـن كتفيّ، يبدو الثوب مناسباً لطولي، أطالع المـرآة لأرى قبـالتي امـرأة عاشقة ورجـلاً مدهشـاً يعـاين ثوبـاً علـى جسـدها. الثـوب في غايـة الجمال، أستدير نحوكَ، ألتقط الثوب من يديكَ، أدنيه قريباً مـن عـيني، يا له من ثوب رائع! ثـوب إغريقـيّ قـديم مثـل الـذي تلبسـه آلهـات اليونان اللواتي أطالع صور تماثيلهنّ في كتب النّحت.

أسأل بفرح غامر: من أين أتيتَ به؟

- أعرف بعض الحوانيت الأثرية التي تبيع الثياب التّقليديّة والجواهر القديمة.

- كيف عرفتَ أنّني أحلم بثوب مثله؟

- لا بدّ أن حبيبتي أرتميس تحنّ لثوب من أثوابها الأسطوريّة، كنت متأكداً من أنه سينال إعجابك.

- أهو لي؟

- لقد اشتريته من أجلك؟

- لا بدّ أنّ ثمنه باهظ.

- سيصبح باهظ الثمن عندما ترتدينه.

- أسأرتديه الآن؟

- بالطبع ستلبسينه، وترافقيني كما آلهة إغريقيّة.

- ستلاحقني نظرات الناس.

- هي تلاحقك ألبست هذا الثوب أو لم تلبسيه.

كطفلة تنتظر صباح العيد ألبسه بسعادة غامرة، يناسبني تماماً، كتفاي عاريان تماماً كما لم أتعوّد، لو كنت في بلادي لما استطعت أن أزور الأسواق بثوب يكشف عن الأكتاف إلى هذا الحدّ، أسدل شعري كما تحبّه، أكاد أسرّحه، يدكَ تمتد إلى المشط، تسرّح شعري بهدوء ساحر، أسمح لوجهي بأن ينام على صدرك، أمّا يداكَ

فتسرّحان شعري، يداكَ تعيدأنّني في لحظة إلى طفولة عاشقة بين يديكَ، وأنت لا تعرف خطورة عشق الأطفال.

تقول لي بنشوة واضحة: أنت المرأة الوحيدة التي مشّطت شعرها طوال حياتي.

آخذ المشط من يدكَ بعد أن انهيتَ تصفيف شعري، أطالع وجهي في المرآة التي تعكس وجهكَ الذي يراقبني، أقول لكَ: أتعرف أنّ التاريخ الميثولوجي الإغريقيّ يقول: إنّ إله الشّمس (هيليوس) كان في أول خليقته إلهاً للحب والعشق، و لسبب لا أعرفه توجّهه (زيوس) إلهاً للشمس والفنون والرجولة.

- حقاً؟ لم تخبريني بذلكَ من قبل.

- الآن وأنا أغرق في رائع حبّكَ، تذكّرت هذه القصّة، الآن أنا متأكدة من صدقها، لا بدّ أنّك جمعت عظيم الحب وعظيم الرجولة، أنت خليط مدهش منهما.

من حقيبتي أخرج ذلكَ العطر الذي تستعمله، أنقط الكثير على جسدي، تسألني باستغراب عن سبب استعمال عطركَ بدل استعمال عطر نسائيّ، أقول لكَ:- أشعر بأنّ عطرك تعويذة مقدسة، كلّما نقطت منه على جسدي، حرّم على أي رجل أن يراني أو أن يتمناني، بل أكون خالصة لك.

- سيدة مجنونة ...

- بحبكَ.

- متى ستنهين زينتك؟

- بعد لحظات.

- دعيني أساعدك ...

بكفّ يدك اليسرى تلمس أسفل وجهي، أمّا يدك اليمنى فتلوّن بسحر شفتيّ بطلاء الشفاه الورديّ اللّون، بحذر واضح تخطّ شيئاً من الكحل الأسود في أطراف حدّقتي اللّتين تغرقان في مراقبة عينيكَ تقتربان بسحر منهما.

- لا تقل لي أنّك لم تفعل هذا من قبل؟

- بل فعلته، ولكن ليس في الحياة، ربّما في حياة أخرى.

أتأبّط ذراعكَ، نسير في الطرقات، أشعر بزهو خاصّ؛ لأنّني أتأبّط ذراع رجل قد سرقته أرض السعادة، تطالع يدي التي ترتجف قريباً منكَ تقول لي: ألن تكفّ يداكَ عن الارتجاف؟

- ليس وأنا معك وأتأبط ذراعكَ.

تلكَ المرأة بثوبها المزركش، وعصبة رأسها الملوّنة، وقرطيها الكبيرين، وأطواقها الذّهبيّة تقترب منّا، تثرثر معك، أسألكَ من تكون؟ تطلب منّي أن أفتح كفيّ، وأن أسمح لها بمطالعته، أفعل ذلكَ، أتساءل إنْ كانتْ تستطيع قراءةَ طالعي؟ الذي لمْ يستطع الضابط سعادة أن يقرأه ولو لمرة واحدة، تحدّق الغجرية في باطن كفي، أمّا أنت فتميل عليّ بكتفكَ العريض، وتقول:- الآن ستكشف لي عن كلّ ماضيك، سأسألها عن كلّ لحظة من لحظات حياتك.

- لو سألتني لحدّثتك طويلاً عنه دون أن تحتاج لوساطة هذه الغجرية.

تبقي الغجرية كفيّ في باطن كفّها، تثرثر معكَ ببعض كلّمات، تدسّ شيئاً من النقود في يدها، تبتسم لكَ، تودّعني بحركة من رأسها ثم تسير في طريقها، أسألكَ بفضول: ماذا قالتْ؟

- لن أخبرك ...

- بل ستفعل ... هيا ماذا قالت؟

- قالت: إنها لم تقرأ إلّا شيئاً واحداً في كفّك

- ما هو؟

تحدّق بي، ثم تقول بصوت رخيم: قالت: أنّك ستحبّيني أبداً.

سأحبّك أبداً، أعلم أنّ هذا قدري. هذا السّوق رائع، طبيعته الشعبية تروق لي، مزدحم بشدّة، الأصوات تعلو فيه، بالكاد أستطيع أن أسمعكَ، أمام ركن تلكَ العجوز أتوقّف وإيّاك، نطالع بضاعتها النّسائيّة الملوّنة، تحدّثها كثيراً، لا بدّ أنّك تسألها عن أثمان بعض الاكسسوارات، تقول لها شيئاً، فتبحث عنه مليّاً في محتويات الصناديق التي تتكدّس حولها، تخرج شيئاً صغيراً، تفتح يديها لتشاهد ما أحضرته لكَ، في اليد اليمنى زوج من مشابك الشّعرالذّهبيّة على شكل شموس متوهجة، في اليد اليسرى زوج من مشابك الشّعر الذّهبيّة على شكل أقمار صغيرة، أهذا ما طلبت منها؟ يا لها من

مشابك جميلة، أيّها ستختار لي الشموس التي ترمز لـكَ، أم الأقمـار التي تسمّيني باسمها؟ تمدّ يدكَ لتلتقط شمسـاً مـن يسـرها وقمـراً مـن يمينها، تدفع لها الثمن، تمدّ يدكَ إلى شعري بلطف، تثبّـت المشـبكين إلى جنبي مقدمة رأسي، أطالع المشـابك الذّهبيّـة في مـرآة صـغيرة تقرّبهـا العجوز منّي لهذه الغاية، شمس وقمر تسكنان شـعري، تقـول لـي:- ضعيهما دائماً في شعرك، هما رائعان ...

يوم طويل ولكن ممتع، هذا الثوب، والأسـواق القديمـة، والآثـار العتيقة، ورفقتكَ أشعرتني جميعها بأنّني أختـزل معـكَ السّـنين لأحيـا معكَ أسطورة ساحرة أو حكاية سعيدة كالتي تحـدّثنا بهـا الجـدّات في ليالي الشّتاء الباردة.

هذا المطعم الـذي دعـوتني لتنـاول العشـاء فيـه يبـدو كمتحـف صغير، مساحته صغيرة، يشعر من يدخله بأنّه سيدخل غرفـة معيشـته، ألوان ستائره بالغة الحزن، مقاعده وطاولاتـه الخشـبيّة رائعـة الجمـال، حيطانه الحجرية تشي بعمره، الموسـيقى رائعـة وهادئـة، المكـان يعـجّ بالساهرين، لكن يبقـى الهـدوء السـمة الأساسـية للمكـان، مـا أجمـل كلمات المطربة التي تصدح بصوتها الرخيم! لا أفهم معنـى مـا تقـول لكنّ كلماتها تلمس شغاف قلبي الذي يعي ما لا يعيه عقلي، الإضاءة خافتة، لكنّ تلك الشمعة التي يشعلها النّادل أمامنا تهب للمكان نوراً إضافياً.

آكل بشهيّة لم أعهدها في نفسي، الطّعام لذيذ، لأول مرة أتذوّق السمك مطهواً بهذه الطّريقة، لكنّه لذيذ، تلك اللقمات التي تدسها من وقت إلى آخر في فمي تبدو ألذّ الطّعام.

أعود، وأعاتبكَ بنبرة طفولية: كنت أتمنى أن أزور ينبوع الأمنيات، لَمَ لم توافقني على زيارته.

- لَمَ أردت أن تزوريه؟

- لأتمنّى الكثير.

- تستطيعين أن تتمنّي في أيّ مكان.

- لكنّ الينبوع له قدرة مجيته على تحقيق الأمنيات، لذلك سمّوه ينبوع الأمنيات.

تشير بيدك إلى الأعلى، وتقول: هناك تستجاب الدعوات، وتحقّق الأمنيات، الينبوع لا يملك أيّ قوة ليحقق أيّ أمنّية.

- أعلم، ولكنّني رغبت في تلكَ التجربة.كلّ العشاق يزورون ذلك الينبوع.

- لذلك لم أرغب في زيارته، أريد لنا ذكريات لا تشبه ذكريات باقي البشر.

تلكَ الموسيقى الشعبية التي تعزف الآن تبدو رائعة، تشعر المرء برغبة جامحة في الرقص، الكثير من روّاد المطعم يقبلون على الساحة المخصصة للرقص كي يرقصوا جميعاً تلكَ الرقصّة الإيطآليّة الجماعية، تدعوني لمشاركتكَ، أعتذر بشدّة، فلا فكرة عندي عن تلك الرقصّة،

أفضّل أن أشاهدكَ تصطفّ مع الراقصين، تمدّ يدكَ إلى كتف تلك الشابّة إلى يسارك، ترقص برشاقة مع الراقصين، تبتسم بقوة، تلتفت كثيراً إلى مكان جلوسي، أشجّعكَ بتصفيقي المرافق لألحان الموسيقى الشعبية التي تبدو أنّك تجيد الرقص بمصاحبتها، شعركَ الشّمسيّ يتناثر هنا وهناك، صبيّة أخرى تشاركك الرقص، وتمدّ يدها إلى كتفكَ الأيمن، ما أشدّ جمال تلك الصبية! ترقص وترقص، جسدك المشوق يندي المكان بالنّشاط والفرح، أتذكّر تلكَ اللّوحة المعروضة في رئاسة الأكاديميّة التي أدرس فيها، لوحة تجسّد إله الشّمس (هيليوس) يرقص بزهو مع ربّات الفن التسعة اللواتي يمثلن الفنون جميعها على ربوة جرداء، إلى جانب اللّوحة كتب بخط واضح وأنيق بعض الأشعار اللاتينية القديمة، لعلّ شاعراً إغريقيّاً قد كتبها، أستطيع أن أتذكّر مقطعاً واحداً من تلك الأشعار:-

وأنت يا من تهفو إلى نشوة عارمة موصولة لا تخبو

لن أكلّفك -بينما تسعى- شططاً كي تبلغ مناك

لن أدعوكَ لتنشر شراعكَ ضد الرّيح

ولن أشقّ عليكَ برحلة طويلة

أقول لك:- لقد مضى الوقت سريعاً، غداً نسافر.

- نعم، غداً نسافر.

صوتكَ يتردّد بقوة في الظلام، ما أجمل السير ليلاً في الحي القديم! تبدو البيوت متشابهة إلى حد كبير، الشّارع مرصوف

بالحجارة القديمة، ولا أرصفة في المكان، أسألكَ:- ما اسم هذا الشّارع؟

- لا أعرف، لأوّل مرة أسير في هذا الحي.

لا أحد في الشّارع، السكون يلفّ المكان، هل الجميع نيام؟ لا بدّ أنّهم كذلك، فلقد انتصف الليّل منذ نصف ساعة.

أقول لكَ بنبرة طفولية:- هل سبق لكَ أن مارستَ إزعاج الناس بطرق الأبواب والهرب بعيداً؟

- لمْ أفعل ذلكَ أبداً.

- أنا لم أفعله أبداً في طفولتي، أمّا الآن فتغريني هذه الأبواب المقفلة بممارسة هذه الشقاوة، كم أتمنى أن أمارس هذه الشقاوة ولو لمرة واحدة في حياتي.

- لقد قرأت مرة أنّ كليوبترا وأنطونيو كثيراً ما كانا يلهوان في شوارع الإسكندرية، يطرقان الأبواب ثم يفرّان بعيداً.

- معقول؟ !!

- هناكَ دائماً عشّاق مجانين.

أطالع وجهك، أبتسم لك، نقترب من أقرب باب، نطرقه بشدّة بطرقات متتآليّة، ثم نولّي هاربين، وصدى الليّل يردّد ضحكاتنا.

(٢٥)

الآن، وبعد سنين طويلة، تساوي سنين فراقنا لا زلت أتذكّر تلكَ الأيّام الأربعة التي قضيتها معكَ في إيطاليا، كنت أظن أنّ هذه الأيّام بمثابة نقطة تحوّل في علاقتنا، لعلّه كان من الممكن أن تكون كذلك لولا وجود شرف.

لا بدّ أنّني جلست في هذا المقعد الخشبيّ على قارعة الطّريق لساعات طويلة، بعد دقائق ستغرب الشّمس، البرد يصبح أشدّ، أشعر بأنّه ينخر في عظامي، عندما قابلتكَ قبل ثمانية عشر عاماً، كنت أهوى البرد بل عشقت فصل الشّتاء حيث قابلتكَ لأول مرة في حياتي، لم تكنْ تؤلمنّي مفاصلي كما تفعل الآن، لا بدّ أنّني أصبحت أوهن ممّا ظننت، لعلّكَ استنزفتَ كلّ شبابي وكلّ طاقتي وتركتَ البرد لكبري ووحدتي.

عليّ أن أنتظر حتى الساعة العاشرة مساءً كي ألقاكَ، ليس قبل ذلك هكذا قال لي عايد في مكالمتي الأخيرة له، لا أريد أن أحرجكَ؛ لذا سأنتظر العاشرة حيث تكون بلا زوّار أو مرافقين حتى ألقاكَ.

اليوم ألقاكَ، وبعد غد سيلقاكَ عايد، قال لي: إنّه سيأتي من المطار مباشرة لرؤيتكَ، منذ زمن طويل لم ألقَ عايد، بالتحديد منذ ثمانية عشر عاماً، قليلاً ما كان يهاتفني طوال هذه المدّة، ولكنّني بقيت دائماً أتذكّره بابتسامته الهادئة وروحه الطيّبة، لا شكّ أنّه أكثر سكان

الأرض دماثةً وطيّبة، كلّ ما يحتاجه المرء بضع دقائق حتى يرتبط معه بوشائح إنسانية عميقة وطيّبة؛ فهو من الناس الذين تشعر بأنّك تعرفهم منذ زمن طويل.

نظرة واحدة إلى عينيه تكفي ليعرف المرء أنّه شقيقكَ، ومن يسمع نبرته في الكلام يعرف إلى أي مدىً أحدكما متأثّر بالآخر، ومحب له، اسميتَه دائماً:- الأخ الصديق والصديق الأخ، وكلما تحدّثت عنه نعتّه بصفة: العزيز الغالي، ولأنّك تحبّه فقد أحببته من كلّ قلبي وقد كان أهلاً لهذا الحبّ.

امرأة شابّة تمرّ من أمامي تلبس معطفاً شتوياً، تحمل بعض الأكياس في يد، أمّا اليد الأخرى، فتمسك بها طفلةً لا يتجاوز عمرها العامين، الأمّ تحاول أن تحثّ الطفلة على السير سريعاً، أمّا الطفلة ذات الأنف المحمّر، فتحدّق بفضول في كلّ ما حولها، عندما تلاحظني ابتسم لها، لكنّها تبدو متجهمة ولا تبادلني ابتسامة بابتسامتي، أتذكّر حبيبتي أحلام، كم أنا مشتاقة إليها!! فضيلة أهدتني يوماً بطاقة تذكارية تحمل صورة لطفلة شقراء بعينين زرقاوين، هذه البطاقة اشترتها من محطة الباص ونحن في طريقنا إلى زيارة أسرار في الجبل، وكتبتْ على ظهرها: "هذه أحلام ... أحلامك يا صديقتي الحبيبة كلّما تذكّرتي أحلام تذكريني".

وها أنا على عهدك يا فضيلة كلما تذكّرت أحلام تذكّرتك.

تبتعد الطفلة مع أمّها، صبيّان صغيران يمرّان من أمامي أحدّق في ملامحهما، أبحث عنك في وجههما، منذ أن فارقتك وأنا أبحث عنكَ في وجوه الأطفال، رجل بمثل سحركَ لا بدّ أن يتركَ جيشاً من الأطفال من نسائه العاشقات، من العدل أن تنجب عشرات الأبناء ليرثوا عنكَ رجولتكَ وطيّبة قلبكَ، كثيراً ما بحثت عنكَ في وجوه الأطفال، كثيراً ما بحثت عن رائحتكَ في كلّ طفل أقبّله، لكنّني لم أجدها أبداً ... ولم أجدكَ.

كلّ طفل أراه يذكّرني بك، أتذكّركَ تقول بنبرتكَ الواثقة:- نحن البشر وليد وحبّ أزلّي، كلّ طفل يولد هو وليد حبّ فطري، الجسد ينتج ملايين الحيوانات المنوية، واحد منها فقط يسمح له بتلقيح البويضة، أتعرفين لماذا واحد فقط من ملايين الحيوانات يسمح له بذلك؟ لأنّ هذا الحيوان أحبّ البويضة، فأحبّته واختارته، هكذا هو الطفل وليد لحب واختيار، وليس وليد غلطة أو اعتباط، أجسادنا أيضاً تمارس العشق والاختيار.

تفسيراتكَ العميقة للحب تدهشني، تصمت ثم تكمل:-

- أتعرفين متى يموت الإنسان؟

- ....

- يموت فقط إذا تأكّد أنه لم يعدْ قادراً على إنتاج الحبّ أو تقبّله، عندها فقط يموت ...

هذه هي لعبة الحياة والموت، هي ذاتها لعبة الحب وعدمه.

انتصب واقفة، أشدّ معطفي إلى صدري، لا بدّ أنّ هذا البرد قد بدأ يضعف جسدي، ويدعوني بقوة إلى السّعال، أتناول حقيبتي النّسائيّة، أسير كمن لا يقصد سبيلاً محددة، أعدل عن الشّارع الرئيسي القديم إلى شارع فرعي صغير، من هذا الشّارع أستطيع أن ألمح مكان سكاني عندما كنت أعيش في هذه المدينة، نافذة غرفتي مضاءة، أيّ النّساء تسكنها الآن؟ هل تعرف من تسكنها الآن أنّ امرأة سكنتها من سنوات طويلة تقف في الشّارع تحدّق الآن في نافذة غرفتها؟ بالتّأكيد هي لا تعرف.

لا بدّ أنّها لا تعرف أيضاً أنّ ذلك الشّارع الممتدّ أمام نافذتها قد حفظ اسم رجل وامرأة سارا فيه كلّ ليلة لسنوات طويلة، هذا الشّارع ظلّ وفيّاً لهما كما كان أميناً على ذكراهما.

أحدّق في الشّارع، أسأله إن زاره حبيبي من بعد رحيلي؟ لا يجيب الشّارع بل يصمت. أشمّ رائحتكَ تعبق بالمكان، كم أتمنّى أن أنحني أرضاً، وأن تلمس شفتيّ الأرض، وأن تقبّلها شبراً شبراً؛ لأنّك وطأتها في يوم من الأيّام، ألم أقل لكَ مراراً: أنّني أعشق الأرض التي تمشي عليها. لكنّ شيئاً في داخلي يختزل السّنين، ويخشى، أن تلمحه ذاته، إنّي أرى ذاتي تقف إلى النافذة، وتفتقدكَ.

كم أفتقدك، ولكنّني لا أتوقع لقاؤك أبداً، أعرف أنّني ما زلت أقابلكَ من وقت إلى آخر بحكم إشرافك على المرسم الذي أحضّر فيه مشروع تخرّجي، ذلكَ التّمثال الذي أسميته إليكَ.

كلّما قابلتكَ أحيّك بأدب ثـم أختلـق الأسـباب لأغـادر المكـان دون أن ألفت انتباه أحد إلى ذلك الجفاء الـذي نعيشـه، فأنـا أكـره أن يشمت بنا من كان يراهنون على حبنا.

أمّا شرف فلم أعد أخشاها، لم يعد رسمها يزعجني، فقد نالت ما كنت أحاذر عليه، نالتكَ، لا أعرف كيف اسـتطاعت في شـهور ثلاثـة أن تملك من اهتمامك ما لم أملكه منك في سنوات سـت، أشـعر بـأنّ هذه السّنوات أمست تتبخر بكلّ ما فيها مـن ذكريـات وسـعادة أمـام تلك القسوة والجفاء التي بت ألمسها فيكَ منذ أشهر قليلة، لدرجة أنّني قرّرت أن لا ألقاكَ أبداً، أنا لا أكرهكَ، وقلبي لم يبدل حلمـه، ولكـنّني أحاول أن أبقى لك بعضاً من الذّكرى الحسنة، أريـد أن أحـتفظ ولـو بالقليل من جمال ذكرياتي معكَ، أريد أن أستلقي علـى سـريري، وأن أدندن ولـو برصـيد قليـل مـن الـذّكريات السـعيدة بتلـكَ الكلمـات المكتوبة منذ زمن، "ذكريات حبّي وحبك ما انسهاش، هي أيّـامي إلـي قلبي فيها عاش، فيها أحلام قلتها وحققتها، فيهـا أحـلام لسـه أنـا مـا قلتهاش".

أريد أنسى أنّك تقتطع الكثير من وقت عملكَ لأجـل أن تجلـس معها لساعات، وتساعدها في تعلـم اللّغـة الإنجليزيـة الـتي لا تتقنهـا، وتحتاج إليها في عملها، أريد أن أنسى أنّني أبـدو كالطفلـة الغـرّة أمـام خبث أنوثتها، ومكائد أقوالها ... ربما البعـد عنـك ينسـيني كـلّ هـذه الأمور.

الوقت متأخر، أقفل باب غرفتي، لا أحبّ أن تعود الصديقات من حفل العشاء الذي تعدّه الأكاديميّة ليقلنَ لي كعادتهن:- أنهنّ شاهدنكَ وإياها في أحد الأماكن.

أفتح أحد أدرج مكتبي، أخرج منه أحد تلكَ الأشرطة الشفّافة المتشابهة والمصفوفة بنظام واكتظاظ داخل الدرج الذي أغلقه بحرص، صورة قديمة أجدها بين الأشرطة، إنّها صورة قديمة لوالد ووالدة نورما، لقد ظننت كما ظنّتْ أنّها قد ضاعت، كيف جاءت إلى هنا؟ لا أعلم، أغلق الدرج، أحدّق في تلكَ الصّورة التي أضعها على الطّاولة أمامي لأعيدها إلى نورما صباحاً، أضحك كما ضحكت ونورما طويلاً على هذه الصّورة القديمة، لمَ تحتفظ نورما بهذه الصّورة بالذّات! ألتأكد لنا ولنفسها أنّ أباها الذي يصغر أمها بسبع سنين ما زال يحبّ أمّها؟ هذه الصّورة تجمع والدها وهو صبي عمره ثلاثة عشر عاماً مع والدتها وعمرها عشرون عاماً في صورة عائلية قديمة، فكلاهما يمّت بصلة قرابة إلى الآخر، لو كنت أنا من يملك تلك الصّورة لمزّقتها، لأنّها تظهر امرأة عاشقة وطفل عاشق، يا له من وضع مقزّز !

والدة نورما رائعة الجمال ومكتملة الأنوثة، صورتها الجميلة تذكّرني بحالي، أقف إلى المرآة، كيف لم ألحظ تلك الهالات السوداء حول عيني؟ وتلكَ البثور التي تغزو جبيني وأنفي، لا بدّ أن تساقط شعري قد شغل ذهني عن ملاحظة اصفرار وجهي، قال الطبيب: أنّني لا أعاني من أيّ مرض، وأنّ تساقط شعري ليس إلّا توتّراً نفسيّاً.

وقفتُ أتساءل بخوف متى سيتوقّف هذا التّساقط؟ فروة رأسي بدأت تظهر في بعض الأماكن، طول شعري تراجع إلى النّصف أو أقل، أخشى من أن أفقد شعري مع فقدانك.

أيتمرّد جسدي عليّ؟ أمْ أنّه حزين، ولكن بطريقته، فالأجساد لها لغتها الخاصّة في الحزن والألم، أتتمرّد أنوثتي عليّ؟ وترفض أن تعبّر عن ذاتها بعيداً عنكَ؟ أم أنّ أنوثتي مجروحة من قسوتك؟ إذن لمَ لا تنزف تلكَ الأنوثة، أم أنها تصممّ على أن لا تعبّر عن نفسها بأيّ طريقة تعرفها؟ منذ أشهر ثلاثة لم أعرف ما تعرفه النّساء من تجدّد تأكيد أنوثتهن كل ثمانية وعشرين يوماً، الطبيب يقول مرة أخرى: إنّ جسدي لا يعبّر عن أنوثته وعن نضوجه بسبب حالتي النفسية المتوترة.

ويؤكد أنّ جسدي سرعان ما سوف يعود إلى طبيعته. مسكين يا جسدي! مرارة الحزن تظهر عليكَ على الرغم مما تبذله من طاقة لإخفاء أزمتكَ.

أضع الشريط في المسجّل، أدير مفتاح التشغيل، ينبعث صوتكَ وأنت تتكلم في أحد ندواتكَ حول الفن المعاصر، هذه الأشرطة رائعة تتيح لي أن أسمع صوتكَ كلّما اشتقت إليكَ، وما أكثر ما أشتاق إليكَ! أملك مجموعة كبيرة من الأشرطة التي سجّل صوتكَ عليها في كثير من اللّقاءات والنّدوات الأدبية التي كنت تشارك بها وأحضرها. عندما أضع المسجّل أمامكَ ليرصد كلّ كلامكَ، يظنّ الحاضرون أنّني مهتمة بالفن، أما أنتَ فتعلم تماماً أنّني مهتمة بكَ.

أقف إلى النافذة، أستمع إلى صوتكَ وأستمتع به، كم هي الأرض بعيدة عن نافذتي، لمْ أكن أعلم أنّ من يسكن في الطابق الخامس يكون في مثل هذا الارتفاع، أنا أخشى الارتفاعات، نعم أخشاها، ولكنّني الليّلة لا أريد أن أكون ممّن يخشون الارتفعات. أفتح النافذة، أستعمل الكرسي لأصعد على الرخامة الرقيقة التي تمتدّ على طول حافة النافذة، أضع قدمي الأولى على الرخامة ثم الثّانية، أصبح معلّقة في الهواء، هبّة رياح قوية، وأهوي إلى الأرض، أهكذا تبدو الأرض من عل؟ كنت أظن أنّ المنظر سيبدو أكثر ألفة، لكنّه مخيف، مخيف جداً، أنا لا أريد الانتحار كما سيظن من يراقبني، ولا أبحث كذلكَ عن مغامرة، ولكنّني أريد أن أنظر إلى الدّنيا من فوق، من أعلى، لعلّ آلامي تبدو من فوق أصغر وأحقر، عجباً حتى من عل تبدو آلامي بنفس الحجم وبنفس الطعم.

أستطيع من هنا أن أرى أشجار السّرّو التي تحيط بيتكَ الذي كثيراً ما تساءلت في الماضي: أين عساه يكون؟ وكيف عساه يكون؟ وأيّ ذوق نظّمه ونسّقه؟ كم أخشى من أن أراكَ تمرّ قريباً من هنا، ستسكنني بالتّأكيد تلكَ الرعشة التي ما زالت تصيبني كلّما رأيتكَ، وسأهوي من مكاني إلى الأرض لأخرّ ميّتة من غير شك، أنا لا أحبّ أن أموت وأهجر عشقكَ.

ليت الأرض أقل استدارة وأكثر استواءً، لو كان الوضع كذلكَ لاستطعت أن أرى من مرتفعي هذا بيت نمر نصّار، هو لا

يعنيني بالتّأكيد، ولكن ما يعنيني هو أمر تلكَ الإشاعة التي تملأ المدينة حول تلكَ العلاقة المريبة التي تربط نمر نصّار بشرف، أنا لا أصدّق الإشاعات، لكنّني أصدّق المعلومات التي أسمعها من فاتنة، فعلاقتها المتشعبة وأصدقاؤها الكثر يجعلونها المصدر الأوثق للمعلومات في المجموعة، البارحة همستْ في أذني بضحكتها المعتادة:- بعيني اللّتين ستأكلهما الديدان رأيت شرف تخرج من بيت نمر نصّار.

- لعلّها كانتْ تزوره لحاجة ملحّة.

قالت بنبرة ذات معنىً:- لا بدّ أنّها حاجة ملحّة وإلّا لما كانت لتزوره في منتصف الليّل، وتخرج من عنده مرتبكة ومتوترة.

- ماذا تعنين؟

- لا أعني شيئاً.

ليتني أستطيع أن أراها من مرتفعي هذا تخرج من بيت نمر نصّار، لا كي أخبرك بذلك، فأنا لا أستطيع أن أراكَ تتألم من خديعتكَ بامرأة ما، ولا أستطيع أن أدفعكَ لتغضب من غفلتكَ، لكنّني أرغب في أن أشمت بك ولو سراً لتمسّككَ الأرعن بهذه المرأة المريضة، ليس فقط في سلوكها، ولكن في فطرتها وفي قلبها.

لطالما ظننت أنّ النّساء أمثال شرف موجودات فقط في الأفلام الساقطة أو في مخيّلة العجائز اللواتي يدعين لبناتهن بالستر، ويخشين عليهن من أبناء الحرام ومن شيطان الشهوة، لم أكن أظنّ أنّني يمكن أن أعرف امرأة مثلها، أقابلها في كلّ يوم، أتكلّم معها، تخدعني فأصمت،

تقتلني فأموت، هي تناسب نمر نصّار مدّعي موهبة نظم الشّعر الـذي يطرق كلّ المجالس ويعرض أدّق التفاصيل لعلاقته بأيّ امرأة، ضـارباً بسمعته وسمعتها بل وأحاسيس زوجتـه وصـورة أبنائـه أمـام النـاس عرض الحائط، فكلّ ما يهمه في الحياة أن يؤكّد لمن حوله أنّـه عاشـق، وأنّ هناكَ من تعشقه، حتى لـو كانـت معشـوقته مثـل شـرف تعشـق بشكل خاصّ نقوده وكرمه.

من حافة النافذة إلى الكرسي ثم أعود إلى فراشـي، أنزلـق حتـى نصفي تحت غطاء النّوم، أمسك بذلكَ الـديوان الـذي تهـواه بشـكل خاصّ، أقلّب صفحاته بشكل سريع، معظم الصّفحات مكتوب عليها بخط يدي، كلمات هي لكَ، أعود لأقلّب صفحاته منذ البدايـة ولكـن بهدوء، كلّ القصـائد أتبّـع معهـا نفـس السياسـة، أضـع خطـاً تحـت العنوان ثم أكتب إلى جانبه جملة أعنيكَ بها، أقرأ بعض ما كتبت :-

- المقدمة: إلى رجل طهّرني بحبّه.

- بين الضـحك والجـد:- هـل تخـبركَ أزهـاري بعشـقي؟ هـي جحودة؛ لأنّها تعجز عن أن تخبركَ بمدى عشقي.

- فردوسي:- أنت فردوسي الذي لم أدخله أبداً، لكنّني أنتظر.

- نعمة الألم:- إلى أعذب ألم... إليكَ.

- حنين:- كيف كتب عليّ الفراق والحـنين؟ وأنـا لم أذق فرحـة اللّقاء.

- ذكرى:- وأصبحت ذكرى باهتة في سفْر الماضي.

- قيثارة الأمل:- وماذا بعد رحيل الأمل؟

- حديث النفس:- لن نلتقي أبداً، ولكن يا للعجب سنكون في لقاء دائم!

- في البعد والقرب:- لأننا لم نلتق، فلن يكون بيننا وداع.

- أنا وأنت والمها والقمر:- إن كان حبّكَ موت، فأنا أسعد ميّتة.

- الأسرار:- ليتني أستطيع سرقة سرّ قلبك.

- غرامية:- لست استثنائيّة في العشق، ولكنّكَ استثنائيّ في الوجود.

- إليكَ عنّي:- إرسال خاصّ إلى جلالة قلبكَ مع الإنتظار.

- دليل الأشواق:- أشكركَ على كرم زيارتكَ لي في عالم أحلامي كلّ ليلة.

- الخاتمة:- في قربي كنت بعيدة، فهل يكتب لي في بعدي أن أكون قريبة؟

أستيقظ مرعوبةً، طيفكَ أرعبني، طوال الليّل طاردتني بجسدكَ الممشوق، وطلّتكَ الشّمسيّة، لكنّني خفت منكَ، بدون سبب خفت منكَ، ركضت كثيراً، كدتَ تمسك بي، قدماي شلّتا، وثبتتا في مكانهما، سرعان ما تحوّل جسدي إلى جذع شجرة وشعري إلى أوراق، أمّا أنتَ فوقفتَ تبكيني بكل عجز.

أطالع الساعة، لقد انتصف النّهار منذ ساعة، صفحات الدّيوان الممزّقة يعجّ بها المكان، تلكَ الوردة الحمراء المخيفة التي كنت أستعملها لتعيين آخر صفحة قرأتها هي آخر من نجا من هذه المذبحة، أتحسّس نفسي لا أثر بعد لعودة أنوثتي، أفكّر في المرسم، الكثير من العمل المتراكم ينتظرني هناك.

لا أكاد أسمع أيّ صوت، متى خيّم هذا الهدوء على المكان؟ أجيل نظرة عجلى في أرجاء المرسم، لقد غادر الجميع، وبقيت وحيدة منهمكة في عملي، هكذا أنا أنغمس في عملي عندما تطاردني الأحزان، الساعة تقارب العاشرة مساءً، لا بدّ أنّني الوحيدة المتأخرة في المبنى كلّه، أنا خائفة؟ لا لست خائفة؛ طيفكَ يشعرني بالأمن، وهذا التّمثال الذي يكاد يكتمل يملأ المكان عليّ، كلّ قسمة من قسمة التّمثال تكاد تتكلم، عينا التّمثال أكثر جزء أرضى عنه في عملي، أطراف وأعضاء التّمثال تظهر بكل جرأة، لم أخجل ولم أخاف وأنا أؤدي عملي، تماماً كما أراد الأستاذ مشعل الخضرا عملاً جريئاً ورائعاً، نصحني يوماً بإفراغ مشاعري في عمل فنّي، قلت له:- أخاف وأخجل من أن أفعل ذلك، قال لي: عندما ترحل كلمتي أخاف وأخجل من قاموس فنك ستصبحين فنّانة مدهشة.

أرى صورتي تنعكس على النافذة الزّجاجيّة، ندبتي تظهر بوضوح من خلف أذني، شعري المجموع إلى أعلى يظهر بروز أوردة عنقي، لا بدّ أنّ وزني قد انخفض أكثر مما ظننت ليصاب وجهي بهذا الشحوب الشديد.

أجلس بحذر من يخشى التكسّر على المقعد القريب من قاعدة التّمثال، أسند ظهري إلى الحائط الإسمنتيّ البارد، أتأمّل تمثالي، ما زال في حاجة إلى بعض العمل، ليت أنوثتي تجتاحني، وتقذف دمائي الفاسدة، وتنشّط جسدي، وتبعث لي قوة إضافية تجعلني أستطيع أن أعمل في تمثالي لساعة إضافية أخرى.

أيكتب لي أن أصبح فنّانة مرموقة كما تتنبأ صديقاتي لي باستمرار؟ النجاح كالعشق تماماً، كلاهما قدر لا يدفع، أتأمّل التّمثال، الأساتذة في الأكاديميّة يسمّونه مشروع تخرّج بأنّ أمّا أنا فأسمّيه (إليكَ).

أشعر بأنّ روحكَ تسكن في عملي، أنا ممّن يعتقدون بأنّ الأعمال تحمل أرواحاً، وبمقدار تلكَ الأرواح يسمو عمل الفنان ويرقى فنّه ويجلّ عمله. أتذكّر أغنيةً أجنبية تحكي قصّة فنّانة عمياء أحبّت رجلاً تعرّفت عليه، عندما جاء ليزورها صدفة في مرسمها، وجد أنّها قد شكلّت بالصلصال رأساً بشرياً بملامح واضحة، المدهش في الأمر أنّ هذا الرأس كان تجسيداً مطابقاً لرأسه.

لا بدّ أنّ روحها العاشقة قد سكنتْ يديها وعملها، فأنتجته محاكياً لمن تحبّ. عندما أخبرتكَ بقصّة هذه الأغنية، قلتَ لي:- إنّ الفكرة لم تعجبكَ؛ لأنّ الحبّ فيها صبابي غير واضح الملامح، وأنتَ تخاف من هذا الحبّ. هذا الفرق بيني وبينكَ، أنت تخاف من المجهول، وأنا أنتظر المجهول.

أنتظر من المجهول أن يشفق عليّ، فيرسلكَ إليّ، كم أنا مشتاقة إلى لقائك!! إلى سماعكَ تقول لي: كلّ عام وأنت في خير، وعقبال ألف سنة. السّنوات تضيع هباءً إن لم تباركها بكلماتكَ وأمنّياتكَ.

طيفكَ يضمّ جسدي المتعب، بحركة منه يكسوه بالأبيض، آلاف الشمعات تظهر فجأة لتنير المكان، موسيقى تبعث من المجهول، تراقصني، تسعدني تماماً كما أسعدتني في الماضي، توسّدني صدركَ، وأحلّق معكَ في سماء المرسم، نبضات قلبي تشتّد، أشعر بأنّ نشاط جسدي يفتر، طيفكَ يختفي.

- ما تزالين تفيضين نشاطاً وحيوية على الرغم من تلك الصّفرة التي تعلو محيّاكَ.

ألتفت نحوكَ، لا أصدّق أنّك أمامي، أيّ قدر أرسلكَ إليّ؟

تقول بنبرة هادئة:

- كنت متأكداً من أنّك ستكونين هنا، قلبي حدّثني بذلكَ.

- قلبكَ؟ !!!

- كلّ عام وأنت بخير.

- وأنتَ كذلك.

- يبدو أنّك قد خسرت الكثير من وزنك، ألا تأكلين؟

- لعلّ وزني قد انخفض قليلاً.

- بل كثيراً .

- ربما.

- لنتأكد. تعرفين طريقتي في معرفة الأوزان.

تقترب منّي تحملني كما الطفلة، لدقائق تحدّق بي، لا بدّ أنّ قسماتي المتعبة تحدّثك عن الكثير من الألم والأنّكسار، تعيدني برفق إلى الأرض، تقول لي بنبرة ضاحكة تغالب حزناً ما: بل انخفض وزنك كثيراً ... أأنت مريضة؟

- لا.

تقول بابتسامتك الحلوة، إذن عاشقة ...

تقترب من التّمثال، تهبه شيئاً من تأملّك، تقول لي: لقد رسمت لوحتين أحدهما تجسّد (أرتميس) كما تصوّرها الأساطير، والأخرى تجسّد (هيليوس) كما تصوّره الأساطير، تستطيعين أن تحصلي على لوحة (هيليوس) لعلّها تفيدك في عملك.

- قد أفعل.

- وقد لا تفعلين.

- لقد قارب العمل على الانتهاء.

- أرى ذلك.

- وقد بات من المتأخّر الاستعانة بمساعدة غيري.

- أما زال اسم التّمثال (إليكَ)؟

- ألم أقل لكَ إنّ الأسماء أسخف ما نحمل وما يحمل غيرنا؟

- صحيح ...

تصمتْ، حزن خاصّ يظهر على قسماتكَ على الرغم من تلك الابتسامة التي تزيّن وجهكَ، دموع بعيدة تتلألأ في عينيكَ، عندما أرى تلك الدموع في عينيكَ، أعرف أنّ حزناً كبيراً يكبّل روحكَ، أستطيع أن أغفر لكَ أيّ ذنب، لكنّني لا أستطيع أن أغفر لكَ ذلك الحزن الذي يسكن صمتكَ ويجلد روحي.

أستجمع قوتي، وأقترب منكَ، تجلس, فأجلس قريباً منكَ، تمسك بعطف مؤثر يديّ، أسحب أحدهما من عطف يدكَ، وأداعب بظاهر أناملها وجهكَ الحزين، أقول لكَ بعد تردّد: ما الذي يحزنكَ؟

تصمت، عيناكَ تزوغان بوجل، أخمّن أنّك تبحث عن الكلمات، أعلّق عيني في وجهكَ، أنتظر إجابتكَ، تقول بصوت متعب كمن حطّمه السّفر: شرف حامل ...

- ما شأنّك أنتَ إن كانتُ حاملاً؟

- هي في ورطة.

- لا تقل لي أنّك ستتحمل أخطاء غيركَ، دعها تواجه خطاياها.

- ...

أنتظر إجابتكَ، ترمقني بنظرة ميتة، تدفن ذقنكَ في الأرض، لا أعود أرى وجهكَ، كتفاكَ يهتزّان بوضوح، أرفع رأسكَ بيديّ، دموعاً تغادرهما من غير وقار، أشعر بأنّ السّماء قد سقطتْ عليّ، ألم ما يمزّق أمعائي، شرف تنقضّ علي، وتحاصر جسدي، وتنتزع روحي،

كم أنا غبية!

أبتسم ببرود مقتول، وبدون مبالاة أقول: إذن ستصبح أباً ... ستنجب أحلام ... ستنجب شرف طفلة تشبهكَ، هل ستشبهها أيضاً؟

- أنا ...

أقاطعكَ: إذن ستنجب أحلام، وسأبقى من دون أحلام.

- أنا أحّبكَ لا أستطيع الحياة من دونكَ.

- إذن ... ستنجب أحلام؟

- لقد هـجـرتها، أقسم على أنّني فعلت ذلكَ، وهربت معك إلى إيطاليا على أمل بدء حياة جديدة معك، وعلى أمل أن أتزوّجك بعد العودة، لكن خبر حملها كان في انتظاري، طوال أشهر ثلاثة لم أجرؤ على أن أخبرك بالحقيقة، لكن يجب أن تعرفي الحقيقة.

- نعم يجب أن أعرف أنّك ستنجب أحلام ولكن من امرأة غيري.

- كنت أحلم بأن أنجبها منك، كنت أحلم أن أتزوّجك.

- أنت لا تتزوّج من تهوى. ألم تقلْ ذلك؟

- ولكنّني قد أتزوّج من أعبد.

- إذن ستنجب أحلام، وسأبقى من دون أحلام.

- حمل شرف غيّر مجرى حياتي، طفلها قهر سـعادتي، لكـنّني لا

أستطيع أن أتخلّى عن طفلي ولا عن أمّه، سأتزوّجها.

- أيّ زواج تعني؟

- زواج أهل الأرض ...

أتساءل لِمَ لا أضربه؟ لِمَ لا أقتله؟ لا بدّ أنّني أضعف من أن أفعل أيّ شيء، أنتصب بصعوبة، أشعر بأنّني عجوز تقطع الدّنيا سيراً على الأقدام، لا أقوى على رفع ظهري، لعلّ الأحزان تكسر الظهر، بصعوبة أخطو الخطوة الأولى، أشعر بنيران تكوي أحشائي، أهذا الموت؟ ليته يكون، تسبقني بخطوتين، تقف أمامي، تقول بعصبية ظاهرة: لقد خذلتك أليس كذلك؟ إيّاك أن تغفري لي، أستحق كلّ لعناتك.

أتجاوز جسدكَ، أحثّ جسدي المتثاقل على السير، أقول لكَ بصوت يغالب الدموع، ولكنّها تغلبه: ألمْ أقل لكَ أنّك أجمل من أن تكون حقيقة ...

بصعوبة أصل إلى المنزل، كثير من الأسئلة توجّه إليّ، لا أجيب عن أيّ منها، لا أستطيع تمييز الوجوه بشكل واضح، أدير مفتاح تشغيل المسجّل، أرفعه إلى النهاية، صوت الموسيقى يزحم المكان، أتخلّص من سترتي القطنية، ومن قبعتي الشّتويّة، أبدأ بالرقص، بهدوء أبدأ، ثم تشتّد الحركات، مسّ غريب يسكن جسدي، قوة تداخله، فتجعله يتلوى، يتقزّم، يتمدّد، يتمايل، ويعصر أعضاءه ثم يعود فينشرها بشدة وغلظة، جسد شرف يحتكر مخيّلتي، بطنها الذي مررت لأطالعه قبل قليل يكبر إلى درجة التغوّل، تبتسم شرف كما الوحش،

أتضاءل حتى أختفي، وتهبكَ هي الطفل.

ما أجمل الرقص! ما أصدق الرقص! من قال إنّ الأفراح تصنع الرقص؟ الأحزان هي من تصنعه؟ لا بدّ أنّ حركاتَ الموت تحاكي تماماً حركات الرقص، وأنا سأرقص الليّلة بلا روح, فقط مع الموت.

صديقاتي يحدّقن بجزع في جسدي الراقص، جسدي ينجز الحركات بغضب واحد، الكلّ صامتون، أمّا أنا فأرقص حدّ الإجهاد.

أتوجه إلى سريري، أتكّور فيه، تدنو نورما من السّرّير، تقول بتأثر واضح: ماذا جرى؟

أطالعها بأهداب مجهدة، أضحك بصوت جهور، أقول لها: أتعرفين لوركا؟

- لا أعرفه ...

- لوركا حزن بشّدة لموت زوجته، لم يبكها, بل أمضى الليّل يرقص حزناً عليها، رقص لينسى أحزانه.

- من هو لوركا؟

- هو رجل حزن في يوم ما ...

- أخبريني ماذا حدث لك؟

- دعيني أنام أنا متعبة ...

- ولكن ...

- دعيني أنام ... دعوني أنام ... الرقص متعب.

(٢٦)

أيّام مضتْ، هل تزوّجتَ من شرف؟ لا بدّ أنّك فعلتَ، البارحة بدا طيفكَ كاسفاً وحزيناً، تمثالي بدا كاسفاً كذلك: لم أفرغ أبداً منه، بل قدّمته بلمسات ناقصة، إدارة الأكاديميّة صمّمت على أن أكمل التّمثال، أنا صمّمت على هجره، لقد أعطوني إجازتي الأكاديميّة، ولكن بتقدير أقلّ بكثير مما كنت آمل.

منذ تلك الليّلة كسر شيء في نفسي؛ لا، ليس حبّي للفن، بل شيء آخر لا أعرف له اسماً، لا تخشَ كلماتي، لن أدّعي أنّك من كسره، دعني أزعم أنّ القدر هو من فعل، أنا لا أؤمن بالقدر إذا كان يملك أن يفرّقنا، ويحطّم سعادتنا، ذلك القدر الذي تخشاه جدّتي وتتّهمه بشقاء البشر، وتقول كلّما عاتبها أحد في أمر ما لم تنجزه كما يجب:- " لا تَزْعل من حبيبكَ ازعل من نصيبكَ".

البارحة ودّعت الأستاذ مشعل الخضرا، كان متأثراً لوداعي، كدت أسأله عن سبب تأثّره، ولكنّني أحجمت عن ذلك في اللّحظة الأخيرة، عاتبني بشدّة؛ لأنّني أضعت فرصة العمل التي رتّبها لي في المدينة، قلت له:- لقد طال غيابي، أنا مشتاقة إلى أمي، لم أرها منذ عام، أشتاق إلى أن تدثّرني، إلى أن أسمع وقع قدميها الصّغيرتين تدخلان غرفتي خلسة، تطمئنّ عليّ، ثم تخرج، أنا وحيدتها، ويجب أن أكون إلى جانبها.

- متى ستسافرين؟

- بعد أيّام قليلة، سأحصل على أوراق تخرّجي، وأغـادر المدينـة في أوّل قطار.

- ألن أراك قبل السّفر.

أهزّ رأسي بالنفي، أقول:- عندي الكثير لأنجزه قبل سفري.

- لِمَ أشعر بأنّك هاربة؟

سحابة من الحزن تجتاح قلـبي، أقـول بابتسـامة كسـيرة، و بنـبرة تحاول أن تكـابر علـى آلامهـا:- أنـا لا أهـرب، ولكـنّني اشـتقت إلى عائلتي. اشتقت إلى حبّهم العلني، إلى دفئهم، لذا تجدني أنهـي كـلّ مـا لي هنا بسرعة.

- هل ستراسلينني؟

- سأفعل بالتّأكيد.

- سأنتظر... سأنتظر رسالتك.

ترتقى نورما الدرجـة الأولى مـن سـلّم الكنّنيسـة القديمـة قـرب السّوق القديم، تقول لي:- إنّه عالم مجنون، عالم مجنون.

- لقد خدعتني جدّتي عندما قالتْ:- إنّ الحبّ يعطي السعادة.

أمّي خدعتني كذلك عندما قالـتْ:- إنّ المحبّين يمضـون حيـاتهم سويّاً، وينجبون الكثير من الأبناء والبنات مثل سائر أبطال القصص.

- وماذا وجدت؟

- وجدت أنّ الشقاء هو قدر القلوب العاشقة.

- ليس كلّ القلوب.

- إذن فهو قدر قلبي، وقدر قلبه.

ترتقي نورما درجة أخرى، تخرج من جعبتها منديلاً أبيضَ منسوجاً من الحرير الرقيق، تغطي به جزءاً من شعرها، تحرّك يدها اليمنى ترسم صليباً بمحاذاة صدرها ورأسها، تقول لي:- سأنتهي بعد نصف ساعة، لا تتأخّري في السّوق، سأنتظرك لنقفل عائدين إلى البيت.

- لن أذهب إلى السّوق سأنتظرك هنا، أشعر بأنّني متعبة.

- وماذا عن الهدايا التي تريدين شراءها لعائلتك.

- سأفعل ذلك فيما بعد.

- افعلي ما تشائين.

ترقى نورما الدرجة الأخيرة من السلّم، تلتفت كمن تذكّر شيئاً, وتقول لي:- ادخلي معي..

- ماذا أفعل؟ !

تبتسم لي بعذوبة من يحادث طفلاً: الأماكن لا تحتكر الله، هو في كلّ مكان، تستطيعين أن تكوني مسلمة حتى في داخل الكنّنيسة، كلّنا لله.

أدخل معها، تردّد بعض الصلوات مع المصلّين، أمّا أنا فأقف إلى

جانبها احتراماً لمشاعر الموجودين، احتراماً لمشاعر نورما التي تحترم كلماتي، تنصت خاشعة كلّما قرأت القرآن عليها، ودعوت الله أن يشفيها من صداعها الذي لا يكاد يفارقها حتى يعاودها من جديد.

أدعو الله بصمت، أدعوه أن يهبني شيئاً واحداً، واحداً لا غير، أن يهبني روحاً طيّبة لا يحرقها العشق ولا يسكنها الكره أو الغضب.

سريعاً ما أحزم حقيبتي، وأدسّ نفسي في المقعد إلى جانب أسرار في سيّارتها التي تسير بأعجوبة، فمثيلاتها من السيارات القديمة أصبحتْ في متحف السيّارات.

تسألني أسرار وهي تعدّل من وضع المرآة الأمامية:- تبدين كالخارجة من القبر، وجهك شاحب.

- أنا أحبّ...

- أعلم أنت تحبّين الوجوه الشاحبة، لكن لا أحد يحبّها غيرك.

- زوجة الضابط سلامة بكتْ البارحة عندما ودّعتها.

- لا بدّ أنّها حزينة لفراقك.

- أنا ظننت ذلك، لكنّها قالتْ لي:- بل حزينة على وردة شبابك التي ذبلتْ، قولي لي يا ابنتي ما الذي يحزنك، أأستطيع أن أساعدك؟ عدّيني أمّاً لك.

- بماذا أجبتها؟

- لم أجبها... بل صمتّ.

-...

طوال الطّريق حدّقت من دون قصد ببطن أسرار الذي يحمل جسداً للمرة الثّانية، لقد كبر عن آخر مرة رأيته فيها، هل يكبر بطنك كذلك يا شرف؟ أتشعرين بسعادة حركة الجنين؟ أيلمس من أحبّ بطنك؟ أيعدّ الأيّام لتحمل يداه ما يحمل رحمك؟ لا بدّ أنّه يفعل ذلك؛ فهو أرقّ رجال الدّنيا.

أمام بيت فضيلة تتوقّف أسرار بناء على طلبي، أقول لها:- لن أتأخّر.

- أما زالتْ حزينة؟

- نعم.. ما تزال حزينة، منذ شهر لم تغادر البيت.

- مسكينة، انقلي إليها تحيّاتي.

- سأفعل.

أطرق بابها، تفتح عمّتها الباب، أقبّلها كعادتي، من السهل أن يدركَ المرء أنّ هذه القسمات الصارمة والبشرة الصاخبة قد ورثتها عن أمّها التركيّة الأصل، فضيلة تؤكّد أنّها عربية، وإن كانت جدّتها لأبيها تركية، تؤكّد أنّها مسلمة عربية، وإن كانتْ تجيد شيئاً من التركيّة، عندما تقول فضيلة إنّها قد ولدتْ في لواء الإسكندرونة، لا تنسَ أبداً أن تلحق كلمة الاسكندرونة بكلمة المحتلّ، وتؤكّد بعصبيتها الطفولية، أنّها عربية من ذلك اللواء، وليستْ تركية.

لو كانت نورما معي، لدارتْ بينهما تلك المجادلات الطّويلة حول العثمانيين وصفة حكمهم إبّان شباب امبراطوريّتهم البائدة.

تدعوني عمّتها إلى الجلوس، من الدّاخل يتدفّق صوت تلاوة القرآن، لا بدّ أنّ فضيلة من تسمعه، لعلّها تدعو لروح كاظم، لروحه التي أحبّتها دائماً، من باب المجاملة أسأل العمّة عن والد فضيلة، ذلك الرجل الصارم الذي لا يقبل أيّ تنازل عن مبادئه ومثاليّاته التي يقدّسها، تجيبني العمّة التي تقوم على رعاية أخيها وابنته منذ موت زوجته: ليس موجوداً، لقد عاد إلى العمل في إدارة سكنات الكشّافة.

أقول في داخلي:- صبيان الكشّافة المساكين، لا بدّ أنّهم يعانون من قوانينه الصارمة، وآرائه المتشدّدة.

تقبل فضيلة بجسدها النحيل، أقبّلها، صمتها يحدّثني عن حزنها، تستأذن العمة، وتغادر الغرفة، أمسك بيدها، أقول لها:- كيف حالك؟

- على الأقل أنا على قيد الحياة، أمّا كاظم فمات، مات بسببي، أنا من أرسله إلى الموت.

- لا، أنت لم تفعلي، لقد أراد أن يعود إلى بلده، ويعيد بناء نفسه ليكون جديراً بك.

- لقد أحبّ الحياة، أراد أن يعيش، لكنّه قدّم قرباناً في حرب لا تعنيه، لعلّه لم يعرف أبداً لمَ يحارب.

-...

- لا أستطيع أبداً أن أنساه، أتذكّر كلّ كلمة قالها، لقد مات من أجلي , مات لأنّه أراد أن يسعدني، أنا أعرف أنّه مات بسببي.

أقول لنفسي:- سعادة عرف ذلك أيضاً، لطالما قرأ فنجانك، وقال: إنّ رجلاً سيحبّك حدّ الموت، لعلّه عنى أنّ رجلاً سيحبّك ويموت... أكان يعرف أنّ الموت ينتظر من تحبّين؟

- ليته لم يذهب، ليته لم يستشهد، لمَ حبيبي بالذّات هو من يموت؟ !

ليته لم يستشهد ... كلمة يستشهد لها وقع خاصّ على أذني، تلاوة القرآن تبدو أعلى ممّا كانت عليه من قبل، أتساءل أيكون شهيداً من يقاتل مسلماً مثله، فيقتل ولعلّه قد قَتَل مسلماً قبل ذلك؟ ألم يعلموننا في المدارس أنّ المسلم سند للمسلم، لايحلّ له دمه أو عرضه أو ماله؟ أم أنّ ما يعلّم في المدارس يختلف عمّا يدور في أروقة السياسيين؟ لعلّك يا فضيلة تعنين أنّه شهيد حبّك، أو شهيد فقره وظروفه القاسية، أو شهيد الاستعباد والتطاحن السياسي؟

- يجب أن أغادر، أسرار تنتظرني في السيارة.

- هاتفيني عندما تصلين إلى المزرعة.

- سأفعل.

- متى ستسافرين؟

- بعد أيّام قليلة.

- وهو؟ ماذا عنه؟

- لم أعد أراه...

- لقد اتصل بي قبل أيّام، وعزّاني باستشهاد كاظم.

- هو دائماً رقيق وطيّب يجيد مواساة غيره.

- من أعلمه باستشهاد كاظم؟

- لا أعلم.

- شرف اتصلت كذلك، وعزّتني باستشهاد كاظم.

-...

- لطالما كرهها كاظم، عندما عزّتني شعرت بأنّها تشمت بموته.

- أراك في ما بعد...

الإقامة في مزرعة أسرار أراحتني بشكل كبير، جعلتني على الأقل أتـذكّركَ دون أن تجتـاحني رغبـة البكـاء، سمحـتْ لـي بـأن أسـتذكر الماضي بصفو غريب، في مستنبت أسـرار جلسـت لسـاعات، أحـدّث طفلة أسرار عن أسراري، كانت تهزّ رأسها لتؤكّد أنّها تدرك أحزاني، تمدّ يديها ذات الأعوام الثلاث، تمسح دموعي، وتسألني:- خالتو إنت زعلانة منّي؟ !

أضمّها إلى صدري... وأصمت.

قليل من الأمتعة سأحزم في حقائبي، الباقي سأتركه هنـا، أراجـع أوراقي الرسميّة والثبوتيّة وإجازتي الأكاديميّـة، كلّهـا موجـودة، غـداً صباحاً سأغادر المكان، لا بدّ أنّ السهر الطويل مع الصديقات اللواتي قدمن لتوديعي، والتسوّق لمدّة طويلة لشراء الهدايا لعـائلتي قـد أنهـكَ

جسدي وتركه أكثر شحوباً.

أقف إلى النافذة، لا أبحث عن ذكرى، ولكن عن شيء من السلام، الهاتف يرنّ، لا أجيب، لكنّ صوت رنينه لا ينقطع، بتثاقل أرفع السّماعة، للحظات يسود الصمت، لا كلام يتدفّق عبر الأسلاك، تلك الأنفاس هي أنفاسكَ، أستطيع أن أميّز وتيرة أنفاسكَ ولو بعد ألف عام من الفراق، ألاقي صمتكَ بصمت إلى أن يتدفّق صوتكَ قائلاً:-

- اتصلت بك لأيّام، ولكنّني لم أجدك.

- أنا مسافرة غداً.

- أستسافرين دون لقائي؟

- لا أحتاج إلى رؤيتكَ حتى أنعم بلقياكَ، أنتَ دائماً معي.

- قولي لي:- أنّك غفرت لي، لقد آلمتك جداً.

- لا أملك إلّا أن أغفر لكَ، أنتَ بعضي بل أنتَ كلّي. أينتقم الإنسان من نفسه؟

- أنا أتألّم بشدّة.

- أعرف.

- ألم تعديني بأنّك لن تسافري أبداً؟

- أنا لست مسافرة، أنا هاربة.

- هاربة منّي؟ أتكرهينني؟

- بل أعشقكَ، لذلك أهرب منكَ.

- أنا لا أستحقّك...

- بل تستحقّ كنوز الأرض تسكب عند قدميكَ.

- ألن تكوني أثيرتي بعد الآن؟

- بل سأكون دائماً.

- تزوّجي يا صغيرتي المستحيلة، تزوّجي، وانجبي الكثير من الأطفال، ستكونين أمّاً رائعة وزوجة مدهشة، أنا أحسد الرجل الذي سينعم بحبّك.

-...

- دعيني أراك، دعيني أودّعك، ولو لدقائق.

ليتني أستطيع أن أراكَ، ليتنا نسير سويّاً في المتنزّه، أحتاج لوداع أشجار السّنديان، ليتني لا أرى بطن شرف يكبر ويكبر، ويطاردني حتى آخر الدّنيا.

- لا أستطيع.

- إذن لن أراك...

- بل ستراني، كلّ ليلة ستراني، تابعني عند بوابة أحلامي، اجعلني خلفكَ على صهوة أشواقكَ، كن ملكَ أحلامي، سأنتظركَ في كلّ ليلة، سأنتظركَ في دنيا الأحلام.

- سآتي، كلّ ليلة سآتي لألمسَ وهماً كان حقيقة في يوم من

الأيّام، سأزور امرأة مستحيلة لا تتكرّر، سأحضر معـي الزّهـور، أيّهـا تحبّين لأحضر لك؟

- أحضرْ الياسمين، أنا أحبّ الياسمين.

- أيّها الراحلة! ! ارفقي بقلبي.

دقائق خمس وينطلق القطار، أتكفيكَ هـذه الـدقائق، لتـدلف إلى المحطّة وتراني؟ من نافذة مقصورتي، أبحث عنكَ بين الوجوه، أتمنّى أن ألمحكَ بجسدكَ الممتدّ وسيركَ الواثق، تدلف إلى المحطّـة وتبحـث عنّـي، فألوّح لكَ من نافذتي، لتـدنو سـريعاً مـن القطـار، وتضـمّني بشـدة، وتقول لي:- جئت لكي أودّعك.

أعرف أنّك لن تأتي، ولكن دعـني أتمنّـى حضـوركَ، فللأمنّيـات طعم خـاصّ، دعـني أحلـم بجسـدكَ يطـوّقني، إلّـا أسـتحقّ شـيئاً مـن الأحلام؟

أفتح محفظتي، صورتكَ التي قطعتها من مجلّة المكتبة ما تزال قابعة فيها، لسنوات اعتدت على أن أفـتح هـذه المحفظـة ليطـالعني وجهـكَ الباسم، وشفتيك اللّتين تحتضنان الكثير من الكلمات.

صورة واحدة هي كلّ ما أملك لكَ، يا لضآلة مـا أملـك؟ ليـتني أخذت تلك الصّورة التي تستضيفها أمّكَ بالقرب من سريرها، لو أنّها علمت بمقدار عشقي لكَ لوهبتني إيّاها من دون أن أطلبها.

ودّعت أمّكَ هذا الصّباح، زرتها لآخـر مـرة في حيـاتي، كـدت أستهديها تلك الصّورة التي تظهر فيها سعيداً جـذلاً بشـبابكَ الجبّـار،

كالعادة عيناكَ أبرز ما يلفت النظر إليكَ، ولكنّني تراجعت كسيرة عن طلبي عندما حيّتني وهي تقبّلني ربما للمرة العاشرة: أهلاً بالغآليّة ريحة الغالي ...

ليتها عنتكَ بالغالي، لكنّها بالتّأكيد عنتْ عايد الذي زرتها برفقته لأول مرة، كان على وشك السّفر والعودة إلى بريطانيا حيث يعمل، عندما أبديت له رغبتي برؤيتها، دعاني إلى زيارتها معه، أحزنها خبر قرب سفره، لكنها لم تنسَ أن تستقبلني بحفاوة، لعلّها ظنّتْ أن علاقة ما ترتبطني بعايد، علاقة كتلك التي تربط الرجال بالنّساء، لم تعلمْ أن عايد أخ لي؛ لأنّه أخوكَ، أمّا عشقي فهو لكَ من دون رجال الدّنيا.

لطالما زرتها بعد ذلك لأنعم باستقبالها اللّطيف وكلامها الطيّب، تملك عينين هما عيناكَ، أعجب كيف استطاعت امرأة بمثل هذه البنية الضعيفة والقامة القصيرة أن تنجبَ رجلاً بمثل قامتكَ وسحركَ!؟ أقارنها بلاتونا تلكَ الحسناء التي خطفها (زيزس) كبير الآلهة ولينجبَ منها (هيلوس) إله الشّمس، لا بدّ أنّها أقل جمالاً وشباباً، ولكنّني أحبّها، أحبّها بشكل خاصّ؛ لأنّها أهدتني فرحة عمري، أهدتكَ إليّ.

لم أستطعْ أن أمنع دموعي من أن تهمي سخيّة عند وداعها، عندما أخبرتها بسفري من غير رجعة، بكتْ بحرارة، وضمّتني بعطف مؤثّر، تمنّيت أن تطيل فترة حضنها لي، ما أجمل أن يحضنني حضن لطالما حَضنكَ!

دسّت أحد خواتم يدها في إصبع يدي، صمّمتْ على أن أحتفظ به، وقالت بابتسامتها التي لا تستطيع أن تخفي آثار حياة قاسية قد

عاشتها:- احتفظي به، أنت حبيبة قلبي، أنت الغآليّة من ريحة الغـالي، كدت أقول لها:- أنّني أقدّسـك؛ لأنّـك أمّ مـن أعشـق، لأنّـك تحـبّين الرجل الذي أهوى.

كدت أقول:- عايد ليس من أهوى، هو رائع عـذب كمـا قطـرة الماء، يذكّرني (بكيوبيد) ذلك الإله الصّغير الـذي يبعـث الحـبّ لكـلّ البشر، ولكنّني أحبّـه كمـا الأخ. لكـنّني أصـمت، وأحـتفظ بكلمـاتي وأسمائي، فما نفع الكلمات والأسماء في لحظـة الرحيـل، كـلّ شـيء يصبح هباء لا قيمة له في لحظة الفراق.

صافرة القطار تعلن عن أزوف تحرّكه، أسند ظهري إلى الكرسـي بتعب من حطّمه الانتظار، أغلـق بيـأس سـتارة النافـذة، أعلّـق عـيني بسقف القطار، هناك أيضاً لا أجدكَ، لا بأس فقد اعتـدت علـى عـالم من الخذلان تزرعني فيه، يبدأ القطار في سيره، يبدأ بطيئـاً، ثـمّ يسـرع، يدوس من غير رحمة ذلك القلـب الـذي هجرنـي، وبقـي ينتظـركَ في المحطّة.

(٢٧)

ها هو البيت الأبيض القديم ذاته، بشرفته الدائريّة ونوافذه الخسبيّة وبوّابته الحديديّة القديمة، البيت في مكانه تماماً لم يتحرّك قَيْد أنملة، ألا تداخله ولو لحظات رغبة الارتعاش, رغبة الحركة، رغبة الهرب من مكانه، يا له من مكان صامت كصمت القبر!

لعلّه لم يعرف معنى رعشة العشق، معنى الشّعور بقوّة قادرة على قلب موازين الأرض، يا بيتي أنتَ بليد! ولكنّني أحسدكَ على بَلادتكَ وعلى صمتكَ الإسمنتيّ؛ لأنّك لن تشعر أبداً بما أشعر به، لن تشعر بغصّة دائمة تكاد تخنقكَ، لن يتقبّض قلبكَ حتى الانسحاق، لن تعيش ميتاً بين الأحياء، أتعرف معنى أن تكون شبحاً مرعوباً من نفسه؟ أنا أعرف معنى ذلك.

يدفع السائق بحقائبي إلى ما بعد باب الحديقة، أدسّ في يده بعض النقود، لا بدّ أنّها أكثر مما أراد، ابتسامته تقول إنّه قد عقد صفقة رابحة معي، إن كانتْ صفقة رابحة له أتراها تكون صفقة خاسرة بالنسبة لي؟ لا يهمّ، أنا أكثر نساء الأرض قدرةً على تحمّل الخسارة.

لقد خسرتكَ وما زلت قادرة على الابتسام، أنا قادرة على ضمّ شفتيّ على شكل قوس مقوّس نحو الأعلى ومشدود نحو الأطراف، الناس تسمّي هذه الحركة بالابتسام، ليكن سأسمّيها مثلهم بالابتسام، ماذا عن فرحة القلب؟ لا يهمّ، يبدو أنّها غير ضروريّة في هذه الحركة

التي تشبه بعض حركات القرود، المهم أن تبتسم ولو بقلب دامٍ.

لم أعرف من قبل أن بيتي مخيف إلى هذا الحدذ، بابه الحديديّ بارد، أخشى أن أطرقه، أخشى أن أجتازه، أشعر بأنّه سيبتلعني، سيمتصّ دماء عروقي، سيهضم أحزاني وذكرياتي، لن يعترف بوجودكَ يا من أحبّ، هو لا يعترفْ إلّا بمن يجتازونه.

أغلقت باب الحديقة، ذلك الباب الصّغير والقصير إلى حدّ ركبتيّ، أنا متعبة، من حسن حظّي وجود تلك الأحواض الصّغيرة التي ترعى أمّي زهورها باستمرار، أتهالك على حافّة إحداها، يسحق جسدي إحدى زهرات الحوض، إذن أيّتها الزّهرة ها قد عرفت أيضاً معنى الانسحاق، لن تنعاك أمّي كعادتها كلّما استشهدتْ زهرة، بل ستدهش من قدومي قبل موعدي بساعتين، ستضمنّي وتنساك، أحد لن ينعى شبابك المسحوق، أعرف كثيراً ممّن لم ينعَ أحد شبابهم المحترق.

ما أصعب أن أرفع رأسي المتهالك ما بين يديّ، يستعصي على ظهري أن يعتدل كما يجب، لا أذكر متى كان منتصباً بشباب وقوّة، لعلّه كان كذلك عندما كنت ألهو في هذه الحديقة قبل سنوات طويلة، كيف كنت أستطيع أن أتسلّق هذه الأشجار الباسقة؟ كيف لم أسقطْ ولو لمرّة واحدة؟ لعلّي كنت على موعد للقائك، ولا مكان آنذاك للموت، شجرة اليايسمين أصبحتْ كبيرة، متى تغوّلتْ إلى هذا الحد؟ لطالما أحببت الياسمين، أستطيع أن أرى تحته فتاة صغيرة بثوب أحمر تجمع زهوره البيضاء، وتنظمها بأناة في خيط لتصنع منها عقوداً

تتقلّدها، ثم تتخاصّم مع بنات أعمامها اللواتي يشاركنها في عملية النّظم حول أيّ العقود أجمل، أيّها أكبر؟ يتعالى صوت الخصام، تحضر أمّي تحلّ الخصام بكلماتها الطيّبة: كلّ العقود جميلة...

قد تكون كلّ العقود جميلة، ولكن خاصّتي هو الأسعد؛ لأنّه كان يستعدّ إلى لقائك، إلى رسمكَ بماء الياسمين، إلى نسجكَ بسعادة تشبه سعادة النسج ببتلات زهور اليايسمين.

جلبة لا تخفى تسكن البيت، فجأة يفتح الباب الحديديّ الكبير، يطلّ سريعاً رأس فضولي صغير، يطالعني ثم يركض كما العفريت إلى الدّاخل، صوته يملأ المكان: ألم أقل لكم؟ لقد عادتْ، لقد شاهدتها تنزل من السيّارة، إنّها في الخارج تجلس في الحديقة.

إذن أنا قد جئت؟ ألتفت حولي، أتلمّس جسدي سريعاً، هل سمعته يقول: أنّني قد عدت؟ من قال: أنّني عدت؟ أنّني لا أكاد أجد ذاتي، أنا متأكّدة من أنّني بقيت هناك، قريباً منكَ، أنا لم أعدْ، ولن أعود، كيف أقدر على أن أترككَ؟ لم أنتظركَ ألف عام كي أتركَكَ، وأعود هكذا بكلّ بساطة، لعلّ ذلك الصبيّ أراد أن يقول إنّ جسدي قد عاد؟ لعلّه أراد أن يقول ذلك، نعم جسدي المتهالك عاد قبل دقائق، أمّا ذلك الشّيء الخرافي الذي يسمّوه روحاً، فهو يحلّق بعيداً، قريباً منكَ، ولا يزورني إلّا ليؤكّد ملكيّته لجسدي.

كثيرة من الرّؤوس تطلّ، الكثير من الأجساد تقترب نحوي، متى أصبح لعائلتي كلّ هذا العدد المهول من الأطفال؟ كثير من الوجوه أصبحتْ أنضج، وباتت ترتدي أجساداً أطول وأجمل، متى حضرتْ

عمّاتي وخالاتي؟

أجاء الكلّ لتشييع جسدي الميّت؟ أنتصب بصعوبة، حضن أمّي أوّل ما يستقبلني، حضنها غارق برائحة البرتقال، أشمّه، أقبّلها، أتمنّى أن تمتدّ يدها لتوقظني من نوم طويل، لأجد نفسي صبيّة صغيرة تستيقظ من حلم غريب، تحمل كتبها، وتسرع نحو مدرستها، لا تعرف شيئاً عن عشقكَ، لا تعرفكَ إلا كحلم غريب تحدّث صديقاتها المسكونات بقصص المراهقات عن قسمات وجه فارسه السّاحر، ولمساته السّاحرة.

الكثير من الأجساد تسرقني من حضن أمّي، وتهديني قبلاتها، الأيدي الصّغيرة أصافح بعضها، وأقبّل بحبّ بعضها الآخر، عمّتي فيروز تقول لأحد أطفالها بنبرة الحكيم:- أنظر كم هي مجتهدة، أطاعت أمّها، ودرست، دروسها ولم تهمل واجباتها، هيّا ادرس جيداً لتصبح مثلها...

يا عمّتي! إيّاك أن تتمنّي أن يصبح مثلي، أنا ميّتة، أنا محترقة، أنا ملعونة، أتريدينه أن يصبح ملعوناً مثلي؟ تمنّي له أيّ شيء إلّا أن يكون مثلي، دعيه يواجه قدره دون أيّ أمنيات.

يطلّ جسد جدّتي، دموعها تسبقها، تبكي كعادتها، تحضنني، كما اشتقت لدموعها، ابكي ... ابكي، لأول مرّة أطلب دموعك، لأولّ مرة أؤمن بحكمتها، تبكين فرحة بلقائي، أمّا أنا فأستغل فرصة بكائك لأبكي... كم أحتاج للدموع...

كم أحتاج لفراغ كبير، فراغ مستحيل، أصرخ فيه، لأفرغ فيه حزناً لا يدركه إلّا من يتقن البكاء، جدّتي!! لقد أضعت روحي، أليس جديراً بمن أضاع روحه أن يبكي؟

يا الله! ! ما أرحم الدموع بقلوب أصحابها!

آه يا جدّتي الرؤوم! لعلّك لا تدركين سرّ دموعي، كم أتمنّى أن تهمس لك دموعي، وتقول بلساني:- جدّتي! ! لقد ورثت اللّعنة، ورثت لعنة نساء عائلتي، أنا ملعونة، عدت أحمل لعنة الدّنيا وأحزان كلّ البشر، عدت أحمل عشقاً.. والعشق جنّة الأرض الملعونة.

تضمنّي جدّتي، تمسح دموعي، أحرص على أن أهرب بعيني بعيداً كي لا تراكَ فيهما، كي لا تقرأ فيهما عهوداً بانتظاركَ، كي لا تراني فيهما بشعر أبيض وانتظار طويل...

تتأبّط أمّي ذراعي الأيمن، تدعوني، وتدعو الجميع إلى الدّخول، أستسلم لإرادتها كما الأسير، ألقي نظرة أخيرة على شجرة الياسمين، تثرثر بالكثير حولكَ، ليتها ترحل من هنا، وتكفّ عن إحياء أمنّياتي، وبعث ذكرياتي، أقول:- أمّي ليتنا نجتثّ هذه الياسمينة.

- ولكنّك تحبّينها.

- لم أعد.

-...

- أرجوك ، افعلي ذلك من أجلي.

-...

تقول جدّتي بنبرتها الحنونة، المستعدّة دائماً لفعل أيّ شيء لإسعادي:- يا ستّي يا حبيبتي، نقطعها ولا تنقهري.

أشعر بأنّني في احتفال، أنا أحبّ الاحتفالات، ولكن كلّ ما أرغب به الآن سلام وراحة طويلة من غير أصوات أو نظرات أو روائح، من دون أيّ يد تمتدّ إلي، وتخاطبني بلغة الجسد، أريد أن أنام وأنام، أن أدخل إلى غرفتي، أن أحبس نفسي مع أحزاني، لتنتظر حقائبي، قد أفرغها فيما بعد، فقط هذه الحقيبة ما تهمنّي، أفتحها، أنقذ ذلك الثوب من إسارها، أحمله بحنان، أهبه المكان الذي يستحقّه في خزانتي، أترك باب الخزانة مفتوحاً لأطالعه من مكاني في السّرّير، صوت أمّي يناديني من خلف الباب، يطالبني بحضور العَشاء، أعدها بالحضور، مرحى للعشاء، ومرحى للضيوف المتحمّسين لتناول الطّعام مع امرأة ميتة.

طوال السّنين آمنت جدّتي بأنّ سحراً قد أصابني أو أنّ جنّاً شريراً قد سكن جسدي، طوّفتْ بي على من تعرف وعلى من تعرف صديقاتها من المشعوذين والشيوخ وأصحاب الطّرق وقارئي المستقبل، وعلى الصالحين والأولياء حسب اعتقادها، في البداية أعجبتني طرافة الفكرة، لطالما دهشت من أولئك الذين تتبرّك جدّتي بهم، وتخشى علاقاتهم المزعومة مع القوى العظمى، يبحثون طويلاً في داخلي، فتنبؤهم مداركهم المزعومة عن سحر يسكنني وجنّ يتلبّسني، ولكنّها لا تخبرهم عن عشق يسكن روحي و يذيبها.

في ما بعد أصبحت أشتاق لخزعبلات أولئك الدجّالين، أشتاق لكلماتهم التائهة، أشرب ما يقدّمون لي، وأتّبع نصائحهم لعلّ جسدي يتحرّر من سحره، تشرف جدّتي على علاجي المزعوم، تدعو لي أمّي بالشفاء، تقرأ لي بعض القرآن، أنام على كلماتها وتعاويذها. في الصّباح أنفّذ مرة أخرى ما تطلب جدّتي منّي، أطرق معها أبواب كلّ من يدّعي قدرته على فكّ السحر، ربّما أنّ أحدهم قد يستطيع ذلك، لكنّه بالتّأكيد لا يستطيع أن يحرّرني من إسار سحركَ، أثق بأنّ لا كلمات في الدّنيا يمكن أن تذيبكَ في داخلي، ولا بركة يمكن أن تحرق لعنتك، هذه الثقة تريحني، من قال:- أنّني أريد أن أعدم عشقكَ؟ هو كلّ سعادتي، أريد أن أحمله إلى الأبد.

قال أحد المشعوذين:- إنّ سحراً قد دفن لي تحت أحد شجرات حديقة بيتنا، صمّمتْ جدّتي على أنّ هذا السحر قد دفن تحت شجرة الياسمين التي بتّ أكرهها من غير سبب، اقتلع أبي شجرة الياسمين، وألقى بها نحو البعيد، ليتخلّص من شرّها المزعوم، راقبته بصمت وهو يقتلعها، لم تزرع أيّ شجرة في مكانها، بقي حوض الياسمينة فارغاً بلا أشجار إلى أن باع أبي البيت الذي أقنعته جدّتي أنّ عيناً قد أصابته، وأصابتني أنا بالذّات، ورحل جميعنا إلى بيت جديد في مدينة أخرى.

ماتتْ جدّتي وهي تظنّ أنّها قد أنقذتني من العين التي أصابتني، وشاختْ أمّي وهي تلعن شجرة الياسمين، وتحدّث من تعرفْ عن ذلك السحر الشّرير المدفون تحتها، ليتها عرفتْ أنّ السحر مدفون في عينيكَ لا تحت شجرة الياسمين.

(٢٨)

أتساءل هل سينزعج الطبيب إذا جلست بمثل هذه الملابس المبلّلة على مقاعد مكتبه الفسيح؟ كيف لمْ أنتبه إلى أنّ الأمطار تغسلني؟ لعلّ الذّكريات غسلتني قبلاً منها، فلم أشعر بوقع الأمطار عليّ، شيء من البرد يداخل جسدي، أكثر ما يزعجني أنّك ستراني بشعر غير مصففّ، تلكَ القبعة اللعينة لم تحمنّي من الأمطار، أخلعها بنزق، أمسكها بيدي، ما أدفأ المكان! تدعوني الممرضة إلى الجلوس لانتظار الطبيب، ما ألطف هذه الممرضة! ملامحها جميلة كملامح ابنتي أحلام، أمّا موظف الاستقبال الذي قابلته في قاعة استقبال المستشفى، فهو بغيض إلى أبعد الحدود، ليته يشفق على انتظاري، ويسمح لي بزيارتكَ ولو للحظات، إلّا يشفق على امرأة قطعت نصف الدّنيا كي تزور مريضاً لبضع دقائق، كلّ ما أطلب هو بضع دقائق لأراكَ، ثم أقفل راجعة إلى النسيان، ذلكَ البغيض يقول: إنّه لا يسمح بزيارة المرضى في ساعات الليّلة المتأخرة.

- كيف لا يسمح بزيارة المرضى في الساعات المتأخرة؟
- إنّه يسمح بزيارتهم في الصّباح فقط.

أيّ صباح عنى؟ أنا لا أملك أيّ صباح، كلّ ما أملك حفنة آلام وانتظار في الظلام، هكذا هو قدر أمثالي من البشر، أنا لا

أستطيع أن ألقاكَ إلا بعيداً عن أيّ عين ترقبني، كلّ ما أحتاجه هو لحظات فقط لحظات، ثم ليطوقني المجهول ثانية.

أنتظر بترقّب لقاء الطبيب المناوب، هو فقط من يملك أن يسمح لي برؤيتكَ للحظات، ماذا سأقول له؟ أأقول له أنّي عاشقة ترجو أن تسمح لها برؤية من تحبّ؟ أم أقول له أنّي أخشى رؤية شرف بل أكره ذلك، أخشى أن أرى تعاستي سعادةً في عينيها، أأقول له أنّي أنتظر الليّل ليطوّقني في ظلامه الذي كثيراً ما يكون رفيقاً بالبشر؟ أأقول له أنّي أجهل ما سبب وجودي هنا؟ وأجهل سبب رغبتي في رؤية ذلكَ الفنّان الذي يعاني من سكرات المرض منذ أيّام؟ أأقول له: إنّ عايد رجاني أن أزور ذلكَ المريض؟ ولكنّه لا يعرف عايد، بل ولا يعرف أيّ النّساء أنا.

لا يعرف امرأة هجرت فنّها الذي تحبّ، وانزوت لسنين طويلة في عمل هادئ وساذج، لا يمثّلها، ولا تريد أن يمثّلها، السلام مع نفسها ومع ذكرياتها هو كلّ ما أرادتْ، إحدى صديقاتها أصبحت فنّانة مسرح مشهورة، الأخرى تزوّجت أرمنيّاً بعد أن أحبّته كما تمنّتْ دائماً، الأخيرة تزوّجت طبيباً طيّباً، ونسيتْ معه من قضى شهيداً لحبّها، وأنجبت طفلين رائعين، كلاهما أسمر البشرة، ولكن ليس كسمار بشرة من أحبّت بل كسمار بشرة من تزوّجتْ، ذلكَ الزّوج الذي باتت تحبّه، ولا تذكر من الأسماء إلّا اسمه، وتجهل أيّ اسم آخر بالذّات إذا كان ذلكَ الاسم هو اسم (كاظم).

لم أعد أرى تلك الصديقات؛ لأنّني لم أعد أرغب بوجه يردّني إلى أحزاني، فضيلة هي من صمتت باحترام أمام قرار قطيعتي، ضمّتني، وقالتْ: ليكن الله في عونك.

الله لم يكنْ في عوني، لم يذهب بذاكرة تملؤني ألماً، وتغرق ذاتي في النسيان، ذاكرة تدفعني إلى أن أنتظر كالمعاقبة في هذا المكان، أبحث عن كلمات تقنع الطبيب ليسمح لي برؤيتكَ، ليته يعلم كم أنا محتاجة لرؤيتكَ ولو لمرة واحدة لكي أضمّكَ أم لكي أقبّلكَ، أم لكي أصفعكَ؟ لا أعلم، فقط عندما أراكَ سأعرف أيّ المشاعر تسكنني.

أشرب الشاي الذي قدّمته لي الممرضة، أحدّق في وجه الطبيب الذي دخل وجلس إلى المكتب، قسماته صامتة لا تشي بأيّ شيء، كيف يستطيع أن يملك مثل هذه الملامح المحايدة؟ يسألني عن صلة قرابتي بالمريض؟ أصمت. يسألني عن سبب رغبتي في زيارته ليلاً؟ لا أجيب، أراه يحدّق في معطفي المبتلّ، وفي عيني المسكونتين بأمنّيتي، يقول لي بهدوء:- القوانين تمنع بزيادة المرضى في الليّل من قبل غرباء لا تسمح إلّا بزيارة الأقارب وفي حالات استثنائيّة.

نعم أنا من الغرباء! انتصب بصعوبة، أضع تلكَ القبّعة على رأسي، أمسك بحقيبتي، لا أجرؤ على أن أرمق الطبيب بأيّ نظرة، مرارة ما تسكن روحي، أقول له بانكسار، وأنا أغادر المكان: لم أتوقع أن ترحمنّي؟ الأيّام لم تفعل ذلك، قلبي لم يفعل ذلك، فلمَ تراكَ تفعل ذلك؟

أستدير، وأكاد أغادر الغرفة، صوت الطبيب يوقفني، تعابيره ما تزال محايدة، لكن كلام ما يسكن فمه، أتراه أيقن بفطرته آلامي؟ أم قدّر بحدسه من أكون؟ يقول لي بصوت خفيض، ولكنّه وقور، يحمل حناناً خفيّاً:- تستطيعين رؤيته، ولكن فقط لدقائق، أهزّ رأسي ممتنّة شاكرة.

الممرّ الطويل الذي أقطعه بسكون إلى جانب الطبيب تفوح منه رائحة السكون، يمزّقه صوت صراخات نسائية، يلتفت الطبيب نحوي، ويقول كما المعتذر:- حالة ولادة متعسرة، لقد دخلتْ المستشفى قبل دقائق فقط، ستدخل عمّا قليل إلى غرفة الولادة.

يعود الطبيب إلى صمته، أمّا أنا فأتحسس بطني، صرخات المرأة تجعلني أشعر بحسرة خاصّة، حسرة تجعلني أتفقّد بطني، أتلمّس جدبه.تعود الصراخات من جديد.

الغرفة مظلمة، بعض النور يتسرّب من النافذة، لا أكاد أرى إلّا مارداً يتمدد أمامي، أمّا وجهكَ فلا أراه، يد الطبيب تمتدّ إلى مفتاح المصباح الكهربائي ليضيء المكان ... كما البرق تظهر قسماتكَ، أقترب منكَ بخوف من يقطع آلاف السّنين في لحظة، بخشوع من يقترب من قبر أحد الأولياء، تغرق في الأبيض، وجهكَ شاحب، أنا أحبّ الشحّوب، لكنّني لا أحبكَ شاحباً، أمدّ يدي لأداعب شعركَ الشّمسيّ، ماذا حدث له لينحسر إلى هذا الحدّ، أداعبه بشوق كبير، ألمس وجهكَ، ما زال ساحراً على الرغم من تلكَ التجاعيد التي تسكنه، أمسك بيدكَ، أركع قريباً من سريركَ، أجعل يدكَ مخدعاً

لقبلاتي، أخفيها في عميق كفيّ، أغسلها بالكثير من شآبيب دموعي ... لا أملك أن أكبح نحيبي، ليتك يا جدّتي كنت على قيد الحياة، فأنت فقط من تدركين حكمة البكاء، لذا كنت تحترفينه.

إحدى كفيّ قدميكَ تظهر مكشوفة من تحت دثارك، أقترب من قدمكَ، كم أرغب في تقبيلها، لكنّ ذلكَ الطبيب الذي يقف قريباً من الحارس، يقف سداً منّيعاً أمام أمنّياتي، أتساءل في نفسي أهناكَ ما يمنع أن يقبّل المرء قدم مريض؟ لا أنتظر إجابة، بل أقترب من قدمكَ، وأقبّلها بكل شوق كما ينبغي لها، ثمّ أسترها بذلكَ الدثار، تأثّر خاصّ يسكن وجه الطبيب، أعجب كيف يملك ذلكَ الطبيب مثل هذه الدموع التي تتلألأ في عينيه، فسيستطيع أن يقهرها بصمت طويل، وملامح محايدة ظننت قبل قليل أنّه لا يملك غيرها.

يغادر الطبيب الغرفة على غير ما توقّعت، أتراه يهبني زيارة أطول ممّا توقعّت؟ أتأمّلكَ طويلاً بما يناسب سنوات الانتظار، أتساءل أيّ الآلام تسكنكَ؟ ليتني أستطيع أن أحمل بعضاً منها عنكَ.

أتحسّس قسمات وجهكَ كأنّ جسدي يحتاج إلى إعادة التعرّف على جسدكَ، لعلّ يديّ باردتان أكثر ممّا يجب، برودتهما تدعوكَ برفق إلى رؤيتي، تفتح عينيك، لا تدهش لرؤياي، كأنّك كنتَ تعلم بأنّني قادمة، نوع من الرّاحة يسكنهما لدى رؤيتي، أنتظر أن تشدّ بيدكَ على يدي، لكنّكَ لا تفعلْ، تقول لي: ضمّيني ...

أقدّر أنّك تعجز حتى عن ضمّي، أشدّ على يدكَ، ثم أقبّلها، أنحني نحوكَ ثم أضمكَ بشدّة، ثم أحرّر جسدكَ من حضني، تبتسم لي

ابتسامة تشبه ابتسامة ساكني المقابر، بصعوبة تستطيع أن تحرّك يدكَ وتداعب شعري للحظة، ثم سرعان ما ترتخي يدكَ المثقلة بمرضكَ، تطالع مشبكيّ شعري الذّهبيّين، لا بدّ أنّك تعرفهما، فأنتَ من أهداهما لي وتقول: تبدين جميلةً كما كنت دائماً ...

- ...

تغمض عينيكَ، هل عدتَ إلى النّوم؟ دقائق ثم تعود، وتطالعني بعينيكَ المتعبتين تقول: هل تسامحيني؟

- أسامحكَ فقط إن وعدتني بأن لا تهجرني مرة أخرى في الحياة الآخرة.

- أعدك ...

- ...

- إذن تسامحيني؟

- نعم.

تريحكَ كلماتي، وتعود إلى نومكَ، أركع مرة أخرى قريباً من سريركَ، ثم أعود إلى ضمّ يدكَ التي ما يزال خاتم أعرفه يسكن أحد أصابعها، خاتم قلت لكَ يوماً: سأعرف أنّك ما تزال تحبّني ما زلت تلبسه. إذن ما تزال محبّاً لي.

ساعات ثلاث تمضي، ولا يعود الطبيب، يا له من رجل! فهمَ في لحظات ما لم يفهمه كثير من البشر في سنين، لا بدّ أنّه سيعود الآن ليطلب مغادرتي، سأفعل قبل أن يطلب ذلك، ألبس معطفي المبتلّ

الذي جعلته بعيداً عنّي، ما زال مبتلاً، كلّ ملابسي مبتلّة، أقترب من جبينكَ الشّمسيّ، أطبع قبلة طويلة عليه، أقول لكَ بنفسي: آه يا حبيبي لن تعيش كرجال عائلاتكَ بعمر ياسمينة بل ستعيش بعمر سنديانة.

صوت الخطوات يقتربْ، أتخيّل الطبيب يدخل، ويطلب منّي المغادرة، أيّ كلمات الشكر سأقول له؟ لا أدري ...

يفتح الباب تدخل صبيّة سمراء، قامتها تشبه قامتكَ، لكنّ ملامحها أجمل من ملامح شرف، هي ابنتكَ، أعرف ذلك، قلبي يقول ذلك، كيف لا أعرف إنساناً هو جزء منكَ، نصف وجوده ورثه منك؟ تتفاجأ الصبيّة لوجودي، تقترب بأدب منّي، وتصافحني، أصافحها بكلّ أشواق الدّنيا، تقول لي: مساء الخير.

لا أجيبها بل أطوّقها بنظراتي، تقول لي بإحراج:- هل جئت لزيارة بابا؟

- أنت أحلام، أليس كذلك؟

- نعم.

- ...

- أتعرفينني؟

- ...

- من تكونين؟

أبتسم لها ابتسامة يلوح الموت فيها وأقول:- لا أكون ...

هذه هي أحلام إذن، أحلام التي حلمت بها طوال عمري، لو كنت في صحة جيدة لضحكتَ، وسألتني:- من أجمل أحلامي أمْ أحلامك؟ كنت سأصمت بالتّأكيد ولا أجيب، لا أعرف أيّ الكلمات أقولها لكَ، أأقول لكَ أنّني لم أتزوّج أبداً؟ أأقول لكَ أنّني بلا أحلام؟ أأقول لكَ إنّ كلّ ما أملك هو ذكرياتي وتمنّياتي وحفنة من الانتظار، قد تعاتبني على أكاذيبي، قد أصمت، وقد أقول لكَ: ألا أستحق شيئاً من الأحلام. أنتَ تنجب أحلام، وأنا لا أملك إلاّ الأحلام، قسمة غير عادلة، أليس كذلك؟ لكنّها ترضيني.

أخطف نظرة عجلى من جسدكَ النّائم، قلبي يودّعكَ، لكن بصمت وداع لا لقاء بعده، آه كم عذّبتني!

هذه أوّل أشعة الشّمس، تتسلل ببطء نحو جسدي الذي يجلس على هذا المقعد الخسبيّ منذ ساعات، تلكَ الأشعة تعجز عن أن تبعث الدفء في جسدي الذي سكنه البرد، وسكنته الوحشة طوال الليّل، هذه الأشعة تغمرني بالطمأنينة تشبه تلك الطمأنينة التي غمرتني قبل قليل عند سماع نداء المؤذّن يدعو إلى صلاة الفجر، في هذا الصّباح ولأوّل مرة في حياتي منذ سنين لم أدع الله أن يجمعني بكَ، لم أعد أرغب في ذلك.

ما زال الوقت مبكّراً على موعد أوّل قطار، المحطّة تبدو كبيرة من دون مسافرين، أكبر ممّا يجب، أفكّر في مطالعة الساعة، أعـود، وأقـول لنفسي ما حاجتي إلى معرفة الوقت؟ لعلّي لن أحتاج إلى انتظـار قطـار الصّباح حتى أعود إلى بيتي، الكثير من البرد والوهن يسكن جسـدي، ألأنّني أصبحت عجوزاً أنـا أشـعر بمثـل هـذا الضـعف؟ لم أعـرف أن الناس يشيخون في الأربعين مـن عمـرهم، لعلّـي شـخت قبـل ذلـكً بكثير، لكنّني ما أزال حيّـة، أنـت قلـت لـي:- إنّ الأشـقياء يعيشـون طويلاً ...

وأنا عشت طويلاً، أكثر مما ينبغي لحزني وآلامي، شيء من دفء الشّمس يغمر وجهي، أنا أحبّ النّور، ولكنّني أحـبّ الشّـمس أكثـر، هي تذكّرني بضـحكاتكَ، تـذكّرني بجسـدكَ يضـمّني، ويقـول لـي:- مجنونة. فأقول له.أحبّكَ كمـا عبّـاد الشّـمس الـذي يعشـق الشّـمس، ويتابع بقرصه العاشق وجهها الذّهبيّ...

المزيد من الأشعة تغمر جسدي، نور يحتضن بـدفء قلـبي، لكـنّ جسدي ما يزال يشعر ببرد شديد، استلقي بتعب علـى المقعـد، أغلـق عيني، أشعّتكَ تداعب أهدابي، أيـن يكـون طيفـكَ؟ أفـتح عـيني مـرةً أخرى، أجده قريباً من رأسي، أشعر بطمأنينـة، أسـدل براحـة داهمـة جفنيّ عيني من جديد، شعاع من الدفء يغادر قلبي، الأشقياء يعيشون طويلاً، هكذا قلت لي دائماً. لقد عشت طويلاً ...

طيفكَ يحضن طيفي بسعادة، يحدّق طيفي بذلكَ الجسـد المسـجّى على ذلكَ المقعد، أحد عمّال المحطّة يقترب من ذلكَ الجسـد، ويصـرخ مذعوراً، لا أنتظر لأراقب ما يحدث، بل أمسك بكفّ طيفكَ، وأحلّـق معكَ نحو البعيد ... نحو الشّمس.

عمّان / ٢٠٠٥م

النهـايــة

د. سناء شعلان (بنت نعيمة)

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، وكاتبة سيناريو، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلميّ والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٧٠ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحيّ مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تُنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث العربيّ والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة والفكريّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعيّ حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربيّ والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١- الرّوايات:

١- أعشقني.

٢- السّقوط في الشّمس.

٣ - أدركها النّسيان.

٢- روايات الفتيان:

١- أصدقاء ديمة.

٣- المجموعات القصصيّة:

١- قافلة العطش.

٢- تراتيل الماء.

٣- الجدار الزّجاجيّ.

٤- حدث ذات جدار.

٥- الذي سرق نجمة.

٦- تقاسيم الفلسطينيّ.

٧- عام النّمل.

٨- رسالة إلى الإله.

٩- أرض الحكايا.

١٠- مقامات الاحتراق.

١١- ناسك الصومعة.

١٢- قافلة العطش.

١٣- الكابوس.

١٤- الهروب إلى آخر الدّنيا.

١٥- مذكّرات رضيعة.

١٦- أكاذيب النّساء.

١٧- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩- الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

<u>٤- مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:</u>

١- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "القصّة في الأردن: نصوص ودراسات".

٢- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "الضّياع في عيني رجل الجبل".

٣- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان "في العشق".

٤- مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان "مختارات من القصّة الأردنيّة".

٥- مجموعة قصصية مشتركة مع قاصّين مصريين بعنوان "مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع".

٥- مسرحيّات للكبار:

١- إعداد وسنيوغرافيا لمسرحيّة "صانعة" المقتبسة عن مسرحيّة (البيت النّظيف) للأمريكيّة سارة رول.

٢- دعوة على شرف اللّون الأحمر.

٣- "سيلفي" مع البحر.

٤- وجه واحد لاثنين ماطرين.

٥- محاكمة الاسم (×).

٦- السّلطان لا ينام.

٧- خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦- مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١- اليوم يأتي العيد.

٢- رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧- قصص أطفال:

١- قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم الناس والمروءة".

٢- قصّة للأطفال بعنوان "هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد".

٣- قصّة للأطفال بعنوان "الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربيّ".

٤- قصّة للأطفال بعنوان "ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة".

٥- قصّة للأطفال بعنوان "اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق".

٦- قصّة للأطفال بعنوان "العزّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك".

٧- قصّة للأطفال بعنوان "عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس".

٨- قصّة للأطفال بعنوان "زرياب: معلّم النّاس والمروءة".

٩- قصّة للأطفال بعنوان "صاحب القلب الذّهبيّ".

١٠- مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلاّت الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨- المقالات والنّصوص النّثريّة:

١- أبي سيّد الكلمات.

٢- الذين لا ينامون.

٣- قالت النّساء.

٤- غصون وتخوم.

٥- الدّرب إليهم.

٦- الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩ - لقاءات حواريّة:

١-الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)

٢-العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)

٣-لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠ - كتب نقديّة متخصّصة:

١- الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.

٢- السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠-٢٠٠٢م

٣- دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.

٤- الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.

٥- السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في الأدب المعاصر.

٦- ترنّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات نقديّة في إبداعات معاصرة.

٧- So Close, Much Farther: Studies in Criticism

١١- المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:

١- المشاركة بفصل بعنوان "السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح" في كتاب بعنوان "حنون مجيد في منجزه القصصيّ"، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.

٢- مشاركة بفصل بعنوان "لقاء مع العلامة علي القاسميّ: أبو المعاجم العربية الحديثة" في كتاب "الدّكتور علي القاسميّ سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين"، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.

٣- المشاركة بفصل بعنوان "عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع" في كتاب "عبد الكريم غرايبة مؤرّخاً عربيّاً".

٤- المشاركة بفصل بعنوان "مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقيّ فرج ياسين في مجموعته القصصيّة "واجهات برّاقة" في كتاب" في آفاق النّص القصصيّ: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين".

٥- المشاركة بفصل بعنوان "البطل في قصص زياد أبو لبن" في كتاب "القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن".

٦- المشاركة بفصل بعنوان "الذين لا يموتون" في كتاب "المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه".

٧- المشاركة بفصل بعنوان "الفنتازيا رداء للتّثوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة" في كتاب نقديّ بعنوان "نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعيّ".

٨- المشاركة بفصل بعنوان "شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان" في كتاب "دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ".

١٢- الكتب المنهجيّة:

١- كتاب بعنوان "تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس"، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

عنوان المؤلّفة: د. سناء شعلان

الأردن – عمان– الرّمز البريدي١١٩٤٢

ص. ب ١٣١٨٦

خلوي وواتس وفايبر: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩

البريد الالكتروني

Selenapollo@hotmail.com

العنوان على الفيس بوك

Facebook: Sanaa Shalan

9 789957 545086

Sanaa Kamel Shalan